

فِي عَجَبَاتِ الْقُرْآنِ

شرح رسالة

بيان عجز القرآن

للإمام

أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي

رواية

أبي الحسن بن علي بن الحسن الفقيه السجزي

تأليف

الدكتور عمر محمد عمر باحازق

عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة

دار المناهج للدراسات والبحوث

دمشق - ص.ب. ٤٩٧١ - بيروت - ص.ب. ١١٢/٦٤٢٢

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

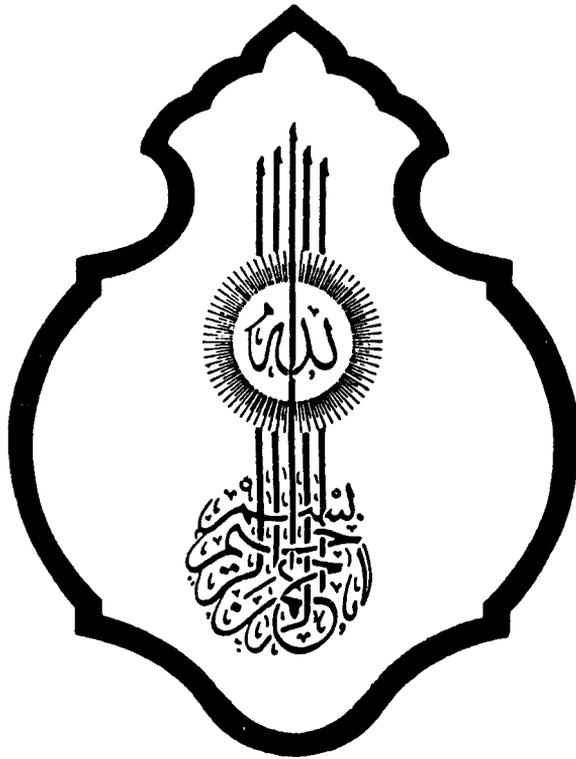
رُطِبْ نِشْرًا تُنَايِرْ



دَارُ الْمَكَامُونِ لِلتُّرَاثِ

دمشق - ص.ب. ٤٩٧١ - هاتف ٢٢٩٨٢٠
بيروت - ص.ب. ١١٣/٦٤٣٣ - هاتف ٨١٠٥٧١

شرح رسالة
بيان إعجاز القرآن



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كُنْبًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَشَ مِنْهُ
جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٢﴾

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

اللهم صلِّ

أهـدي هذا الكتاب إلى أضي وسقبي

فضيلة الدكتور كامل محمد يوسف جان

« حفظه الله آمين » فناءً وتقديراً..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، صاحب الحوض المورود ، واللواء المعقود ، والمقام المحمود ، من كلمه البعير ، وسال بين يديه الماء النмир ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن إلياس بن خزيمة بن مدركة بن نزار بن معد بن عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم ، عليهم أفضل الصلاة والتسليم .

وبعد ؛ فإنه من لطائف المنن التي تستحق الشكر والثناء أن يعيش الإنسان على مائدة القرآن الكريم ، ومن الشرف العظيم أن أكرمني الحق تعالى بمدارسة كتابه الكريم والوقوف على شيء من إعجازه ، وهذا يثلج الصدر وتقرُّ به العين ، ولعله من عاجل بشرى المؤمن أن وفقني الله لذلك .

الموضوع الذي أتحدث فيه موضوع شريف القدر ، وهو يدور حول إعجاز القرآن الكريم في رسالة الإمام الخطّابي : « بيان إعجاز القرآن الكريم » والرسالة جليلة القدر ، وجسيمة في بابها ، حاول الإمام الخطّابي - رحمه الله - من خلالها التدليل على شرف وعلو منزلة كتاب الله تعالى ، وإظهار ما حواه هذا الكتاب المعجز من

بيّنات خالدة ، وبراھين ساطعة ، كما وقف في حزم في وجه أولئك المغرضين الذين يحاولون القدح في هذا الإعجاز من خلال بعض الشبه التي يثيرونها ، وأثبت ضعفهم وعجزهم وانقطاعهم أمام بلاغة القرآن وشرف إعجازه ، وقد قمت بتوفيق الله بشرح هذه الرسالة ، وإيضاح معالمها في تبصر وتمعن لا تكاد تندّ فيه كلمة إلا وتأخذ حقّها من الشرح والتوضيح وكنت أجعل المتن ، أي : رسالة الإمام الخطابي بين قوسين هكذا [. .] ، ثم آخذ في الشرح والتفصيل موضحاً الكلمات الغريبة مترجماً للأعلام ، مفضّلاً الغاية والأسلوب الذي عناه الإمام الخطابي ، ولا سيما في ردّ الشبه والاعتراضات والتي امتلأت بها الرسالة ، في أسلوب بلاغي وأدبيّ يقرب الموضوع إلى ذهن السامع والمتلقي ، والرسالة بعد هذا مليئة بالكثير من الملح والنكات البلاغية والطرائف النحوية فهي جامعة مانعة ، وتعدّ هذه المحاولة في شرح الرسالة فريدة في نوعها ، ولا أبالغ إذا قلت : إنه أول عمل من نوعه يتناول رسالة الإمام الخطابي بالشرح والتوضيح .

هذا ، ولا يزال القارئ والسامع لهذه الرسالة يجد فيها ما يشنّفُ الآذان ، ويبعث على الأنس والاسترواح ، والله أسأل أن يجعلها في ميزان الحسنات ، وطريقاً إلى روضات الجنات ، إنه سميع مجيب ، وأختتم كلامي بالصلاة على البشير النذير والسراج المنير ، سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

وتَمّ الفراغ منه في العاشر من ربيع الأول عام ألف وأربعمائة وستة عشر هجرية

الدكتور عمر بن محمد عمر باحاذق

المدينة المنورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

.....

تعريف بالإمام الخطّابي

هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطّابي^(١) البُسْتِيّ نسبة إلى بُسْت ، وهي مدينة من بلاد أفغانستان اليوم .
ولد في رجب ٣١٩ هـ .

يذكره بعض من ترجم له باسم أحمد ، ومنهم ياقوت والسمعاني ، وذكر أنه سئل عن اسمه أحمد أو حمد ؟ فقال : سُمّيت بحمد وكتب الناس أحمد .

نشأ محبباً للعلم ، فاجتهد لتحصيله من كلّ سبيل ، وطوّف من أجله في البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً للتزود من العلماء الأجلاء ، رحل إلى العراق ، وتلقّى العلوم بالبصرة وبغداد ، وذهب إلى الحجاز وأقام بمكة ردحاً من الزمان ، وعاد إلى خراسان ، واستقرّ به المقام في نيسابور عامين أو أكثر ، وصنّف بها بعض كتبه ، ثم خرج إلى ما وراء النهر ، وانتهت به الرحلة إلى مدينة (بُسْت) فأقام بقية حياته بها وفيها توفي ٣٨٨ هـ .

قال عنه الثعالبيّ في اليتيمه : كان يُشَبَّه في زمانه بأبي عبيد القاسم بن سلام .

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - للإمام السيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . المجلد الأول - المكتبة العصرية ببيروت - ٥٤٦ - ٥٤٧ .

والخطّابي نسبة إلى زيد بن الخطاب أخي سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقال السمعاني : كان حُجَّة صدوقاً ، رحل إلى العراق والحجاز ، وجال خراسان وخرج إلى ما رواء النهر ، وتفقه بالقفال الشاشي وغيره ، وأخذ الأدب عن أبي عُمر الزَّاهد ، وإسماعيل الصَّفَّار ، وألف في فنون .

وله من التصانيف : غريب الحديث ، شرح البخاري ، شرح أبي داود ، وغير ذلك وقد أخذ العلم عن البارزين من علماء عصره ، ورحل في طلب الحديث على أئمة واجتهد فيه حتى صار إماماً ، وروى عنه خلق منهم : أبو مسعود الحسن بن محمد الكرابيسي البُستي ، وأبو بكر محمد بن الحسن المقرئ ، وأبو الحسن علي بن الحسن الفقيه السَّجَزي والنَّسوي ، وأبو حامد الإسفراييني ، والحاكم النيسابوري وغيرهم .

كان الإمام الخطابي - رحمه الله - رجلاً عفاً صالحاً كريماً ، يتَّجر فيما يملك من الحلال ، ينفق من سعته على العلماء من إخوانه ومريديه .

دور الإمام الخطابي في قضية الإعجاز

يُعَدُّ الإمام الخطابي من أول من نبه الأذهان إلى قضية (النَّظْم)^(١) والتي كان لها خطرهما في ازدهار الدراسات البلاغية فيما بعد ، لقد شرع في البحث عن مقياس ينطبق على القدر المعجز من القرآن الكريم ، ويبرز أسباب الحسن والجمال الكامنة فيه ، وقد

(١) قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية - د . عبد العزيز عبد المعطي عرفة - الطبعة الأولى - صفحة ٣٨٩ .

تمخض عمله هذا عن نظرية النظم والتي شغلت مَنْ بعده من الدارسين .

عمل الإمام الخطابي في رسالته بيان إعجاز القرآن الكريم

ألف الإمام الخطابي رسالته في « بيان إعجاز القرآن الكريم » والتي تبدو من أولها وكأنه قرأ كل ما كتب حول إعجاز القرآن الكريم ، وفهمه فهماً عميقاً ، فأصدر رأيه فيه صريحاً واضحاً يقول : « قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً ، وذهبوا فيه كلّ مذهب من القول ، وما وجدناهم بعد صدوروا عن رأي ، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن ، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته » ثم ناقش وجوه الإعجاز التي وصلته ، ووضح فيها رأيه ، وعدّ منها ما نقله المسلمون خلفاً عن سلف من أنّ القرآن الكريم معجزٌ للخلق ممتنع عليهم الإتيان بمثله ، وشاع هذا وكثُر ، حتى ثبت في نفوسهم واستقرّ ، وهذا الوجه في رأيه - أبينها دلالةً ، وأيسرها مؤونةً ، وهو مقنع لمن لم تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه . ثم عرض مذهب الصّرفة ورأى أنه وجه قريب ، إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه ، وهي قوله تعالى : ﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذه القرآن ، لا يأتون بمثلِهِ ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً ﴾ .

وانتقل إلى فكرة تضمن القرآن للأخبار المستقبلية ، ولا يُشك في أنها نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن ، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن

تكون معجزة بنفسها ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ من غير تعيين ، فدلّ على أن المعنى غير ما ذهبوا إليه .

ونعى على معاصريه تسليمهم بصفة البلاغة للقرآن الكريم على نوع من التقليد ، وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به ، وصاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن ، الفاتئة في وصفها سائر البلاغات ، أجابوا : بأنهم لا يمكنهم تصويره ولا تحديده ، وقد يخفى سببه عند البحث ولكن يظهر أثره في النفس . . .

ولكن الخطابي يرى أن هذا لا يُقنع في معرفة وجه الإعجاز البلاغيّ ، لأن الباحث المدقق عن باطن العلة لا بد أن يعتقد : « أن الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حسّ السامع والهشاشة في نفسه ، وما يتحلّى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب والتأثير في النفوس ، فتصطلح من أجله الألسن على أنه كلام لا يشبهه كلام ، وتحصر الأقوال عن معارضته ، وتنقطع به الأطماع عنها ، أمر لا بد له من سبب ، بوجوده يجب له هذا الحكم ، وبحصوله يستحقّ هذا الوصف .

ثم يخبرنا الخطابي أنه استقرى جميع الأوصاف الخارجية عن القرآن الكريم ، والأسباب النابتة منه ، فلم يجد شيئاً منها يثبت على النظر ، أو يستقيم في القياس ويطرّد على المعايير ، فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوباً في ذاته ، ومستقصى من جهة نفسه ، فدلّ النظر على أن السبب له والعلة فيه : بلاغته .

ولكنه يشرحها على طريقته ، ويبدأ بتقسيم الكلام الفاضل

المحمود دون النوع الهجين المذموم ، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة - إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الكلام البليغ الرصين الجزل .

الثاني : الفصيح القريب السهل .

الثالث : الجائز الطلق الرسل .

وهذه الأجناس مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة ، غير متساوية ، فالقسم الأول : أعلى طبقات الكلام وأرفعه . والقسم الثاني : أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث : أدناه وأقربه . فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام ، يجمع صفتي الفخامة والعدوبة .

فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نُبوّ كل منهما على الآخر ، فضيلة خُصّ بها القرآن ، يسرها الله بلطف قدرته من أمره ، ليكون آيةً بيّنةً لنيّبه ، ودلالةً على صحّة ما دعا إليه من أمر دينه .

وهنا يصلُ إلى بيان السرّ البلاغي الذي أعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورة من مثله ، وهو عنده أمور منها :

١ - أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وألفاظها

- التي هي ظروف المعاني والحوامل .

٢ - أن أفهامهم لا تدرك جميع معاني الأشياء المحمولة على

تلك الألفاظ

٣ - وأن معرفتهم لا تكمل لاستيفاء جميع وجوه النظم التي

بها يكون اتئلاف الألفاظ وارتباط بعضها ببعض .

٤ - عدم قدرتهم على اختيار الأفضل عن الأحسن من وجوه النظم .

وقد فُتدَّتْ في ثنايا الشرح لهذه الرسالة بطلان هذا الوجه ، وأثبتت بأن التحدي من الحق عز وجل لم يقع في الإحاطة بجميع أسماء اللغة العربية وألفاظها ، على أن تقسيمه الذي أثبتته بعد ذلك ، وهو قوله : « وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة :

١ - لفظ حامل .

٢ - ومعنى به قائم .

٣ - ورباط لهما ناظم .

هذه الأشياء الثلاثة إذا جاءت مجموعة وعلى أحسن ما يكون كان الكلام معجزاً » .

ولهذا تراه يقول في شأن القرآن الكريم : « وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها » .

أما غير القرآن فيرى الخطابي أن هذه الفضائل الثلاث توجد ولكن على التفرق ، فلا يمكن لمخلوق وإن بلغ الغاية في الفصاحة أن يستمر كلامه على مستوى واحد من التفوق امتداد حياته ، ولكن يوجد على تفرق يقول : « فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظم التأليف ، مُضمّناً أصحّ المعاني » .

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله .

ويبدو أن الخطابي قد استمدّ أسسه الثلاثة التي يقوم عليها الكلام ، ويندرج بسببها في مراتب الكمال ، حتى يصل إلى حدّ الإعجاز - من موقف العرب الذين شوفوها بالقرآن الكريم وتُحَدُّوا به قال : « ثم صار المعاندون له ، ممن كفر به وأنكره ، يقولون مرّة : إنه شعر لما رأوه كلاماً منظوماً ، ومرّة سحر إذ رأوه معجوزاً عنه ، غير مقدور عليه ، وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب ، وقرعاً في النفوس يريبهم ويحيرهم ، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف ، ولذلك قال قائلهم : « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة » . وكانوا مرّة لجهلهم وحيرتهم يقولون : ﴿ أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً ﴾ مع علمهم أن صاحبه أمي ، وليس بحضرته من يملي أو يكتب ، في نحو ذلك من الأمور التي جماعها الجهل والعجز»^(١) .

ثم يعود الخطابي إلى مناقشة الأسس التي بنى عليها نظريته في الكلام يقول : « ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، والذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة»^(٢) فواضح أن الخطابي ، يرى

(١) رسالة بيان إعجاز القرآن - للخطابي - ص ٢٨ .

(٢) بيان إعجاز القرآن - ص ٢٩ .

بخصوص الألفاظ ، أن يكون اللفظ مستقراً في مكانه اللائق به الذي يتطلبه المعنى بحيث لا يريد به بدلاً ، ولا يبغي عنه حولاً ، فإذا لم يصادف اللفظ موقعه ، فسد معنى الكلام ، وذهب رونق البلاغة .

ثم يقول : « والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها ، وإن كانا قد يشتركان في بعضها »^(١) .

ثم مضى يشرح الفروق اللغوية بين الألفاظ التي ذكرها ، وانتهى بالنتائج الآتية :

١ - غلطُ بعض المفسرين في القرآن الكريم بسبب عدم معرفتهم بالفروق الدقيقة بين الألفاظ .

٢ - تَهَيَّب كثير من السلف تفسير القرآن الكريم وتركهم القول فيه حذراً من أن يزلوا فيذهبوا عن المراد ، وإن كانوا علماء باللسان ، فقهاء في الدين . ويضرب مثلاً بالأصمعي .

٣ - حثَّ النبي ﷺ على تعلّم إعراب القرآن وطلب الغريب منه .

٤ - أن القوم جُبُّوا عن معارضة القرآن لما كان يؤودهم ويتصعدّهم منه ، وقد كانوا بطباعهم يتبينون مواضع تلك الأمور ، ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها ، ويعلمون أنهم لا يبلغون شأوها ، فتركوا المعارضة بعجزهم ، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم^(٢) .

ويرى الخطابي أن الميّزة البلاغية لا تتعلق بالألفاظ فقط التي

(١) بيان إعجاز القرآن - ص ٢٩ .

(٢) رسالة بيان إعجاز القرآن - للإمام الخطابي - ٣٥ .

يتركب منها الكلام ، بل لا بدّ أن يضاف إليها المعاني ، ويضاف كذلك ملابسه التي هي نظوم تأليفه .

ثم يتحدث عن المعاني التي تحملها الألفاظ ويرى أن الأمر في معاناتها أشدّ لأنها نتائج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار^(١) .

ولكنها ليست وحدها أساس المفاضلة بين كلام وكلام . يقول : « وقد يتنازع الشاعران معنى واحداً فيرتقي أحدهما إلى ذروته ويقصر شأؤ الآخر عن مساواته في درجته » .

ويصل إلى رسوم النظم ، وهي الأساس الثالث من نظريته ، فيرى أن الحاجة إلى الثقافة والحدق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ويرتبط بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان .

ثم ينتقل الخطابي في رسالته إلى عرض الآيات التي وصفها الطاعنون بأنها لم تقع في أفصح وجوه البيان وأحسنها ، لوجود أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها ، فيرد عليهم طعنهم ويوضح خطأهم بما يدلّ على تمتع الخطابي بذوق بلاغي لغوي بعيد المدى ويعرض لما قاله المعاندون من أن المعارضة قد حصلت ، ولكنها لم تنقل وقد ردّ عليهم بأن كتم مثل هذه الأخبار مخالف للطبائع ومجاري العادات ، ثم يختم رسالته ببيان وجه آخر للإعجاز هو : « صنيع القرآن الكريم بالقلوب وتأثيره بالنفوس » أي : الأثر النفسي ، ويرى أن الناس ذهبوا عنه فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من أحاديهم ، وضرب لهذا الوجه مثلاً بقصة إسلام عمر رضي

(١) نفس المرجع (٣٦) .

الله عنه ، وقصة موقف عتبة بن ربيعة من قومه بعد سماعه للقرآن الكريم وغيرهما .

وبعد فالخطابي بجهده هذا لفت أنظار العلماء إلى بحث « النظم » بحثاً علمياً دقيقاً حينما أبرز عناصر الجمال في العبارة ، وحصرها في ثلاثة أمور :

أولاً : اللفظ ، ثانياً : المعنى الأصلي ، ثالثاً : نظوم التأليف للعبارة . وتحدّث عن اللفظ بما لا يدع مجالاً لمستزيد .

وأما عن المعنى الأصلي ، فالحقّ أنه لم يزد فيه على ما قال السابقون ، كما لم يصف المتأخرون عليه شيئاً ، أما نظوم تأليف العبارة ، فقد ذكر أن رسوم النظم تحتاج إلى حذق ومهارة ووضح أمرين هامين :

١ - أن رسوم النظم عبارة عن ارتباط الكلمات بعضها ببعض والتتامها .

٢ - أن هذا الارتباط وذلك الالتئام يحدث صورة في النفس يتشكل بها البيان ، ولكن ما الأمور التي تقوي هذا الارتباط ، هذا ما تركه للإمام عبد القاهر الجرجاني ليتحدث فيه ويفيض في كتابه (دلائل الإعجاز) كما أفاض عن الأثر النفسي وصنيع القرآن بالقلوب ، وتأثيره في النفوس في كتابه الآخر (أسرار البلاغة) .

ومن الطريف حقاً ما أورده الإمام الخطابي - رحمه الله - في رسالته من تحليل لبعض النصوص القرآنية تحليلاً فنياً دقيقاً جميلاً ، وتحليله يدلّ على ذوق وبصر بمواطن الجمال في الكلام ، كما في قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿ فأكله الذئب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ .

عملي في شرح رسالة الإمام الخطابي رحمه الله

حقاً إن معايشة الإمام الخطابي في رسالته : « في بيان إعجاز القرآن الكريم » أمر ليس بالسهل ، ولا أبالغ إذا قلت بأني تجشمت كثيراً من المشاق ، وكدّ الذهن ، وأنا أعالجها ، وقد تقول : إن أي عمل لا يخلو من جهد ومعاناة ، أقول : نعم ، لكن رسالة كرسالة الخطابي ومن عاصره ، تحمل من الألغاز والأسرار الكثير ، وذلك أن سلفنا الصالح - رحمهم الله - كانوا يكتبون للخاصة ويخاطبون العلماء ، فتأتي كتاباتهم لمحات ، وإشارات ، وبالتالي فمن يتعرّض لشرح نصوصهم ، يحسّ بمدى الجهد المبذول لا سيما إذا كان خالي الوفاض . إن أسلوب رجل عالم موسوعي قد مضى عليه ما يقرب من ألف سنة ، ليس من السهل شرحه وفك رموزه في عصر ازدهرت فيه العلوم ، وتمكن فيه المتمكنون ، فالإقدام على مثل هذا مخاطرة ، ما لم يكن الباحث قد استعان بالله سبحانه ، ثم شمر عن ساعد الجد ، وأحاط بمختلف الثقافات ، بيد أن الحق عز وجل قد أعانني على تفسير ما أشكل ، وتوضيح ما أبهم ، فقامت بإلقاء الضوء على ما حوته هذه الرسالة من ذخائر ، كما أوضحت وأبنت عن كثير من تلك اللطائف التي حوتها الرسالة ما بين نكتة ومسألة نحوية ، كما عالجت قضية « النظم » التي أشار إليها الإمام الخطابي ووجه الإعجاز عنده ، وأوضحت كيف أنّ كلّ لفظة قد جاءت في موضعها الأخصّ الأشكل بها في إفادة بيان مراد الخطاب ، وأن لكل لفظة منها خاصية تميّز بها عن صاحبها في بعض معانيها ، وإن كانتا قد

تشركان في بعضها . كما اتضح بأن عمود البلاغة الذي هياً للقرآن إعجازه وضع كل لفظة موضعها الأخص الأشكل بها في إفادة بيان مراد الخطاب ، كما ركدتُ من خلال الشرح تلك الدعوة السادرة التي تزعم بأن قريشاً إنما أحجمت عن معارضة القرآن لا لعجزها ، وإنما لمناجزته بالحرب ومعاجلته بالإهلاك استراحة إلى الخلاص منه وكراهة لمطاولته على القول ومعارضته بالكلام الذي يقتضي الجواب . فتكثر الدعاوى ويخفى موضع الفضل بين الكلامين . . . وأثبت بطلان هذه الدعوى وأنَّ شاهد الحال والمقال يكذبه ، ولو كان الأمر كما ذكر لما لجؤوا إلى السيف ، ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة ، ولم يركبوا تلك الفواقير المبيرة ، حتى نابذوه وناصره الحرب فهلكت فيه النفوس ، وأريقت المهج ، وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال . . . إنَّ الرسالة مملوءة بالكثير من الفوائد والطرائف ، ولقد هام بها العلماء قديماً وحديثاً فكانت محل الدرس والفهم والتلخيص والاستظهار ، غير أنني لا أسرف في المدح إذا قلت بأنها لم تنل حظها من الشرح والتوضيح من قبل هذا الشرح ، وقد أكرمني المولى عز وجل بأن تهيأ لي شرف القيام بهذه المهمة الشريفة فأسند لي تدريس هذه الرسالة بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة لطلاب السنة الرابعة ، وكان ذلك سنة ١٤١٥ هـ فقامت بشرحها هذا الشرح لطلابي ، وأحمد الله باني قد نلت هذه الحظوة وهذا الشرف في خدمة كتاب الله عز وجل ، وخدمة هذه الرسالة التي هي ينبوع من ذلك البحر العظيم ، وتدور حول إعجازه وبيان عظمته التي دان لها الإنس والجن ﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا

القرآن لا يأتونَ بمثلِهِ ولو كانَ بعضُهُم لبعضٍ ظهيراً ﴿﴾ .
ختاماً لا يسعني إلا أن أرفع أكفّ الضراعة إلى الحقّ جلّت قدرته ، بأن يجعلنا في خدمة كتابه العزيز ، وأن يبصّرنا من آياته ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وفي ميزان الحسنات يوم العرض عليه . . .

كما لا يفوتني أن أتقدّم بباقة يفوح شذاها وأريجها العطر إلى أخي وشقيقي فضيلة الدكتور كامل محمد يوسف جان ، حفظه الله ووفقه لما يحبه ويرضاه ، لطالما تناقشنا في كثير من قضايا الإعجاز ، ولا أزال أستمع منه إلى كل نافع ومفيد ، فتمثلت فيه قول أبي الطيب في مدح كافور :

أعزّ مكان في الدّنا سرجُ سابحٍ وخيرُ جليس في الزمان كتابُ
وبحرُ أبي المسك الخضمّ الذي له على كلّ بحرٍ زخرة وعُبابُ
وبعد فإن خير ما تقضى به الأوقات ، مدارس كتاب الله عز وجل ، والنظر في إعجازه وكم تتاب المرء من سعادة غامرة وهو يصول ويجول في ميدان العلم الرحيب . وكما قال أحد الفضلاء :
« متعتي في حجة تتبختر اتضاحاً ، وشبهة تتضاءل افتضاحاً » .

نفعنا الله بهدي كتابه ، وجعلنا من ممن يستمع القول فيتبع أحسنه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف الدكتور عمر بن محمد باحاذق

المدينة المنورة ١٠/٣/١٤١٦ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

[قال أبو سليمان : قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً ، وذهبوا فيه كل مذهب من القول ، وما وجدناهم بعدُ صدروا عن ربي ، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن ، ومعرفة الأمر في الوقوف على كفيته ، فأما أن يكون قد نقتب في النفوس نقبة بكونه معجزاً للخلق ممتنعاً عليهم الإتيان بمثله على حال ، فلا موضع لها] .

يريد أن يقول الخطابي : إن الحديث عن كون القرآن معجزاً ، هذه قضية قد استقرت في الأذهان فلا مجال للخوض فيها ، دل عليها شاهد الحال والمقال ، هي من المسلّمات التي استقرت وثبتت في الأذهان ، وهذا معنى قوله : فأما أن يكون قد نقتب في النفوس نقبة بكونه معجزاً للخلق ممتنعاً عليهم الإتيان بمثله فلا موضع لها . أي : لم يساور الشك أحداً في إعجازه فهو أمر مندفع لم تنقب نقبة شك نفس في إعجازه .

[والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندلّ عليه بأكثر من الوجود القائم والمستمر على وجه الدهر ، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه ، وذلك أن النبي ﷺ قد تحدّى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه . وقد بقي ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة مظهراً لهم النكير ، زارياً على أديانهم ، مسفهاً آراءهم وأحلامهم ، حتى نابذوه وناصره الحرب ،

فهلكت النفوس فيه ، وأريققت المهج وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال] .

قلت : وهذا دليل حال ، فقد استنتج واستشهد الإمام الخطابي على عجزهم ، وانقطاعهم مع عدم القدرة على معارضته من لدن عصر نزوله إلى الزمن الذي عاش فيه الخطابي وإلى قيام الساعة مع التسليم المطلق بإعجازه ، ذلك أن النبي ﷺ قد تحدّى العرب قاطبة وهم أصحاب الفصاحة واللسن أن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا عنه وانقطعوا دونه . . وكأنه يقول : إن القرآن من جنس ما تقولون نزل بلسان عربي مبين ، وأنتم صناعتكم الكلام ، وهو من جنس ما تتكلمون ، وحروفه مما تنطقون ، ومعانيه مما تتفهمون وتتفوهون ، ولكنني أتحدّاكم أن تأتوا ولو بأقصر سورة منه وها هي المعاني بين أيديكم ملقاة على قارعة الطريق فأتوا بمثل سورة منه ، ولتكن مفتراة ما دمتم تزعمون أن القرآن مفترى .

والرسول ﷺ في كل هذا يشنّع على آلهتهم ، وعلى الباطل الذي هم عليه ، مسفهاً لآرائهم وأحلامهم ، وهم مع ذلك لا يحIRON جواباً ، وشهدوا على أنفسهم بالعجز والقصور ، ولو كان باستطاعتهم مجاراته لما نابذوا النبي ﷺ وناصروه العداء ، وأشهروا السيف في وجهه فهلكت الأنفس ، وأريققت المهج ، وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال ، في بدر وأحد وعلى مدى مجاهرة المشركين ومناصبتهم للرسول وللدعوة العداء ، حتى أظهر الله الأمر وأعزّ الدين ، وجمع الكلمة ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

[ولو كان ذلك في وسعهم ، وتحت أقدارهم ، لم يتكلّفوا

هذه الأمور الخطيرة ، ولم يركبوا تلك الفواقر^(١) المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السهلّ الدّمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل ، هذا ما لا يفعله عاقل ، ولا يختاره ذولبٌ] .

ولو كان في وسعهم ويتسع لهم ويقدرّون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لم يكلّفوا أنفسهم هذه الأمور الخطيرة من المجالدة بالسيوف والمقارعة بالرماح ولم يجشموا أنفسهم كل هذه الصعاب حتى حُصدوا يوم بدر وذهب ساداتهم .

لماذا جشموا أنفسهم كلّ هذه المشاق وركبوا كلّ هذه المسالك الوعرة ، وانصرفوا عن هذا الكلام السهل العذب الذي يناسب رقة وعذوبة لأن ذلك ليس في وسعهم ولا يقدرّون على أن يأتوا بمثله . . وهذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذولبٌ .

[وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام ، ووقارة العقول والألباب ، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع^(٢) والشعراء المفلقون . وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدد ، فقال سبحانه : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً بلّ هم قومٌ

(١) الفواقر : الدواهي : الأمور العظام واحدها فاقرة ، كأنها تحطم فقار الظهر كما يقال قاصمة الظهر وفي التنزيل : ﴿ تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ .

المبيرة : المهلكة ، البوار : الهلاك ، وفي التنزيل : ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾ هالكين . (اللسان) .

(٢) المِصْقَعُ : البليغ يتفكّر في مذاهب القول ، وقالوا : خطيب مصقّع . (المعجم الوسيط مادة صقع) .

مفلق : أفلق الشاعر : أتى بما يُعجب في شعره فهو مُفْلِقٌ ، وفي الأمر كان به حاذقاً . (الجزء الأول الطبعة الثانية (٥١٨) مادة : فلق . المعجم الوسيط الجزء الثاني الطبعة الثانية (٧٠١) .

خَصِيمُونَ ﴿ الزخرف (٥٨) ، وقال سبحانه : ﴿ وَتُنذِرَ قَوْمًا لَّدَا ﴾
 مريم (٩٧) .

فكيف كان يجوز - على قول العرب ، ومجرى العادة مع وقوع
 الحاجة ولزوم الضرورة - أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه ، وأن
 يضربوا عنه صفحاً ، ولا يجوزوا الفلج والظفر فيه لولا عدم القدرة
 عليه والعجز المانع منه] .

نعم إن قريشاً والذين وقع عليهم التحدي يتصفون برجاحة
 العقول والأحلام ، وهم أهل الفصاحة والبيان ، فيهم الخطباء
 المصارع ، والشعراء المفلقون . وهم قوم أهل جدل ومماحكة
 وملاحاة ، وهم قوم لُدُّ شديدو الخصومة ، فكان حرياً بهم والأمر
 كذلك أن يهتبلوا الفرصة ، ويحاولوا معارضة القرآن ، لا سيما وأنهم
 لا تنقصهم الآلة ، فهم أهل الفصاحة ، والقرآن من جنس كلامهم ،
 والتحدي قائم عليهم ، فكيف يسوغ مثل هذا الإعراض ، والحاجة
 تدعو والضرورة تستوجب ولسان الحال ومجرى العادة التي عرفوا بها
 وهي الجدل والخصومة والضرورة والحاجة قائمة ، إذ لا يزال
 التحدي قائماً ، كلّ هذا والقوم لا يحركون ساكناً ولا ينبثون بنت
 شفة ، وهذا دليل على عجزهم وقصورهم ، فهم لم يضربوا عن
 القرآن صفحاً ، ولم يسوغوا لأنفسهم عدم الظفر به ، لولا عدم
 القدرة عليه .

الكلام بين أيديهم والقرآن يقرعهم والتحدي يلاحقهم وهذا
 لسانهم ومن جنس كلامهم . . والقوم عاجزون لا يحيرون . . فثبت
 بذلك عجزهم وانقطاعهم .

[ومعلوم أن رجلاً عاقلاً لو عطش عطشاً شديداً خاف منه

الهلاك على نفسه وبحضرته ماء معروض للشرب فلم يشربه ، حتى هلك عطشاً [لحكمننا] أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه ، وهذا بيّن واضح لا يُشكل على عاقل] .

وهذا مثال ساقه الخطابي للدلالة على العجز : إنسان في غاية العطش الذي أشرف منه على الهلاك ، ثم لا يشرب من هذا الماء العذب الزلال الذي فيه حياته حتى يهلك ؟ هذا دليل واضح على عجزه وعدم قدرته عليه .

والقرآن من جنس ما برع فيه العرب لسانهم ولغتهم ، والقرآن يتحداهم وهم لا يبدون حراكاً ، دليل واضح على عجزهم وقصورهم عن مجاراته .

[قلت : وهذا - من وجوه ما قيل فيه - أبينها دلالة وأيسرها مؤونة . وهو مقنع لمن لم تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه ...] .

القول بالصرفة :

[وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه « الصرفة » أي : صرف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدوراً عليها ، غير معجوز عنها ، إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات] .

النظام والصرفة :

من أبرز القائلين بالصرفة في القرن الثاني الهجري علمان من أشهر علماء المعتزلة هما : أبو إسحاق إبراهيم النظام وهو رأس من رؤوس المعتزلة وقد بالغ بالقول بالإعجاز بالصرفة حتى عرف به .

ذكر الفخر الرازي أن النظام قال : « إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المنزلة ، لبيان الأحكام من الحلال والحرام ، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلَبَ علومهم به » .

هذا وللنظام رأي آخر في الإعجاز ، فهو يقول بالإعجاز بالمعنيّات ، وأن القرآن الكريم إنما أعجز العرب لما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية والآتية . .

لقد تأثر النظام بالثنوية الذين كان يجلس إليهم كما تأثر بالفلاسفة ، ولقد وجد من ينافح عنه ، يقول أبو الحسين الخياط عن عقيدة النظام : « إن إبراهيم وأشباهه قد ذبوا عن الدين ، وأحاطوا التوحيد ، وردوا على الملحدين ، في الوقت الذي شغل فيه أهل الدنيا بجمع حطامها ، والعكوف على لذاتها ، ويردف الخياط : وهذه هي سبيل أهل الخوف من الله والمعرفة به والله تعالى شاكر لهم » .

وبجانب هذه الإشادة فإن هناك من يقول بزندقته ، يقول عنه ابن حجر : « ما في القدرية أجمع منه لأنواع الكفر ، ومع زيغته وضلاله كان أفسق خلق الله وهو داء قديم » .

الجاحظ والصرفة :

والعلم الثاني هو الجاحظ ، فقد كان الجاحظ معتزلياً من أئمة البيان وهو تلميذ النظام وهو متأثر بأستاذه في القول بالصرفة .

ويسوق الجاحظ رأيه في الإعجاز في ثنايا كتبه الحيوان والبيان والتبيين ، فقد تكلم في تفسير قوله تعالى : ﴿ وتفقّد الطيرَ فقال :

مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبتّه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسُلطان مبین ﴿ النمل (٢٠ - ٢١) .

ثم أورد اعتراضاً خلاصته : أن الله تعالى أعطى سليمان عليه السلام ملكاً عظيماً فملكه الباري عز وجل على الإنس والجن والوحش والطيور وسخر له الريح ، فكيف لا يعرف ملكة سبأ مع قرب دارها .

ثم يقول الجاحظ : لله تدبير تعجز عن فهمه العقول ، وفي هذا إشارة إلى الصرفة وهو تصريح أكثر من كونه تلميحاً .

ثم يقول : كان يعقوب عليه السلام أنه أهل زمانه ، وكان يوسف عليه السلام وزير ملك مصر ، وكان من الشهرة بمكان عظيم ثم لم يعرف أحدهما مكان الآخر .

ويختم الجاحظ حديثه هذا بقوله : « ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب ، وصرف نفوسهم المعارضة للقرآن بعد أن تحدّاهم الرسول ﷺ بنظمه ، ولذلك لم تجد أحداً طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلّفه ولكثر فيه القيل والقال . فقد رأيت أصحاب مسيلمة وأصحاب بني النواحة إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذي يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقاربه ، فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له .. » .

تفنيد قول الجاحظ :

أقول : والذي أورده الجاحظ على الصرفة لا يستقيم ، وما ساقه على أن سليمان أوتي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، ومع ذلك لم يعرف ملكة سبأ مع قرب دارها . فسليمان عليه السلام لن

يخرج عن إطار بشريته ، وقد أعطاه الله سبحانه ملكاً لكنه لم يطلعه على الغيب .

وأما بالنسبة ليعقوب عليه السلام ويوسف ، فإن يعقوب لم يغيب عن باله قط أن يوسف على قيد الحياة ، ولطالما حدثته نفسه بأن يوسف سيعود يوماً ما . . ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ﴾ . ويوسف يعلم أن أباه لا يزال حياً ، ويعلم أنه في أرض فلسطين ، ولا أدل على ذلك من أنه عرف إخوته وهم له منكرون ، وبعد أن كشف لهم حقيقة قال لهم : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً واتتوني بأهلكم أجمعين ﴾ .

وبهذا يتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن يوسف عليه السلام لم يكن ليجهل مكان أبيه يعقوب ، ولا يعقوب بالذي يشك في سلامة يوسف ، وإنما هي الحكمة الإلهية التي اقتضت أن يعمل يوسف عليه السلام شتى الوسائل والأسباب ، ليتمكن من إحضار أخيه بنيامين ثم معاتبة إخوته بأسلوب رقيق ، ثم في الربط بين هذا الصنيع من إخوته بالرؤيا المنامية التي رآها في بداية السورة ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ ربط بين تلك الرؤيا وبين سجود أبيه وإخوته حينما دخلوا عليه وخرّوا له سجداً . ﴿ قال يا أبت هذا تأويل رؤيائي من قبل قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي ، إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ يوسف (١٠٠) .

صفوة القول : إنَّ الصرفة رأي ضحل لا يستقيم ، وهو النتيجة

المتوقعة لأهل الكلام الذين يلوكون ألسنتهم بالباطل ، ثم إن الناس من حيث معارضة القرآن لا يخلو حالهم من القدرة على المعارضة أو عدم القدرة ، فإن كانوا قادرين والله صرفهم كما يقول دعاة الصرفة ، فإن الصرف عن المعتاد كإحداث غير المعتاد ، فهذا من أبلغ الخوارق ، وإن كانوا عاجزين أصلاً فقد ثبت أنه خارق للعادة . .

والعرب لم يصرفوا عن القرآن بل جأهروا بقدرتهم على الإتيان بمثله ، فقالوا كما روى القرآن عنهم : ﴿ لو شئنا لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطيرُ الأولين ﴾ .

فالعرب لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه ، فلم يجدوا أنفسهم عاجزين عما كانوا عليه قادرين .

أيضاً فقد جرت محاولات للمعارضة من بعض الأعداء ، لكنهم لم يزيدوا على أن جاؤوا بكلام يكشف عن سخفهم وعجزهم ، كما حصل من مسيلمة الكذاب الذي جاء بكلام فضح به نفسه .

إن رغبة أعداء الإسلام في معارضة القرآن شديدة ، ولكنهم يحسّون العجز ولو كانوا قادرين لما سكتوا .

وهذا من أعظم الأدلة على أن القول بالصرفة انعكاس لروح العجز والتقاعس عن البحث في هذا البحر العميق .

وصدق الله العظيم القائل : ﴿ قُلْ لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً ﴾ .

[فقالوا : ولو كان الله عزّ وجل بعث نبياً في زمان النبوات ، وجعل معجزته في تحريك يده أو مدّ رجله في وقت قعوده بين ظهراي قوم ، ثم قيل له : ما آيتك ؟ فقال : آيتي أن أخرج يدي أو

أمدّ رجلي ، ولا يمكن أحد منكم أن يفعل مثل فعلي ، والقوم أصحاب الأبدان ، لا آفة بشيء من جوارحهم ، فحرك يده أو مدّ رجله ، فراموا أن يفعلوا مثل فعله ، فلم يقدرُوا عليه ، كان ذلك آية دالة على صدقه ، وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ، ولا إلى فخامة منظره ، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارجاً عن مجاري العادات ناقضاً لها ، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها [.

هنا يسوق الإمام الخطابي مثلاً استشهد به أهل الصرفة على ما يقولون من أن نبياً لو قال: معجزتي في تحريك يدي أو رجلي ، ولا ترومونه وأنتم أصحاب الأبدان ولا بأس بكم ، وكنتم تفعلونه قبل أن أتاكم بمعجزتي ، ثم تخاذلتم عنه فلم تستطيعوه ، كان هذا دليلاً على صدق دعوى النبي ، وكان هذا شاهداً حسيّاً على أن الصرفة عن القيام بتحريك اليد والرجل حاصلة ، وهي معجزة لأنه أمر خارق للعادة ، فالقوم كانوا يحركون أيديهم وأرجلهم ، ثم إذا بهم عاجزون عن القيام بذلك .

وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ولا إلى فخامة منظره ، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارجاً عن مجاري العادات ، ناقضاً لها ، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها ، يعلق الشيخ على هذا بأنه كلام جميل ووجه قريب على أن المعروف بأن المعجزة وهي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي كانت من جنس ما برع فيه القوم ، فلم يكن المولى عز وجل يبعث نبياً إلا ويأتي بمعجزته من جنس ما برز فيه قومه ، فمعجزة موسى في العصا لأن قومه كانوا يجيدون السحر ، ومعجزة

عيسى في إبراء الأكمه والأبرص ، لأن قومه يجيدون صناعة الطب ، ومعجزة سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ في القرآن لأن قريشاً والعرب كانت تجيد صناعة الكلام وهم أهل الفصاحة واللسن والبيان ، فهذا وجه قريب للذي ساقه دعاة الصرفة ، لكن لم يكن المولى ليتحدى قوماً في شيء لا يتقنونه وليس في قدرتهم حتى تقوم الحجة عليهم ويثبت الدليل ، فإذا ما عجزوا عنه وهو بضاعتهم ، فمعنى ذلك أنه معجز وهذا في حد ذاته اعتراف بصدق دعوى من جاء به . .

[وهذا أيضاً وجه قريب إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتُوا بمثل هذا القرآن لا يأتونَ بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً ﴾ الإسراء (١٧) . فأشار في ذلك إلى أمرٍ طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأهب والاحتشاد ، والمعنى في الصرفة التي وضعوها لا يلائم هذه الصفة ، فدل على أن المراد غيرها ، والله أعلم] .

دلالة الآية تشهد بخلافه ، لأن النبي ﷺ تحدى العرب بما يتقنون وهو الفصاحة والبيان ، فهو يقول لهم : القرآن من جنس كلامكم ، وحروفه هي الحروف التي تنطقون بها ، وأنتم لا تستطيعونه لأنه معجزة .

فالنبي ﷺ لم يقل لقريش : سوف أعرض عليكم القرآن ، وأنا أتحداكم أن تأتوا بمثله ، لأنكم مسلوبوا الإرادة ، وسوف يصرفكم الله عنه ، النبي ﷺ لم يقل هذا وواقع الحال وشاهده يخالف ذلك ، لأن القوم أهل فصاحة قبل نزول القرآن ، ولم يتغير حال هذه الفصاحة بعد نزوله ، بل زادت بلاغتهم وفصاحتهم بعد نزول القرآن

وأحسوا بما يدين جديدة للقول أخذوا يرتادونها .

ثم القرآن الكريم يقول في هذا السياق متحدّياً مخاطباً لهم : لو اجتمعتم وما لديكم من آلة وفصاحة ، وحشدتم أتباعكم ، وكل من يشايحكم ، بل ولا يكفي هذا ، لو استعنتم أيضاً بالجن وتأهبتهم جميعاً على أن تأتوا بمثل هذا القرآن لن تأتوا بمثله مع وجود الآلة وهي الفصاحة ، والسلاح وهو البيان ، والتأهب والاستعداد ، والتكلف والاحتشاد إنساً وجنّاً؟! لماذا؟ لأنه معجزة من عند الله تشهد بنبوته ﷺ ، فالمسألة ليس مسألة صرفة بقدر ما هي معجزة من عند المولى عز وجل ، تثبت نبوة محمد ﷺ وتظلّ شاهداً على الزمان على صدق ما جاء به سيد الأولين والآخرين ﷺ ، والمولى سبحانه وتعالى لا يبعث نبياً إلا من جنس ما برع فيه قومه ليثبت لهم أن الأمر في مقدورهم وهو من جنس ما يتقنون ، ولكن كونه معجزة وخارق للعادة وشاهد على صدق من جاء به فإنكم لا تستطيعونه ولا تقدرّون على الإتيان بمثله .

موسى عليه السلام برع قومه في السحر فكانت معجزته العصا تلقف ما يأفكون . ﴿ فألقي السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ .

عيسى عليه السلام برع قومه في الطب . فكانت معجزته في إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص .

سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ برع قومه في الفصاحة والبيان ، فكانت معجزته القرآن الكريم جاء بأفصح أسلوب بلسان عربيّ مبين ، فعجز القوم عن مجاراته لأنه تنزيل من حكيم حميد ، ولأنه قبل هذا وذاك معجزة ، فكيف يتأتى لهم مجاراته وهو معجزة

لو قدروا على مجاراته لانتفى الإعجاز ، على أن ذلك لا يمنع أن تكون الأدوات بأيديهم ، وقد كان ، لكنهم وقفوا مبهورين لأن الأمر أكبر ، ولأن المعارضة غير ممكنة ، ولأن الموضوع أشمل ، فالتحدّي قائم ، والآلة وهي الفصاحة موجودة ، والبيان متحصل ، والضرورة ملحّة وهي وجود التحدي ، والحاجة تستدعي فالنبي يسفه أحلامهم ويزري بمعتقداتهم ، ويكفر ما هم فيه من عبادة الأصنام ، ومجرى العادة يستلزم الردّ لأنهم قوم ذوو فصاحة ولد ، والاحتشاد موجود ، فالقوم ليسوا عزلاً من السلاح بل هو بأيديهم ، ولا تزال فصاحتهم كما هي ، وهم يسرفون في غيهم ويقولون : ﴿ لو شئنا لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ كل ذلك يدفع القول بالصرفة . . وكما يقول الإمام الخطابي : والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدلّ على أن المراد غيرها ، وتبين بطلانها والله أعلم .

يقول الأستاذ الرافعي عن الصرفة : « وهو عندنا رأي لو قال به صبية المكاتب وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه ، وكان ذلك مذهباً من تخاليطهم في بعض ما يحاولونه إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليؤهموا أنهم قد عرفوا »^(١) .

فالتحدي وقع في شيء واضح وملموس سبيله الاجتماع والاحتشاد ، وأخذ الأهبة والاستعداد ، وليس الأمر اعتباطاً ، أو بطريق فيه إبهام وتضليل ، وإنما هو في غاية الظهور ، تحدّ ومطالبة

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعي - الناشر دار الكتاب العربي - بيروت (١٤٥) .

بالاجتماع ، ومحاولة واضحة وصريحة للإتيان بمثل القرآن ، ولكن . . ﴿ فُبِهتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ .

[وزعمت طائفة أن إعجازه ، إنما هو فيما تضمنه من الأخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان ، نحو قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ * غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بضع سنين والله الأمرُ من قَبْلُ ومن بَعْدُ ﴾ سورة الروم (١ - ٣) . وكقوله سبحانه : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ سورة الفتح (١٦) ونحوهما من الأخبار التي صدقت أقوالها مواقع أكوانها ، قلت : ولا يُشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن ، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها ، فقال : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ من غير تعيين ، فدلّ على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه] .

وزعمت طائفة أن إعجازه فيما تضمنه من الأخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان ، فالإمام الخطابي لا يرى في الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان وجهاً للإعجاز ، كما أخبر المولى في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ * غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ .

نزلت هذه الآية حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وأقاصي بلاد الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم

لأنهم أصحاب أوثان « مجوس » ، وكان المسلمون يحبّون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب « نصارى » . وكانت نصره الروم على الفرس يوم وقعة بدر ، فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به ، وأنزل الله تعالى : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد ﴾ والمخلفون : هم الذين تخلّفوا عن غزوة الحديبية ﴿ استدعون إلى قوم أولي بأس شديد ﴾ اختلف فيهم على أقوال ، ومنها أنهم فارس ، أو أهل الأوثان ، أو هم الترك ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ لكم النصره عليهم أو يسلمون ، فأنتم الغالبون^(١) .

ومن قال بأنهم الترك استدللّ بالحديث : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغاراً الأعين ، ذُلف الأنوف ، كأنّ وجوههم المجان المطرقة »^(٢) .

وقد كان قتالهم وانتصار المسلمين عليهم وفتح بلادهم بعد ذلك ونحوها ، من الأخبار التي صدقت مواقع أكوانها ، وهي كثيرة متكاثرة ..

قلت : ولا يُشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس بالأمر العامّ الموجود في كل سورة من سور القرآن .

أي : أن الإخبار بالمغيبات في القرآن يمكن أن يكون من أنواع

(١) ابن كثير - ج ٣ - ط ١٣٨٨ هـ - دار المعرفة - بيروت .

(٢) أخرجه الخمسة . والدّلف في الأنف : استواء في طرفه ، وليس بالغلظ الكبير . (انظر جامع الأصول ١٠ / ٣٧٥ - ٣٧٧) .

إعجازه ، ولكنه ليس بالقاعدة المطّردة ، لأن إعجاز القرآن متحصّل وارد في كل سورة من سوره ، والإخبار بالمغيبات ، مقصور على بعض سورة القرآن دون بعض ، فامتنع أن تكون هذه قاعدة مطّردة في إعجازه ، وهذا معنى قوله : « ولكنّه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن » وقد جعل سبحانه في صفة كلّ سورة أن تكون معجزة بنفسها ، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها ، فما دام الأمر كذلك انتفى أن يكون الإعجاز بالمغيبات من وجوه الإعجاز التي تأخذ صفة الشمول ، وتكون قاعدة ثابتة أو مطّردة ، وإنما هو وجه يستأنس به في إعجاز القرآن ، ذلك أن الإعجاز في القرآن حاصل في كل سورة من سوره ، والإخبار بالمغيبات يوجد في بعض سور القرآن دون أخرى ، والتحدّي بالأعجاز وقع بالقرآن في جملة ، كما قال تعالى ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . من غير تعيين لسور دون أخرى ، أو من غير تحديد للسور التي ورد فيها ذكر الأمور المغيبة عن غيرها ، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه ، وإنما هو وجه يستأنس به في مثل هذا الباب .

[وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة ، وهم الأكثرون من علماء النظر ، وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال ، ويصعب عليهم منه الانفصال ، ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد ، وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له ، وإحاطة العلم به ، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن ، الفائقة في وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام

الموصوف بالبلاغة ، قالوا : إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر ، نعلم مباينة القرآن غيره من الكلام ، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده ، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذي يقع منه التفاضل ، فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ، ويتميز في أفهامهم قبيل الفاضل من المفضل منه] .

أيضاً من المزاعم التي قيلت في وجه إعجازه : « البلاغة » وهو تعريف عائم ، فقالوا : إن فصاحة الكلمة في حدّ ذاتها دليل على إعجازه ، ذهب إلى هذا عبد الجبار الإسترابادي من المعتزلة ، وقد ألف كتابه « المغني في العدل والتوحيد » وخصص الجزء السادس عشر لإعجاز القرآن الكريم ، وكان يرى أن القرآن معجز ببلاغته وفصاحته ، وقد ردّ عليه الإمام عبد القاهر الجرجاني عند شرحه لقضية النظم في كتابه دلائل الإعجاز . .

وكما نلاحظ من كلام الإمام الخطابي فإن القائلين بهذا الكلام يخطون خبط عشواء ، ويسيرون وفق غلبة الظن دون التحقيق والإحاطة ، ولذلك إذا سئلوا عن هذه البلاغة التي اختص بها القرآن وأصبحت تميزه عن غيره ، تلجلجوا في الإجابة ، وقالوا : إنه أمر لا يمكننا تصويره أو تحديده ؛ وإنما يعرفه العالمون عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده ، فهو شيء غير محسوس ، وإنما يستشعره العالمون به المتمرسون المتذوقون لبيان القرآن وبلاغته .

وهكذا لا تجد تفسيراً للبلاغة التي زعموها ، وإنما هو كلام عائم يجعجعون به ، وأن معرفة هذه البلاغة للخاصة من العلماء ، وهم الذين يمكن أن يفضلوا قولاً على آخر من غير تعليل ، وإنما هذا

شي خاص بهم لا يدركه إلا هم ومن على شاكلتهم ، فليس له ميزان محدد ولا فهم يستسقى على حدّ قول بعضهم : « من الكلام ما يسحرك ، ولكنك تعجز عن التعبير عنه » .

وهذا معنى قوله : « وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذي يقع منه التفاضل ، فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ، ويتميّز في أفهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه » .

[قالوا : وقد يخفى سببه عند البحث ، ويظهر أثره في النفس ، حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به .

قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع وهشاشة في النفس ، لا توجد مثلها لغيره ، والكلامان معاً فصيحان ، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة .

قلت : وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم ، ولا يشفي من داء الجهل به ، وإنما هو إشكال أحيل به على إبهام] .

يعني أن مثل هذا التعليل ضرب من الإيهام ، ويوقع في التخبط واللبس ، لأنه لا يستند إلى قاعدة ، وإنما هو مجرد توهمات النفس ، وما تضطرب به ، وهذا لا يستقيم كدليل .

[وقد تمثل بعضهم بأبيات جرير التي نحلها ذا الرّومة : ذكرت

الرواة أن جريراً مرّ بذي الرّومة وقد عمل قصيدته التي مطلعها :

نَبَتْ عَيْنَاكَ عَنْ طَلَلٍ بِحُزْوَى عَفْتُهُ الرِّيحُ وَامْتَنَحَ القِطَارَا

فقال : جرير ألا أنجذك بأبيات تزيد فيها ؟ فقال : نعم ، فقال :

يَعْدُو النَّاسِبُونَ بني تميم بيوتَ المجدِ أربعةً كبارا

يَعْدُونَ الرِّبَابَ وَآلَ تَيْمٍ وَسَعْدًا ثم حنظلة الخيارا

ويذهبُ بينها المرئيُّ لغواً كما ألغيتَ في الدّية الحوارا

فوضعها ذو الرّمة في قصيدته ، ثم مرّ به الفرزدق ، فسأله عما أحدث ، فأنشدته القصيدة ، فلما بلغ هذه الأبيات ، قال : ليس هذا من بحرك ، مُضِيْفُهَا أَشَدُّ لَحِيْنٍ مِنْكَ ! قال : فاستدرکها بطبعه ، وطفن لها بلطف ذهنه [.

القصة وردت في « الأغاني » على النحو التالي : مرّ ذو الرّمة بمنزل لامرئ القيس بن زيد مناة يقال له : مرّأة^(١) ، به نخلٌ ، فلم ينزلوه ولم يقرّوه فهجاهم ، ولج الهجاء بين ذي الرّمة وبين هشام المرثي واحتدم ، فمرّ الفرزدق بذي الرمة وهو ينشد :

وقفتُ على ربّعٍ لَمِيّةٍ ناقتي فما زلتُ أبكي عنده وأخاطبُهُ
وأُسقيهِ حتى كادَ ممّا أبْتُهُ تكلمني أحجارُهُ وملاعِبُهُ

فقال له الفرزدق : ألهاك البكاء على الدّيار ، والعبد يرتجز بك في المنابر ، يعني هشاماً . وكان ذو الرمة مستعلياً هشاماً حتى لقي جريراً هشاماً ، فقال عليك العبد - يعني ذا الرمة - قال : فما أصنع يا أبا حذرة ، وأنا راجز وهو يقصد ، والرجز لا يقوم لقصيد في الهجاء ، فلو رددتني ، فقال جرير لاتهامه ذا الرمة بالميل إلى الفرزدق : قل له :

غَضِبْتَ لِرَحْلِ مَنْ عِدِي تَشَمَّسُوا وفي أيّ يوم لم تَشَمَّسْ رِحَالُهَا
ينعى على رهط ذي الرمة غضبهم ، لأن أهل امرأة لم يقروهم وتركوهم في العراء ، ويعجب لهذا منهم والعراء مألفهم وهجيرهم . .
في أبيات ، فلما بلغت الأبيات ذا الرّمة قال : والله ما هذا بكلام

(١) ومراة : قرية بني امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم باليمامة سميت بشرط امرئ القيس .

الاتان : أنثى الحمار ، أي : الحمارة .

هشام ، ولكنه كلام ابن الأثان - يعني جريراً - والأثان أنثى الحمار وكان الفرزدق نبذه به ، وغلب هشام على ذي الرُّمة فلما كان بعد ذلك لقي ذي الرُّمة جريراً ، فقال له : تعصبت على خالك للمرئي : فقال جرير : حيث فعلت ماذا ؟ قال : حين تقول للمرئي كذا وكذا ، فقال جرير : لا بل ألهاك البكاء في دار مئة حتى أبيضت محارمك .

قال : وقول ذي الرُّمة : تعصبت على خالك : أن النوار بنت جلّ أم حنظلة بن مالك ، وهي من رهط ذي الرُّمة ، وجرير من بني يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، وأم حنظلة بن مالك جده الأعلى النوار بنت جلّ بن عدي بن عبد مناة بن أدّ .

نعود إلى قول جرير : ألهاك البكاء في دار مئة حتى أبيضت محارمك . فقال ذو الرُّمة : ولكن اتهمتنني بالميل مع الفرزدق عليك ، قال : كذلك هو . قال : فوالله ما فعلت ، وحلف له بما يرضيه ، قال جرير : فأنشدني ما هجوت به المرئي ، فأنشده قوله :
نَبَتْ عَيْنَاكَ عَنْ طَلَلٍ بِحُزْوَى عَفْتَهُ الرِّيحُ وَامْتَنَحَ القَطَارَا^(١)
وأطال جداً فقال جرير : ما صنعت شيئاً ! أفأرفدك قال :
نعم . قال : قل :

يَعْدُ النَّاسِبُونَ بني تميمِ بيوتَ المجدِ أربعةَ كَبَارَا
يَعْدُونَ الرِّبَابَ وَآلَ تَيْمِ وَسَعْدًا ثم حنظلة الخيارا
ويذهبُ بينها المرئي لغواً كما ألغيت في الدية الحوارا^(٢)

(١) نبت بمعنى أنكرت ، حزوى موضع بنجد في ديار بني تميم ، عفته : درسته وممته ، امتنح : طلب المنحة ، أي : العطية ، القطارا : المطر .

(٢) المرئي : نسبة إلى امرئ القيس بن زيد مناة من بني تميم ، ألغيت : أبطلت ، الحوار : ولد الناقة ساعة تضعه وهو يلحق بأمه في الدية ، يريد =

فغلبه ذو الرُّمة بها .

ثم إن ذا الرُّمة مرَّ بالفرزدق ، فقال له : أنشدني أحدث ما قلت في المرثي ، فأنشده هذه الأبيات ، فأطرق الفرزدق ساعة ثم قال : أعد ، فأعاد ؛ فقال : كذبت وايم الله ! ما هذا لك ، ولقد قاله أشدُّ لحين منك ، وما هذا إلا شعر ابن الأتان . فلما سمعها المرثي جعل يلطم رأسه ويصرخ ويدعو بويله ويقول : قتلني جرير ! قتله الله ! هذا والله شعره الذي لو نقطت منه نقطة في البحر لكدرته ، قتلني وفضحني ^(١) !

شاهد الحال في القصة أن الفرزدق فطن إلى أن الأبيات التي انتحلها ذو الرُّمة ونسبها إلى نفسه ليست من بحره . . لماذا ؟ لأن نفس ذي الرُّمة لا يتسع لمثل هذه المعاني وتلك الأغوار السحيقة ، لأنه سطحي المعاني ، ضعيف النفس ، لذلك قال له الفرزدق : مضيئها أشدُّ لحين منك ؟! واللحي بالفتح : منبت شعر الخدين وهما لحيان . ويكنى بشدتهما عن قوة اللسن والمنطق والفصاحة .

= أن يقول : إن المرثي بين قبائل تميم لا يؤبه له لأنه ساقط لا يحفل به ، كما لا يؤبه للحوار ولد الناقة ساعة تضعه ، فيلحق بأمه في الدية ولا يعتد به كعنصر في الدية . .

وذو الرُّمة هو غيلان بن عقبة العدوي .

يقول أبو عمرو بن العلاء في شعره : « إنما شعره نَقَطَ عُرُوسَ تَضْمَحَلِّ عَمَّا قَلِيل ، وَأَبْعَارَ ظِبَاءٍ لَهَا شَمٌّ فِي أَوَّلِ شَمِّهَا ثُمَّ تَعُودُ إِلَى أَرْوَاحِ الْأَبْعَارِ » .

نقد وأي نقد . . .

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني - الجزء التاسع عشر - طبعة دار الشعلة ١٣٨٩ هـ (صفحة ٦٧٥٦) .

كيف أدرك الفرزدق هذا وهو لم يحضر الواقعة ، ولم يشهد عملية الانتحال هذه إنما استدركها بطبعه ، وفطن لها بلطف ذهنه . .

قلت : وهذا ومثله لا يستقيم في هذا البحر العميق ، فالإعجاز في القرآن واضح وبارز في جلاله في إشراقته في مائه في رواه في مختلف وجوه الإعجاز التي أدركها العلماء ودلّلوا لها ، ولا حاجة إلى الإحالة والإبهام .

ولا يشكُّ منصف ذو حجي في أن القرآن الكريم معجز وأن إعجازه ظاهر ، وأنه يرقى عن كلام المخلوقين ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه .

وإن المسألة لا تحتاج إلى مثل هذا التمويه والتهويم الذي لا يمكن تحديده والوقوف عليه ، وإنما يستشعره العالمون .

فنقول : بأن إعجاز القرآن الكريم ظاهر يستشعره العالمون وغيرهم ، تدركه وتحسّ به في كل سورة من سوره ، وفي كل آية من آياته وصدق القائل : ﴿ كتابٌ أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ .

[فلم نجد شيئاً منها يثبت على النظر ، أو يستقيم في القياس ، أو يطرد على المعايير] .

يريد أن يقول : كل ما استقرته من وجوه الإعجاز التي ذكرنا من المغيبات والمعنى الكثير في اللفظ القليل ، وسواه ، لم تثبت على النظر عند التدقيق والنقد والتحكيك ، ولم تستقم على القياس عند التحري ، ولم تطرد على المعايير والقواعد المطردة .

لم يستطع الخطابي أن يتلمس قاعدة مطردة في وجه الإعجاز مما ذكره السابقون فيه ولم يجد شيئاً يثبت على النظر ، القاعدة

تتخلف في كل منها ، فالإعجاز بالغيبيات يتخلف في بعض سور القرآن ، والقرآن كله معجز وقع به التحدي .

والإعجاز بالمعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة لا يسري في كل سورة ، والإعجاز بالعلوم والإخبار عن أحوال الأمم السابقة والأنبياء ومعجزاتهم لم يشمل كل القرآن ، وحتى الفنون البلاغية كالاستعارة والكناية والجناس لم ترد في كل سور القرآن ، فانخرمت القاعدة في كل ذلك ، وتخلف القانون فيما ذكرناه ، فوجب أن يكون إعجازه بشيء آخر مطلوب من ذاته ، ومستقصى من جهة نفسه ، وهو منه وفيه . . فدل النظر وشاهد العبر على أن السبب له والعلة فيه . . من هنا يلجأ الإمام الخطابي إلى أجناس الكلام ، فحيث لم يثبت عنده بالنظر أي علة من العلل كان لا بد أن يأتي بأجناس الكلام ليصل من ورائها إلى العلة والسبب الذي كان من أجله القرآن معجزاً ، وبما أن القرآن كلام ، فإن التمهيد يأتي لإثبات إعجاز القرآن الكريم بتميز كلام الله تعالى عن كلام المخلوقين ، حتى يتبين وجه الإعجاز فيه أجناس الكلام :

[فدلّ النظر وشاهد العبر على أن السبب له ، والعلة فيه أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية فمنها : البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائر الطلق الرسل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود ، دون النوع الهجين المذموم ، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة] .

بعد أن ذكر الشيخ الإمام الخطابي - رحمه الله - أجناس الكلام المحمود ، دون المرذولة ، ونفى شبهة أن يكون في القرآن شيء من

المردول ، بدأ يجانس بين درجاتها ، فالرصين البليغ الجزل ، في أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والفصيح القريب السهل ، أوسطه وأقصده والجائز الطلق الرسل ، أدناه وأقربه ، فحازت بلاغات القرآن الكريم من كل قسم من هذه الأقسام حصّة ، وأخذت من كلّ نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعدوبة .

أي : أن القرآن الكريم أخذ من هذه الدرجات المختلفة لأجناس الكلام من كل طبقة أعلى درجاتها ، فجاء بأفصح الألفاظ ، متضمناً أصحّ المعاني ، في أحسن نظوم التأليف ، وذلك مالم يتيسّر لأي نوع من أنواع الكلام ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة ، وأخذت من كل نوع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعدوبة .

وهما على الانفراد في نعوتهما ، كالمتضادّين لأن صفة الفخامة لا تتناسب مع السهولة والعدوبة ، لأن العدوبة نتاج السهولة ، والجزالة والامتانة والفخامة في الكلام نتاج الوعورة ، وهو ما عرفه بقوله : تعالجان نوعاً من الوعورة ، أي : تمارسان أو تعبّران عن شيء من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ وارتفاع كلّ واحد منهما على الآخر ، فضيلة خصّ بها القرآن يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه ، ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه . .

وهكذا فقد أخذ كتاب الله تعالى من كلّ نوع من أنواع الكلام أعلاه والخطابي لن يرضى ولن يقنع ، حتى يخضع القول في الإعجاز إلى الأدلّة ، ويجري عليه الامتحان ، فإنه يقول : إن الذي يوجد

لهذا الكلام من العذوبة في حسّ السامع ، فهو يتفرق كالماء العذب الزلال تستريح إليه النفس ، وتهش له وتقبل ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، ماء ورونق وبهجة ، يتميز به عن سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب ، والتأثير في النفوس ، وما يملأ القلوب عند سماعه من الهيبة ، وما يلحقها من الخشية ، واستملاء طعم عذوبة ألفاظه ومعانيه وهشاشتها بما يتردد عليها من مبشرات المبهجة ، ومُحذراته المزعجة وآياته المقلقة ، وأخباره المؤنقة ، مع كثرة قرعه للأسماع ، وصدعه بما يخالف الطباع ، ومع ذلك فالقلوب مقبلة على أذكاره ، راغبة في تكراره ، شجية عند سماع زمماره ، يجد ذلك منهم البر والفاجر ، والمؤمن والكافر .

كل هذا يجعل الألسن تصطليح على أنه كلام لا يشبهه كلام ، وتَحَصَّرُ الأقوال عن معارضته ، وتنقطع به الأطماع ، لأنه ليس في مقدورهم ، وهو خارج عن إرادتهم لا يملكوه ولا يستطيعوه .

كل هذا يشعر بأن الأمر له سبب . . . بوجوده يجب له هذا الحكم بالإعجاز وبحصوله يستحق هذا الوصف بأنه معجز .
يقول الإمام الخطابي [وقد استقرينا أوصافه الخارجية عنه ، وأسبابه النابتة منه] .

كأنه يقول : قمت بدراسة لما قيل في وجوه إعجازه من احتوائه على الأمور المغيبة ، أو العلوم التي لم يسبق إليها أحد من البشر قبل نزوله ولا اهتدت إليها فطن العرب ولا غيرهم من الأمم ، أو بما يقع في النفوس منه عند تلاوته من الروعة ، وما يملأ القلوب عند سماعه من الهيبة ، أو من جهة إعجازه واحتواء لفظه القليل على المعاني الكثيرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾

يا أولي الألباب ﴿ ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ﴿ ﴿ ثم يخرج الإمام الخطابي بنتيجة فيقول :

[قلت : فأما من لم يرض من المعرفة بظاهر السمّة ، دون البحث عن باطن العلة ، ولم يقنع في الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان ، فإنه يقول : إن الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حس السامع ، والهشاشة في نفسه ، وما يتحلّى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب ، والتأثير في النفوس ، فتصطلح من أجله الألسن على أنه كلام لا يشبهه كلام ، وتخصّر الأقوال عن معارضته ، وتنقطع به الأطماع عنها ، أمر لا بد له من سبب ، بوجوده يجب له هذا الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف ، وقد استقرينا أوصافه الخارجية عنه ، وأسبابه النابتة منه ، فلم نجد شيئاً منها ، يثبت على النظر ، أو يستقيم في القياس ويترد على المعايير ، فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوباً من ذاته ، ومستعصى من جهة نفسه ، فدلّ النظر ، وشاهد العبر على أن السبب له والعلة فيه ، أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية .

فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرسل وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود ، دون النوع الهجين المذموم ، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة] .

قوله : فأما من لم يرض من المعرفة بظاهر السمّة ، دون البحث عن باطن العلة .

المراد : من لم يكتف بالظاهر والمتواتر من إعجاز القرآن ، وأنه أفحم العرب فما استطاعوه ، وأخرس الألسنة فظلت صامتة ساكته واجمة ، أمام عظمة هذا القول المعجز .

وهذه حجة من لم يكلف نفسه مؤونة البحث للوصول إلى الأسباب والعلل التي من أجلها كان القرآن معجزاً ، من لم يكبد نفسه هذه المشقة ، وركن إلى الدعة ، فإنه يقول : القرآن الكريم معجز وأنا به مؤمن ويكتفي بهذا ، أما الباحث المنقّب الذي لا يرضى بظاهر السمة دون البحث عن بواطن الأمور ، ودون أن يسبر أغوارها ، ولم يقنعه في هذا القول بإعجازه أوائل البرهان ، حتى يستشهد لها دلائل الامتحان ، فإنه لابد أن يبحث عن السبب ، الذي بوجوده يجب له هذا الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف .

فالقرآن الكريم قد أخذ من كل طبقة من أجناس الكلام أعلى طبقة فيه ، وهو كالشمس في ذراها تمتد منافعها للقاصي والداني ، ولاتستطيع أن تصل إليها يد إنسان .

فكون القرآن الكريم حوى هذين الوصفين ، وتمثلت فيه الصورتان الفخامة والعذوبة ، والجزالة والسهولة ، وهو ينساب كالقراق دليل على عظمته ، وشاهد على صحته ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه ، اقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة الواقعة في وصف المؤمنين :

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظُلٍّ مَّمدودٍ * وماءٍ مَّسْكُوبٍ * وفاكهةٍ كثيرةٍ * لا مقطوعةٍ ولا مَمْنوعةٍ * وفُرُشٍ مرفوعةٍ * إنا أنشأنهنَّ إنشاءً * فجعلناهنَّ أبكاراً * عُرْباً أتراباً * لأصحابِ اليمين ثلثةٌ من الأولين

وثلّة من الآخرين * وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في
 سمومٍ وحميمٍ وظلٍّ من يحموم * لا باردٍ ولا كريم * إنهم كانوا قبل
 ذلك مترفين * وكانوا يصرّون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون
 أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون * قل إن
 الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقاتٍ يومٍ معلومٍ ﴿ الواقعة (٢٧) -
 (٥٠) .

وهكذا تلاحظ بأن القرآن الكريم تحدث عن مصير المؤمنين في
 جنات النعيم في أسلوب ينمّث رقة وعذوبة ، فالحديث عن الجنة
 حديث تأنس إليه النفس وتنشرح إليه وتستريح وتستروح له الروح
 والعذوبة نتاج السهولة والرقّة والانسياب . .

فإذا ما تحدث عن الكافرين وما ينتظرهم من عذاب تلهب
 كلماته وتشدد عباراته وتقرع الآذان سياطه ، لأن الحديث يصوّر ذلك
 الجحيم والعقاب الأليم الذي ينتظر أولئك المشؤومين والهلّكي
 البائسين ، فتأتي الفخامة والقوة والجرس الذي يقرع الآذان ، ذلك أنّ
 الفخامة تعبر عن الوعورة والخشونة والمتانة والشدة والجزالة ، فكان
 اجتماع هذين الأمرين في نظم القرآن مع ارتفاع كل واحد على الآخر
 فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطف قدرته من أمره ليكون آية
 بينة لنبيه ، ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه ، وذلك هو
 الإعجاز ذلك هو إعجاز القرآن ، وذلك هو سرّ عظّمته أن يجمع بين
 هذين الوصفين المتنافرين في حدّ ذاتهما ، ثم لا تحس بشيء من
 التنافر ، ولا تحس بفجوة ، أو أن الكلام قد تغير في نبرته ، أو أن
 هناك اختلافاً أو نشازاً أو ثغرةً ، هو ينساب في تصويره وتعبيره ،
 تتلاقى عباراته ، وتنساب كلماته في تساقٍ عجيب لا تحس فيه بنفرة

أو اختلاف ، عبارات أخذ بعضها برقاب بعض ، وهي تتحدث عن مصيرين مختلفين ، مصير المؤمنين والكافرين ، مصير الأبرار والفجار ، مصير الأخيار والأشرار ، مصير إما إلى جنة وإما إلى نار ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعدوثة ، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين ، لأن العدوثة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه ، مع بُبُو كَلِّ واحد منهما على الآخر ، فضيلة خصّ بها القرآن ، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ، ليكون آية بينة لنبية ، ودلالة على صحّة ما دعا إليه من أمر دينه ، وذلك هو إعجاز القرآن . .

[وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمر منها : أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل ، ولا تدرك أفهامهم جميع الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه .

وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وأوصافها [.

يعلل الإمام الخطابي - رحمه الله - سبب تعذره على البشر وعدم قدرتهم على الإتيان بمثله وكأنه يرى رأياً في الإعجاز يقول : « منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها » .

وهذه كبوة من الإمام - رحمه الله - فالمولى عز وجل لم يقل : أنا محيط باللغة العربية وأنتم لا تحيطون بها ، وأنا أتحداكم بذلك ، كما يؤدي مثل هذا الكلام إلى إبطال إعجاز القرآن الكريم دون أن يشعر قائله بذلك .

البارى عز وجل لم يتحدّهم بشيء ليس في مقدورهم ، أو لا تتسع له إرادتهم ، لم يتحدّهم بجميع أسماء اللغة العربية ، أو بجميع ألفاظها التي هي ظروف المعاني وإنما يقول لهم جلّ وعلا : القرآن من جنس كلامكم ، وأنتم أهل الفصاحة واللسن وحروفه من الحروف التي تنطقون بها ، وهي في مقدوركم تسعة وعشرون حرفاً ، وألفاظه تتكون من هذه الحروف ، والمعاني بين أيديكم ملقاة على قارعة الطريق ، فإن كان باستطاعتكم الإتيان بمثله فافعلوا ، بل بأصغر سورة من مثله ، والنظم لا يوجد أحسن تأليفاً ولا أشد تلوّماً وتشاكلاً من هذا السلك الذي يجمع آي القرآن ، فتأتي منه الآية لتضيء ما حولها ، كالدرة في واسطة القلادة ، يزيد به كلام البشر إشراقاً ، ومنطقهم بياناً وأسلوبهم رقة وعدوبة وسلاسة ، كثير الماء عظيم الرواء ، أعلاه مثمر وأسفله مغدق ويعلو ولا يُعلَى عليه .

[وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه ، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً] .

نعم قد توجد هذه الفضائل الثلاثة الألفاظ الفصيحة ، والمعاني الشريفة والنظم الرائع الأخاذ في كلام أحد البشر ، قد ينسج شاعر قصيدة فيجيد فيها ، ولكن أن يستمر كلامه على هذا النحو ، وقصيده على هذا المستوى من الفصاحة والبيان طوال حياته ، فهذا مستحيل بل لا بد أن يعرض له القصور ما بين حين وآخر ، وهذا شاهد وملموس ، فتكون هناك قصيدة أقوى من أخرى ، ويكون هناك بيت في القصيدة متميز « هو بيت القصيد » فإذا التباين موجود ، وقل مثل هذا في جانب النثر . فقد يكتب كاتب مقالاً يجيد فيه ، ولكن أن تستمر كتاباته على مستوى واحد في الإجادة فمُستحيل ، بل يدر الضعف وتتخلف إحدى هذه الزوايا الثلاث في العمل الواحد .

يقول العماد الأصفهاني : « إنني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غُيِّرَ هذا كان أحسن ، ولو زيد كذا كان يُستحسن ، ولو قدم هذا كان أفضل ولو ترك هذا كان أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

ثم يقول الإمام الخطابي رحمه الله : « ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ » الكلام نفسه يتكرر ، إذ أنهم ما داموا لم يحيطوا بجميع ألفاظ اللغة فبالتالي لا بدّ

أنهم لم يفهموا معاني هذه الألفاظ المحمولة ، لأن الكلام يتألف من :

- ١ - لفظ حامل .
- ٢ - ومعنى قائم باللفظ يخدمه اللفظ ويحملة .
- ٣ - ثم رباط لهما ناظم ، وهو السلك والخيط ، الذي ينظم المعنى داخل اللفظ ، وهو التأليف الذي يجمعهما ويضمهما ويربط بينهما .

وفسر الإمام عبد القاهر الجرجاني « النظم » بأنه توخي معاني النحو بين الكلم .

يعني أن ترتيب المعاني في النفس ، ثم النطق بها ألفاظاً على هذه الصورة التي روعي فيها معاني النحو من حيث التقديم والتأخير ، ووضع الفاعل موضعه ، والحال في موضعها بطريقة ارتضاها السابك المؤلف ، ليجعل من كلامه بليغاً يخرج في أحسن وجوه التأليف وفي أحسن نظوم التأليف . هو ذاك المقصود بالنظم .

فأركان الكلام التي يتألف منها هي :

- ١ - لفظ حامل للمعنى قائم به خادم له .
- ٢ - معنى روح للفظ وبه يقوم .
- ٣ - نظم وهو سلك ينظمهما ، أي : اللفظ والمعنى . وخيط يربطهما ويؤلف بينهما ليؤديا المعنى المراد .

فما دام أن الإنسان لم يحط بالألفاظ ، فبالتالي لن يحيط بالمعاني القائمة فيها ، ومن ثمّ لن تكمل له معرفة وجه النظم الذي به يكون اتئلافها وارتباط بعضها ببعض ، وهذا معنى قول الإمام الخطابي رحمه الله : [ومنها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة

العربية (وبألفاظها) التي هي ظروف المعاني والحوامل ، ولا تدرك أفهامهم جميع الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون اتئلافها ، وارتباط بعضها ببعض فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم] .

وقد ذكرت بأن هذا الكلام يوقع في اللبس والشبهة ، ولا أعتقد بأن الإمام الخطابي يقصده ، وإنما قصد خلافه ممّا سيتبين لنا بعد قليل ، يقول :

[وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلوئماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها] .

هذا وجه الصواب ، وهو وجه جميل جداً في الإعجاز ، ويمكن أن يضاف إلى الوجوه المتعددة في هذا الباب .

فالألفاظ في القرآن الكريم في غاية الشرف والفضيلة ، وهي في غاية الفصاحة والبيان ، لا فيها تعاضل ولا حوشية ولا غرابة ولا وحشية ، ولا تنافر ولا استمجاج ، عذبة سهلة جزلة تنمات .

المعاني شريفة في بابها في غاية الرقي والعظمة ، فصلت على ألفاظها أحسن تفصيل ، واتسعت لتعبر عن أمور الدنيا والآخرة ، وهي تقع في مواقعها أحسن ما يكون ، ليست بالفضفاضة ولا الضيقة

الحرجة ، وهي الحقّ كل الحقّ ، والصدق كل الصدق ، فهذه الميزات الثلاث لم توجد مجتمعة إلا في كلام العليّ القدير ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً .

وبهذا نخرج بخلاصة في هذا الرأي الذي ساقه الإمام الخطابي واستدل به شاهداً على عظمة إعجاز القرآن .

وجه الإعجاز عند الإمام الخطابي هو : « مجيئه بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، متضمناً أصحّ المعاني » .

وهذا معنى قوله : [فتفهم الآن ، واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف ، متضمناً أصحّ المعاني من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهي عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها ، واضعاً كلّ شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يُرى في صورة العقل أمرٌ أليق منه ، مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم ، منبئاً عن الكوائن المستقبلية في الأعصار الباقية من الزمان ، جامعاً في ذلك بين الحجّة والمحتج له والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه ^(١) .

يقول الإمام الباقلاني : « فالقرآن في عجيب نظمه ، وبديع

(١) بيان إعجاز القرآن - للخطابي ، رسالة من ضمن ثلاث رسائل للرماني والخطابي والجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي - تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام - دار المعارف بمصر - ص ٢٥ .

تأليفه ، لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها ، من ذكر قصص ومواعظ ، وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير ماثورة ، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها . . فهو على كثرته متناسب في الفصاحة ، وفي أعلى ذرا البلاغة . . .

ونجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور : فمن الشعراء من يجوّد في المدح دون الهجاء ، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح ، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأيين ومنهم من يجود في التأيين دون التقريظ ، ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل ، أو وصف الحرب ، أو وصف الروض ، أو وصف الخمر ، أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ، ويتناوله الكلام ، ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وبزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب ، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام ، ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ ، رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها ، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ، ووقف دونه ، وبان الاختلاف على شعره . . .

وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حدّ واحد ، في حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه من

وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز في جميعها على حدّ واحد لا يختلف»^(١) . وصدق الحق القائل : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ النساء (٨٢) .

يقول الإمام الخطابي رحمه الله : [ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق ، أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قُدْرُهُمْ ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته في شكله] .

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور من مجيء القرآن الكريم ، بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف ، متضمناً أصحّ المعاني . . والجمع بين شتاتها وما تفرق منها في أجناس الكلام ، من البليغ الرصين الجزل إلى الفصيح القريب السهل إلى الجائر الطلق الرّسل ، وهو في كل ذلك يأخذ من كل طبقة أعلاها وأرفعها ، ومن كل بلاغات الكلام شعبة حتى تنتظم وتتسق ، أمر تعجز عنه قوى البشر . . ولا تبلغه قُدْرُهُمْ ، فمهما بلغت فصاحتهم فإن التفاوت في أساليبهم وارد ، والشهادة بعدم اتساق النظم لهم على هذا المستوى حاصل ، سواء في الكلام الواحد ، أو في كلامهم على امتداد حياتهم . .

والقرآن الكريم حكى لنا سير الأقدمين ، وما حل بهم ، وساق لنا أخبارهم ، قال تعالى على لسان المنافقين في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

(١) إعجاز القرآن الكريم - للإمام الباقلاني - تحقيق سيد صقر - الطبعة الثالثة - ص ٣٦ - ٣٧ .

هذه حكاية كفرهم وعنادهم ونفاقهم حكاها القرآن الكريم عنهم ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ قصروا كفرهم وحالهم على هذه الصفة : « الاستهزاء » وليس معنى ذلك أنه ليس لهم أوصاف أخرى ، ولكنهم أرادوا أن يثبتوا لأشياعهم أنهم ساخرون دائماً من المؤمنين يستهزئون بهم ويهزؤون في كل حال . . عبر القرآن عن حالهم هذه فقال على لسانهم : ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ بالقصر بإنما الذي يفيد التخصيص ، وهو من باب قصر الموصوف على الصفة « أي : نحن مستهزئون لا غير » على سبيل المبالغة ليس لنا صفة إلا الاستهزاء ، فرد عليهم المولى أبلغ ردّ فقال عز من قائل : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ فعبر بالجملة الاسمية التي تفيد الاستمرار والثبوت ، فهم على طول المدى محل السخرية والاستهزاء ، ثم قصر المولى عز وجل السخرية بهم على ذاته العليّة : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ فلفظ الجلالة المبتدأ ، وجملة الفعل والفاعل الضمير المستتر الذي يعود على لفظ الجلالة الخبر والمتعلق الجار والمجرور ، كلها تفيد التقوية والثبوت والاستمرارية والاستهزاء الذي لا ينقطع والتخصيص من المولى عز وجل لا غيره ، فهو الذي يستهزىء بهم لا غيره . وفي هذا أعظم نكاية بهم وسخرية . .

وقوله تعالى على لسان الكفار : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ .

وقوله تعالى على لسان فرعون : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ .
كل هذه حقائق ساقها القرآن وعبر عنها بأحسن الألفاظ وأفصحها في أحسن نظوم التأليف متضمناً أصحّ المعاني .

فالاستهزاء والسخرية معنيّ صدر من المنافقين ، ولكن هل

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ يستلزم أن المنافقين تفوهوا بهذه الألفاظ في نفس النظم والسبك ؟ لا لايلزم ذلك ، بل ربمّا قالوا : « نحن نستهزىء بهؤلاء » « نحن نضحك عليهم » « نحن نحتال ونحاول السخرية بهم » .

أما هذا الاختيار بهذا النظم الذي يفيد القصر ، فهو نظم القرآن ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ وكفى . .

نعم إن القرآن الكريم يحكي في سياق آياته الحقّ والباطل ، والصادق والكاذب ، والنافع والضار لأجل الموعظة والاعتبار .

وهذا واضح ملموس في كثير من آي القرآن من مثل عبادة العجل ، فهو أمر باطل ، وعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، وعقر الناقة ، وتطيف المكيال والميزان ، وما إلى ذلك من أمور باطلة ، أما عن كلامهم الكاذب مثل قول الحق عز وجل على لسان فرعون : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ الشعراء (٢٧) .

أما عن القول الصادق مثل قوله سبحانه وتعالى على لسان سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء (٥٠ - ٥١) .

وما دام القرآن الكريم هو الحقّ وليس فيه افتراء ولا زيغ ، فلزاماً علينا أن نعتقد ونصدّق كل جزئية من جزئياته ، وخصوصاً أن كل جزئية من جزئياته بعيدة عن الزيغ والتهويل ، لأنها تحكي الوقائع ، وتسجل الأحداث كما هي .

إنّ القرآن الكريم يحكي الواقع بكلّ ملامحه ، حتى وإن كانت

المعاني المألوفة على السنة شخصياتها ، تحكى كما هي ، وإن لم تكن قريبة من الأفهام لكي تكون آياته معبرة تماماً ومسجلة المفاهيم التي ألفتها الأمم بدون زيادة ولا نقصان . وذلك معنى قول الإمام الخطابي رحمه الله : « مضمناً أصح المعاني » .

[ففهم الآن ، واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصح المعاني]^(١) .

[ثم صار المعاندون له ممن كفر به ، وأنكره يقولون مرّة : إنه شعر ، لما رأوه كلاماً منظوماً ، ومرّة : سحر ، إذ رأوه معجوزاً غير مقدور عليه] .

ثم صار المعاندون له ممن كفر به وأنكره وهم كفار قريش ومن شايعهم لعجزهم ، عن معارضته أو مناقضته بغيره ، أخذوا يبررون هذا العجز أمام الآخرين ، كان لا بد أن يلجؤوا لمثل هذه الأساليب من المراوغة ، يتصلون بها عن هزائمهم المتوالية ويلصقون التهم بالقرآن ورسول القرآن . . لأن العاجز عن المعارضة لا بد أن يبحث عن مسوغ يبرر له عجزه ، خاصة والقرآن يقرعه ، فلتغطية هذا العجز ولتشويه سمعة الطرف الآخر ، فهو لا يفتأ باحثاً عن عذر يتذرع به ليسوغ له ضعفه وعجزه وانقطاعه ، فقالوا : إنه شعر ، ولكنهم « لا يعتقدون ذلك لأن الشعر مسخر لهم ، ولهم فيه ما علمت من التصرف العجيب ، والاقتماد اللطيف ، فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك ، ولا عوّلوا عليه ، علم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئاً »^(٢) .

(١) بيان إعجاز القرآن - للخطابي - دار المعارف بمصر - ص ٢٤ .

(٢) إعجاز القرآن - للباقلاني - تحقيق سيد صقر - ط ٣ - ص ٥٣ .

ثم لجؤوا إلى كذبة أخرى بقاء تسوِّغ لهم ما هم فيه ، فقالوا :
 إنه سحر ، وهم إنما لجؤوا إلى ذلك لأنهم السادة ، ويخشون إذا
 ظهر أمر الرسول ﷺ أن تتلاشى تلك العظمة ، وأن يزول ذلك
 البريق ، كيف وهم أصحاب السلطة والوصولجان ، ولا أدلّ على ذلك
 فيما حكاه القرآن الكريم عنهم قولهم : ﴿ وقالوا لولا أنزل هذا القرآن
 على رجل من القريتين عظيم * أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسّمنا
 بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات
 ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيّاً ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾
 الزخرف (٣١ - ٣٢) .

قال كفار قريش كالمعترضين : هلا كان إنزال هذا القرآن على
 رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين « مكة والطائف » ! يعنون :
 الوليد بن المغيرة المخزومي من مكة ، أو عروة بن مسعود الثقفي من
 الطائف ، قال تبارك وتعالى راداً هذا الاعتراض : ليس الأمر مردوداً
 إليهم ، بل إلى الحقّ تبارك وتعالى : ﴿ والله أعلم حيث يجعل
 رسالته ﴾ فإنه لا ينزلها إلا على أذكى الخلق عقلاً وقلباً ونفساً
 وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً ، وذلك هو سيد الخلق محمد ﷺ (١) .

وكيف يمكن أن تلصق هذه التهمة بمن عرفوا استقامته
 ونزاهته ، وقد جاءهم بالحق محذراً من مغبة الانحراف ، وسلوك
 سبيل الشيطان ، فإنه لم يأتهم إلا بالحق الصراح ! ﴿ وعَجِبُوا أَنْ
 جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ
 إِلَهُاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾ ص (٤ - ٥) .

[وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب ، وقرعاً في النفوس ،

(١) ابن كثير ، المجلد الرابع - ط ١٣٨٨ هـ .

يريبهم ويحيرهم ، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف ،
ولذلك قال قائلهم : « إنَّ له لحلاوة ، وإنَّ عليه طلاوة » .

هذا هو الأثر النفسي ، والروعة التي دخلت عليهم فأزعجتهم
حتى قالوا : « إنَّ له لحلاوة ، وإنَّ عليه طلاوة ، وإنَّ أسفله
لمغدق ، وإنَّ أعلاه لمثمر » .

إنما كان لشيء راعهم من مواقع حركاته ، ومن ترتيب بينها
وبين سكناته أو لفواصل آخر آياته ، لا بل إنَّه نظمه الشجي ، وأثره
الذي يحدثه في النفوس . .

حتى قال الوليد بن المغيرة المخزومي الذي فكَّر وقدَّر لَمَّا
سمع النبي ﷺ يقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قال الوليد : « إنَّ له لحلاوة ، وإنَّ عليه طلاوة ، وإنَّ أسفله
لمغدق ، وإنَّ أعلاه لمثمر » .

أغدق المطر : كثر قطره ، وأسفله : أول ما يكون منه ،
وأعلاه : ما ينتهي إليه منه ، والطلاوة : الماء والرواء والإشراق .

[وكانوا مرّةً لجهلهم وحيرتهم يقولون : ﴿ أساطيرُ الأولين
اكتتبتُها فهي تُملَى عليه بُكْرَةً وَأَصِينًا ﴾ الفرقان (٥) مع علمهم أن
صاحبه أمِّي ، وليس بحضرته من يملِي أو يكتب في نحو ذلك من
الأمور التي جماعها الجهل والعجز] .

لجهلهم وحيرتهم ، وليس المراد والمقصود بالجهل هنا عدم
العلم ، ولكنه جهل العناد والمكابرة ، يعرف الشيء ولكنه يكابر
ويضلل ، لأنَّ الجاهل يعلم ويدرس ويفقه ، ولكن هؤلاء معاندون

وجهلهم مكابرة ، فهم يعرفون الحق ولكنهم يتجاوزونه إلى نقيضه ، إلى ضده ، وهو الباطل عناداً ومكابرةً ، وإلاّ فهم يعلمون ويعرفون القرآن ويحسونه ، ولا يجهلون صدق ما جاء به النبي ﷺ ، وقد صرّحوا بهذا مراراً وتكراراً في مجالسهم وأنديتهم قالوا : ﴿ لولا أنزلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيمٍ ﴾ .

هم يعلمون تمام العلم ويدركون تمام الإدراك أن الاعتراف بنبوّة محمد ﷺ سوف يجعلهم يتساوون هم ومن يرونهم دونهم بمنزلة الخدم والعبيد ، وهم يأنفون ويتبرّمون من أن يعطوا قيادهم للنبي ﷺ يقولون : فقير ویتيم ، ونحن أهل الجاه والسلطان والثراء ، والولد ، ومحمد بن عبد الله لا يملك شيئاً من حطام الدنيا وأتباعه هم المستضعفون ، وهم يعلمون أن الإسلام هو دين المساواة وأي اعتراف بالنبي ﷺ أو القرآن يفقدهم تلك السيطرة والديكتاتورية المزعومة ، فإذن لا بد من محاربة القرآن ورسول القرآن ومحاولة الطعن فيهما ، وهكذا بلغت الحيرة مبلغها فيهم ، فإذا بهم يقولون من فرط حيرتهم وعنادهم ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلاً ﴾ وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يؤثر عنه أنه اختلط بقارئ أو كاتب أو كان يعرف القراءة أو الكتابة ؛ « ما أنا بقارئ ما أنا بقارئ » .

[وقد حكى الله عزّ وجل عن بعض مردتهم وشياطينهم ، ويقال : هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، أنه لما طال فكره في أمر القرآن ، وكثر ضجره منه ، وضرب له الأخماس من رأيه في الأسداس ، لم يقدر على أكثر من قوله : ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ عناداً للحق وجهلاً به ، وذهاباً عن الحجّة ، وانقطاعاً دونها] .

والوليد بن المغيرة المخزومي كان سيداً من سادات مكة وله من الولد عشرة منهم سيدنا خالد بن الوليد سيف الله المسلول رضي الله عنه .

لما طال فكره في أمر القرآن ، وزاد ضيقه وتبرمه واشتدَّ حنَّقه ، واعتراه من الضجر والفتور وضرب له الأخماس في الأسداس ، فهو في منتهى الحيرة واليأس جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ ، فقرأ عليه النبي ﷺ فكانه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتى الوليد فقال له : يا عمّ إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً يعطونك إياه ، لئلا تأتي محمداً وتسمع ما يقول .

قال الوليد : لقد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً .

قال أبو جهل : فقل فيه قولاً يعلم منه قومك أنك كاره له .

قال الوليد : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ، والله ما يشبه الذي يقوله محمد شيئاً من هذا . ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته .

قال أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

قال الوليد : فدعني حتى أفكر . فلما فكر قال : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴾ يَأْتِرُهُ عَنْ غَيْرِهِ ، فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِياً * سَأَرَّهُنَّ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قَبَلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

يُؤَثِّرُ* إن هذا إلا قولُ البشر * سَأَصْلِيهِ سَقْر * وما أدراك ما سقر *
لا تُبْقِي ولا تَذَرُ* لَوَاحَةٌ للبشر * عليها تسعةَ عشرَ وما جَعَلْنَا
أصحابَ النارِ إلا ملائكةَ وما جَعَلْنَا عِدَّتَهُم إلا فِتْنَةً * .

وهكذا لَجَّ بهم العناد ، وأخذوا يقبلون الأمور كي يجدوا لهم
ما يبرّر كُفْرَهُم وعنادَهُم ويسوّغ لهم عند المستمع العذر في عدم
معارضتهم وقدرتهم على مجاراته ، وكأنهم يقولون إنه ليس في
مقدورنا للمبررات التالية ، إنه شعر ، لا بل سحر ، لا بل كهانة ،
لا بل صاحبه مجنون . . . إلخ ، وأخيراً استقروا على أمرٍ يدفعون به
من تتطلع نفسه إلى الإيمان ويحن إلى ذكر القرآن ، ولا سيما حينما
يستمع إلى النبي ﷺ في المواسم والمناسبات ، فقال ما ردهم
وشيطانهم الأكبر الوليد بن المغيرة المخزومي : ﴿ إن هو إلا سحر
يؤثر ﴾ .

هكذا بأسلوب القصر الذي يفيد التخصيص ، إن بمعنى
« ما النافية » أي : ﴿ ما هو إلا سحر يؤثر ﴾ وهو من قبيل قصر
الموصوف على الصفة ، والقصر طريقه النفي والاستثناء : « ما هو
إلا سحر يؤثر » أي : سحر يؤثره عن غيره ويؤثر به في الآخرين ،
فهو سحر وكذب وافتراء ، يفرق بين المرء وأخيه وعشيرته وعندما
أكثروا عليه وألحوا وقالوا : لا نفهم في السحر ، قال : « هو قول
البشر » وبالقصر وأسلوبه مرة أخرى « أي : ما هو إلا قول البشر »
فما دام هو قول البشر فمعناه أنه يدخله الافتراء وتدخله النقائص ،
فالكذب والدجل والافتراء سمته ، لماذا ؟ لأنه قول البشر ، وليس
فيه من صفات الحق شيء « هو قول البشر » فما دام الأمر كذلك
فارموا به عرض الحائط ، وارفضوه جملة وتفصيلاً ولا تستمعوا

إليه ، وأريحوا أنفسكم منه وارتاحوا من هذا الكذب والسفه والافتراء والاختلاق ولا تروموه . . . ولا تتطلعوا إليه ودعوه . . . كل ذلك عناداً للحقّ وجهلاً به ، وذهاباً عن الحجة وانقطاعاً دونها ، منتهى الحقد والغل والعناد ، الحقد الأسود الدفين الذي مبعثه الحسد والبغض والمكابرة فهم ينفثون سمّ الأفاعي وزعاف الثعابين . . .

[وقد وصف ذلك من حاله وشدة حيرته فقال سبحانه : ﴿ إنه فكّر وقدّر * فقتل كيف قدر * ثم قُتِل كيف قدر * ثم نَظَرَ * ثم عَبَسَ وبَسَرَ * ثم أَدْبَرَ واستكبر * فقال إن هذا إلا سحرٌ يؤثرُ * إن هذا إلا قولُ البشر ﴾ وكيفما كانت الحال ودارت القصة ، فقد حصل باعترافهم قولاً ، وانقطاعهم عن معارضته فعلاً أنه معجز ، وفي ذلك قيام الحجة ، وثبوت المعجزة والحمد لله] .

نعم والحمد لله لقد حصل باعترافهم قولاً وفعلاً ما يدل على أنه معجز ، أما الاعتراف قولاً فهي شهادتهم التي تدل على حيرتهم واستسلامهم : « إن له لحلاوة وإن عليه طلاوة » وأما اعترافهم فعلاً فهو لجوؤهم إلى السيف والحرب وبذل المهج وتقطيع الأرحام ، مما يدل على عجزهم وانقطاعهم وبؤسهم ، وفي ذلك قيام الحجة ، وثبوت المعجزة للقرآن الكريم والحمد لله أولاً وآخراً . . .

رُوي أن الوليد جاء حتى أتى قريشاً فقال : إن الناس يجتمعون غداً بالموسم ، وقد فشا أمر هذا الرجل في الناس ، فهم سائلوكم عنه فماذا تردون عليهم ؟ فقالوا : مجنون يخنق ؟ فقال : يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحاً فصيحاً عاقلاً فيكذبونكم ! ، قالوا : نقول : هو شاعر ، قال : هم العرب وقد رواوا الشعر وفيهم الشعراء ، وقوله ليس يشبه الشعر ، فيكذبونكم ! قالوا : نقول : هو

كاهن . قال : إنهم لقوا الكهان فإذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة فيكذبونكم ! ثم انصرف إلى منزله ، فقالوا : صبأ الوليد ، - يعنون أسلم - ولئن صبأ لا يبقى أحد إلا صبأ ؛ فقال لهم ابن أخيه أبو جهل بن هشام بن المغيرة : أنا أكفيكموه . قال : فأتاه محزوناً فقال : مالك يا ابن أخي . قال : هذه قريش تجمع لك صدقة يتصدقون بها عليك ، تستعين بها على كبرك وحاجتك . قال : أولست أكثر قريشٍ مالاً؟! قال : بلى ، ولكنهم يزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد وأصحابه ، قال : والله ما يشبعون من الطعام ، فكيف يكون لهم فضول؟! ثم أتى قريشاً فقال : أتزعمون أنني صبأت ، ولعمري ما صبأت ، إنكم قلتم : محمد مجنون ، وقد ولد بين أظهركم لم يغب عنكم ليلة ولا يوماً ، فهل رأيتموه يخنق قط؟ فكيف يكون مجنوناً ولم يخنق قط؟ وقلتم : شاعر؟ وأنتم شعراء فهل أحد منكم يقول ما يقول؟ وقلتم : كاهن ، فهل حدّثكم محمد في شيء يكون في غدٍ إلا أن يقول : إن شاء الله . قالوا : فكيف نقول يا أبا المغيرة؟ قال : أقول هو ساحر ؛ فقالوا : وأي شيء السحر؟ قال : شيء يكون ببابل من حذقه فرّق بين الرجل وامرأته والرجل وأخيه . أليس مما تعلمون أن محمداً فرّق بين فلان وفلانة زوجته ، وبين فلان وابنه ، وبين فلان وأخيه ، وبين فلان ومواليه ، فلا ينفعهم ولا يلتفت إليهم ولا يأتهم؟ قالوا : بلى . فاجتمع رأيهم على أن يقولوا : إنه ساحر ، وأن يردوا الناس عنه بهذا القول . وانصرف فمرّ بأصحاب النبي ﷺ منطلقاً إلى رحله ، وهم جلوس في المسجد ، فقالوا : هل لك يا أبا المغيرة إلى خير؟ فرجع إليهم فقال : ما ذلك الخير؟ فقالوا : التوحيد ، قال : ما يقول

صاحبكم إلا سحراً ، وما هو إلا قول البشر يرويه عن غيره ، وعبس في وجوههم وبسر ، ثم أدبر إلى أهله مكذباً واستكبر عن حديثهم الذي قالوا له وعن الإيمان ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فُقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ المدثر (١٨) .

اعلم أن عمود هذه البلاغة ، بلاغة القرآن المعجزة ، والتي أخذت من أجناس الكلام المختلفة أرفعها وأعلاها ، من البليغ الرصين الجزل ، والفصيح القريب السهل ، والجائز الطلق الرسل فحازت بلاغته من كل قسم منها حصة ، وأخذت من كل نوع منها شعبة ، حتى انتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعدوبة . .

هذه البلاغة القرآنية التي تجمع لها هذه الصفات من مجيئه بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصح المعاني .
عمود هذه البلاغة ، وذروة سنامها ، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ؛ بحيث تتناغم وتتناسق وتتسق الألفاظ مع الغرض الذي سيقى من أجله ، وبحيث لا يكون هناك لفظ أشكل ولا أمثل منه في موضعه .

فالألفاظ تتناسب مع الغرض العام الذي تعالجه ، وهي من الدقة بحيث لا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي المعنى المقصود أشكل ولا أخص من هذا اللفظ .

فالآيات مثلاً في ذكر الجنة إنما يناسبها من الألفاظ ما يتفق مع هذا المعنى الذي تعالجه الآيات وهو السلاسة والعدوبة والانسياب ، فكان الجو العام الذي تحمله الآيات في مثل هذا المقام : الدفاء ،

والطمأنينة ، والسرور ، والحبور ، والهور ، والأبكار ، والأتراب والسرر والارائك . وهكذا يشيع في الجوكله معنى السرور والبهجة . والآيات في ذكر النار يناسبها من الألفاظ ما يتفق مع هذا المعنى : الفخامة والوعورة والجزالة السعير ، سقر ، الاحباط الغسلين ، الغساق ، الزقوم ، الآهات ، الزفرات ، والآلام وهكذا . .

﴿ وللذين كفروا بربهم عذابٌ جهنم وبئس المصير ﴾ * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكادُ تميّزُ من الغيظ كلما ألقى فيها فوجٌ سألهم خزنتها ألم يأتكم نذيرٌ * قالوا : بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيءٍ إن أنتم إلا في ضلالٍ كبير . وقالوا : لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ما كنا في أصحاب السعير ! فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير . إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ ﴾ سورة الملك (٦ - ١٢) .

إنه مشهد مروّع ، تضطرب له القلوب ، وتقشعر لهوله الجلود ، وبينما هم في فزع من هذه الغول التي تتميز من الغيظ ، وهي تتلقفهم بشهيق وهي تفور ، نسمع خزنتها وحراسها يتلقون كل فوج مدفوع بسؤال واحد مكرور ، فكلهم ذو شأن واحد مكرور ﴿ ألم يأتكم نذيرٌ ﴾ والجواب في ظل الاعتراف وخجل الانكسار : ﴿ بلى ﴾ قد جاءنا نذير ﴿ فكذبنا ﴾ بل تبجحنا في الإنكار ﴿ وقلنا : ما نزل الله من شيءٍ إن أنتم إلا في ضلالٍ كبير ﴾ أيها الرسل ، ونحن على هدى بين . ثم تطرد موجة الاعتراف والانخزال فإذا بهم ينفون عن أنفسهم « السمع والعقل » ﴿ وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ما كنا في أصحاب السعير ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ * بل الساعةُ

مَوْعِدُهُمُ وَالسَّاعَةَ أَدهَى وَأَمْرٌ * إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسَعَرٍ * يَوْمَ
يَسْحَبُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ *
وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * إِنْ الْمَتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ * فِي
مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿ سورة القمر (٤٥ - ٥٥) .

فالمجرمون في ضلالٍ وسُعرٍ ، في ضلالٍ يعذب^(١) العقول
والنفوس ، وفي سحرٍ يكوي الجلود والأبدان ، وها هم أولاء
يسحبون في النار على وجوههم في عنفٍ وتحقيرٍ ، ويزادون عذاباً
بالإيلام النفسي : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ .

وبينما هؤلاء يسحبون في النار سحباً ، ويلقون فيها تحقيراً
وهوناً ، ويعانون فيها حيرةً وضلالاً ، إذ المؤمنون هادئون ناعمون
﴿ في جناتٍ ونهرٍ ﴾ مطمئنون مكرمون في مقعدٍ صدقٍ عند ملكٍ
مقتدرٍ » .

تلك بلاغة القرآن في وضع الألفاظ في موضعها الأخصّ
الأشكَل بها ..

[ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات ،
هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام ،
موضعه الأخصّ الأشكَل به] .

نعم إن عمود البلاغة القرآنية ومرتكزها الذي تركز عليه ، هو
وضع الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعها الأخصّ
الأشكَل بها ، بحيث إذا أبدل مكان الكلام غيره ، نتج عنه أمران :
الأول : تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، فقد دخل
جرير على عبد الملك بن مروان ، فابتدأ ينشده :

(١) مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب - الطبعة السابعة - ص ٩٦ - ٩٧ .

أَتَصْحُو أَمْ فَوَؤَادِكْ غَيْرُ صَاحِ عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَّاحِ
فقال له عبد الملك : بل فؤادك يا ابن الفاعلة ، كأنه استثقل
هذه المواجهة ، وإلا فقد علم أن الشاعر إنما خاطب نفسه ، فلما
ذهب الكلام عن موضعه ، تبدل به المعنى ، والذي كان معه فساد
الكلام ، فالمقام مقام مدح ، وكان حريئاً بجريير أن يحزر هذا ، ولكن
خائنه براعة الاستهلال ، فكان هذا المطلع الرديء .

ومن هذه الجهة بعينها عابوا على أبي الطيب قوله لكافور أول
لقائه مبتدئاً ، وإن كان إنما يخاطب نفسه لا كافوراً :
كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسبُ المنيا أن يكنَّ أمانيا
فالعيب من باب التأدب مع الملوك ، وحسن السياسة ، لازم
لأبي الطيب في هذا الابتداء .

ودخل ذو الرُّمة على عبد الملك بن مروان ، فاستنشه شيئاً من
شعره ، فأنشده قصيدته :

ما بالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الدَّمْعُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كَلِيٍّ مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ
وكان بعين عبد الملك ريشة وهي تدمع أبداً ، فتوهم أنه خاطبه
أو عرض به ، فقال : وما سؤالك عن هذا يا جاهل ؟ فمقته وأمر
بإخراجه^(١) .

الثاني : ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، فقد
أنشد عبيد الله بن قيس الرقيات ، عبد الملك بن مروان قصيدة يقول
فيها :

إِنَّ الْأَغْرَّ الَّذِي أَبَوْهُ أَبَوَالِ عَاصِ عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحُجْبُ
يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَبِينِ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

(١) العمدة - لابن رشيق - الطبعة الأولى - ص ١٥٥ .

فقال له عبد الملك : يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم ، وتقول في مصعب بن الزبير :

إنما مُصْعَبُ شهابٌ من اللدِّ ه تَجَلَّتْ عن وجهه الظلماءُ
مُلْكُهُ ملكٌ عِرَّةٌ ليس فيه جبروتٌ منه ولا كبرياءُ
يَتَّقِي الله في الأمورِ وقد أف لح من كان همُّه الاتِّقاءُ
ما زدت على أن شبهتني بملوك الفرس ، ومدحت مصعباً
بكشف الغمّة ، وجلاء الظلمة ، ومدحتني بما لا خير فيه ..

ويروى أن عبد الملك لما سمع قول جرير في هجاء الأخطل :
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئتُ ساقكمُ إليَّ قَطِيناً
والقطين : الخدم والحشم .

قال عبد الملك : ما زاد على أن جعلني شُرْطِيّاً ، أما إنّه لو
قال : لو شاء ساقكم إلى قطينا ، لسقتهم إليه . يشير هنا إلى ضرب
من المجاملة ينبغي أن يأخذ الشاعر به نفسه حين يعرض لأمثاله من
الخلفاء .

في مثل هذه النماذج رأينا كيف أحدث عدم انتقاء المعاني
الرفيعة في مخاطبة عبد الملك من ابن قيس الرقيات ، وفي قول جرير
كيف ذهب برونق الكلام الذي يكون معه سقوط البلاغة ، لأن وضع
الكلام في غير موضعه ، وعدم مراعاة حال الممدوح مما يفسد به
الكلام ، ويذهب ببلاغته ، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني
البلاغة وأن مخاطبة الملوك يُتَمَثَّلُ فيها حالهم ، وما يميلون إليه ،
وما يليق بهم كما في قصيدة ابن قيس الرُّقِيَّاتُ ، حتى قال له :
ما زدت على أن مدحتني بالتاج كأني من العجم ، فوجه عتاب عبد
الملك على الرقيات إنّما كان من أجل أن هذا المادح عدلَ به عن

بعض الفضائل النفسية التي هي العقل والعفة والعدل والشجاعة ، إلى ما يليق بأوصاف الجسم^(١) في البهاء والزينة ، وعبد الملك ناقد بصير . .

كل هذا مما يذهب بالكلام عن وجهه ، ويفسده ويذهب برونقه ومائه ، وذلك حال يكون معه سقوط البلاغة والفصاحة ، والانقطاع للشاعر والنثر على حد سواء . .

والبلاغة القرآنية تأتي في كل ذلك بالأخص والأشكلى ، أي : بما لا يدانيها من ألفاظ هي بلاغة القرآن التي تأتي بالألفاظ التي تتناسب مع الغرض الذي تعبر عنه ، وهي من الدقة المتناهية ، بحيث لا يقع لفظ إلا ويطابق معناه ، كما تنطبق تلك الألفاظ في إفادة معانيها ، وظهورها في تلك البلاغة الظهور الذي ليس بعده ظهور .

هذه الألفاظ في فصولها ، قد انطبقت تمام المطابقة ، وعبرت عن المعنى المراد وهي في أحسن نظوم التأليف ، وبأفصح الألفاظ وفي أصح المعاني .

نعم قد يوفق شاعر أو نثر في وصف ويأتي بألفاظ مشاكلة للمعاني ومعبرة عنها ، لكن أن يأتي بالأخص والأشكلى ، فذلك لا يتأتى له ، تلك مرحلة سامية ، تلك بلاغة القرآن التي حازت من كل أجناس الكلام أعلاها وأرفعها درجة ، فامتزج لها بذلك نمط من الكلام يجمع بين صفتي الجزالة والعدوية ، فهي الأخص ، وهي الأشكلى - على أفعال التفضيل - وكأنها بلغت منتهاها في بابها . .

[ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني ، يحسب أكثر

(١) نقد الشعر - لقدامة بن جعفر - الطبعة الأولى - تحقيق محمد عبد المنعم

خفاجي - ص ١٨٤ .

الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب] .
يرد الإمام الخطابي رحمه الله بهذا على من في قلوبهم مرض ،
فهم يثيرون الشبه دائماً ، فقد يعترض معترض من هؤلاء فيقول :
« إن في القرآن كلاماً لغواً لا داعي له ، أو أن القرآن الكريم يكرر
نفسه في وجود مثل هذه الألفاظ المتساوية في إفادة بيان مراد
الخطاب . . وبذلك يعدون هذا نوعاً من الطعن ومغمزاً في أن
الألفاظ القرآنية يغني أحدها عن الآخر ، وهذا حشو لا داعي له ،
والقول بمثل هذا الكلام تناقض مع كلام الله وإعجازه . .

وهذه الشبهة نفسها تتكرر عند من لا علم له بالعربية ، وهو
يجهل مشتقاتها وألفاظها وأساليبها ، فقد يحسب بأن هذه الألفاظ
المتقاربة في المعاني ، متساوية فيها فهي من باب الترادف ، نحن
لا ننكر الترادف ، ولكن ننكر وننفي أن يكون في كتاب الله شيء من
ذلك ، وأنه لا يمكن أن ترد لفظة إلا وهي تدلّ على معنى ، وإن
اشترك اللفظان في المعنى العام ، فإن كلّ واحدة تشتمل على دقيقة
وجزئية تنفرد بها دون الأخرى ، وتعبّر عن معنى لا تغني إحداهما عن
الأخرى في موضعها الأخص الأشكل بها في إفادة بيان مراد
الخطاب . .

وهذه الدقيقة قد يدركها من يدركها وقد تخفى على الآخرين ،
لكن هذه هي مناط الإعجاز في القرآن وعمود بلاغته التي
لا تتناهى . .

[كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ،
وكالنعمة والصفة وكقولك : اقعِد واجلس ، وبلى ونعم ، وذلك
وذاك ، ومنْ وعنْ ، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف

والصفات ، مما سنذكر تفصيله فيما بعد ، والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة خاصية تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها ، وإن كانا قد يشتركان في بعضها [.

لأن عند علماء أهل اللغة كل لفظة تدل على معنى ، وإن اشترك اللفظان في المعنى العام ، فإن كل واحد يشتمل على دقيقة ينفرد بها دون الآخر في إفادة بيان مراد الخطاب . .

[تقول : عرفتُ الشيء وعلمته إذا أردت الإثبات الذي يرتفع معه الجهل ، إلا أن قولك : عرفت يقتضي مفعولاً واحداً ، كقولك عرفت زيداً ، وعلمت يقتضي مفعولين كقولك : علمت زيداً عاقلاً : ولذلك صارت المعرفة تستعمل خصوصاً في توحيد الله تعالى ، وإثبات ذاته . فتقول : عرفت الله ، ولا تقول علمت الله ، إلا أن تضيف إليه صفة من الصفات ، فتقول : علمت الله عدلاً وعلمته قادراً ، ونحو ذلك من الصفات ، وحقيقة البيان في هذا أن العلم ضدّه الجهل ، والمعرفة ضدّها النكرة] .

إلا أن قولك : عرفت يقتضي مفعولاً واحداً كقولك : عرفت زيداً ، فأنت عرفت كينونة شيء اسمه زيد ، عرفت وجود شيء اسمه زيد على الإجمال ، لكنك لا تحيط بدقائقه لا تعلم شيئاً عن صفاته وسماته التي تميزه ، لذلك إذا أردت التعبير عن هذه الصفات التي تميزه تقول : علمت زيداً عاقلاً مثلاً أو علمت زيداً تقياً . .

ولذلك صارت المعرفة تستعمل خصوصاً في توحيد الله تعالى وإثبات ذاته العليّة ، فتقول : عرفت الله سبحانه ، ولا تقول : علمت الله ، إلا أن تضيف إليها صفة من صفاته فتقول : علمت الله عدلاً ، وعلمته قادراً ، علمته عزيزاً ، ونحو ذلك من الصفات فالمعرفة تفيد

الإجمال ، والعلم يفيد التفصيل .

[وحقيقة البيان في هذا : أن العلم ضدّه الجهل ، والمعرفة ضدّها النكرة] .

فإذا ما أحطت بدقائق الشيء وجلائله فقد انتفى جهلك به ، علمته تمام العلم . أما إذا زال التنكير وحصل التعريف ، انتفى الإبهام عن الشيء ولم يعد نكرة ؛ عرفت زيداً ، زالت نكرته وعرفته فليس هناك ما يستلزم سوى ذلك ، بخلاف العلم الذي فيه الاستبطان والوقوف على الدقائق والذي يزول معه الجهل والغموض . .

[والحمد والشكر قد يشتركان أيضاً ، الحمد لله على نعمه ، أي : الشكر لله عليها ، ثم قد يتميز الشكر على الحمد في أشياء ، فيكون الحمد ابتداء بمعنى الثناء ، ولا يكون الشكر إلا على الجزاء ، تقول : حمدت هذا إذا أثنت عليه في أخلاقه ومذاهبه وإن لم يكن سبق إليك منه معروف ، وشكرت زيداً ، إذا أردت جزاءه على معروف ابتداءه إليك] .

والشكر لا يكون إلا بمقابل « شكرت زيداً » إذا أردت جزاءه على معروف ابتداءه إليك فأنت تشني على هذه اليد والصنيع الذي امتد إليك ، فالحمد ابتداء بالثناء ، والشكر لا يكون إلا على جزاء ، ثم إن الحمد يكون ثناءً على جميل من نعمة وغيرها ، تقول : حمدت الرجل على إنعامه ، وحمدته على حسبه وشجاعته ، وأما الشكر فعلى النعمة خاصة ، حمدت الرجل على إكرامه .

والشكر يكون بالقلب ، واللسان ، والجوارح ؛ أما الحمد فلا يكون إلا باللسان وحده فهو أحد شعب الشكر ، ومنه قوله ﷺ : « الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبداً لم يحمده » وإنما جعله رأس

الشكر ، لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليتها أشيع لها وأدلّ على مكانها من الاعتقاد بالقلب وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب ، وما في عمل الجوارح من الاحتمال ، بخلاف عمل اللسان ، وهو النطق الذي يفصح عن كلّ ما خفي ويجلي كل مشتبّه «^(١) .

أما كيف يفيد عمل الجوارح الاحتمال ؟ كما لو قمت لرجل أسدى إليك صنيعة تكريماً له ، فقد يحتمل أن قيامك لأمر آخر سوى التكريم ، بخلاف النطق باللسان . .

[ثم قد يكون الشكر قولاً كالحمد ، ويكون فعلاً كقوله جل وعز : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ سبأ (١٣) .

فالشكر كما يكون بالقول ثناء حسناً واعترافاً للمتفضل بفضله ، يكون فعلاً كما في قوله تعالى لآل داود : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاْعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَسْلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجَبْرِ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اْعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِي الشُّكُورِ ﴾ سبأ (١٠ - ١٣) .

اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما آتاكم حالة كونكم شاكرين له ما تفضل به عليكم من إنعامات وأيادٍ ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِي الشُّكُورُ ﴾ العامل بطاعتي الشاكر لنعمتي^(٢) .

(١) الكشف للزمخشري - الجزء الأول - ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) فتح القدير - للشوكاني - الجزء الرابع - =

فالشكر كما يمارس باللسان ثناءً على المنعم ، واعترافاً بأياديه ، يمارس بالفعل : تقدم له يداً فتكون شكرته ، أو تسدي له صنيعاً فتكون قابلته وجازيته ، من هنا قال تعالى : ﴿ اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ قدموا مقابل تلك الإنعامات الجزيلة الشكر بممارسة شعائر العبادة ، والإكثار من الطاعة للمولى المنعم المتفضل المستحق للشكر والثناء ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ المعترف بالفضل لمولاه .

[وإذا أردت أن تتبين حقيقة الفرق بينهما ، اعتبرت كل واحد منهما بضده ، وذلك أن ضدَّ الحمد الذمُّ ، وضدَّ الشكر الكفران] .
فالحمد وهو الثناء للمجزل المحسن يقابله الذمُّ ، وأمَّا الشكر فإنَّ ضده الكفران وهو الجحود ؛ كما قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد ﴾ .

فالشكر يقابله من المنعم عزٌّ وجل الزيادة قولاً وفعلاً ؟ قولاً : بالثناء عليه في الملاء الأعلى ، وفعلاً : في توالي الإنعام وحصول الإكرام . ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ ماذا قابل « الشكر » في الآية « الكفر » ﴿ ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد ﴾ كفرتم بإنكار النعمة ، وسلكتم مسالك الغي ، فالعذاب بانتظاركم ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد .

وقوله تعالى في سورة سبأ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ

= الناشر محفوظ العلي - بيروت - ٣١٧ .

بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور * وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرةً وقدّرنا فيها السيرَ سيّروا فيها لياليَ وأياماً آمنين * فقالوا ربّنا باعدْ بينَ أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديثَ ومزقناهم كلّ ممزقٍ إنّ في ذلك لآياتٍ لكلّ صبارٍ شكور ﴿ سبأ (١٥ - ١٩) .

وسبأ قبيلة كانت تسكن مأرب ، وكان لهم بساتين وأشجار وطيور ، كانت المرأة تمشي فيها وعلى رأسها المكتل فيمتلىء من أنواع الفواكه والثمار ، تتساقط من غير أن تمسها بيدها ، وكانت بلدهم لا تدخلها الهوام ولا فيها ذباب ولا بعوض ولا براغيث ولا عقرب ولا حية ، وإذا جاءهم الركب وفي ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم لبيوتهم ، قالت لهم الملائكة : « كلوا من رزق ربكم واعملوا بطاعته واجتنبوا معاصيه » . وجملة : « بلدة طيبة ورب غفور » مستأنفة لبيان موجب الشكر ، هذه بلدة طيبة لكثرة أشجارها وطيب ثمارها ، وربكم إن شكرتم فيما رزقكم رب غفور للذنوب ثم ذكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التي أنعم بها عليهم ، فقال تعالى : ﴿ فأعرضوا ﴾ عن الشكر وكفروا بالله وكذبوا أنبياءهم ، ولما وقع الإعراض عن شكر النعمة أرسل الله عليهم نقمة سلب بها ما أنعم به عليهم ، فقال : ﴿ أرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدّلناهم بجنتّهم جنتين ﴾ أهلكننا جنتّهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة والأنواع الحسنة ، وأعطيناهم بدلها جنتين لا خير فيهما ولا فائدة ﴿ ذواتي أكلٍ خَمَط ﴾ وهي كل شجرة مرة ذات شوك ، والأثل : شجر الطرفاء ، ﴿ وشيء من سدر قليل ﴾ وهو نوع بري لا يصلح ولا ينتفع به وله ثمر عفص لا يؤكل

وهو المراد هنا ، والآخر سِدْرِ النَّبِقِ .

﴿ ذلك ﴾ أي : التبديل ﴿ جزيناهم بما كفروا ﴾ بسبب كفرهم للنعمة ، وإعراضهم عن شكرها ﴿ وهل تُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ وهل نجَازِي هذا الجِزَاءَ : سلب النعمة ، ونزول النعمة ، إلا الشديد الكفر المبالغ في كفره ، فالجزء من جنس العمل . فالكافر جزاؤه من جنس عمله ، ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها ﴾ وهي قرى الشام بالماء والشجر ، وكان متجرهم من أرضهم مأرب إلى الشام ﴿ قرى ظاهرة ﴾ متواصلة يبيتون بقرية ويقبلون بأخرى حتى يرجعوا ، قيل : كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية فكانوا لا يغادرون قرية حتى تظهر الأخرى ﴿ سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين ﴾ لا تخافون ولا تحذرون^(١) .

وهكذا يتضح لنا أنّ الشكر ضده الكفر لما تقدم من آيات ، والكفر ، هو الجحود قولاً وفعلاً ، وكذلك الشكر فهو الاعتراف بالفضل قولاً وفعلاً ، والكفر : ستر النعمة بجحودها ، قال الشاعر :

فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ التُّجُومَ غَمَامُهَا

أي : غطاها وسترها وأخفاها ، ففيه معنى التواري والستر والإخفاء ، ومن هنا يسمى الكافر كافراً ، لأنه يُخْفِي فضل المنعم المتفضل ويحجد إحسانه بإنكاره وعبادة غيره ، وذلك هو الجحود . .

وقد يكون الحمد على المحبوب والمكروه ، على الخير والشر ، الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه . .

فالحمد على المحبوب بالثناء على المتفضل ، والحمد يكون

(١) فتح القدير - للشوكاني - الجزء الرابع - ٣٢١ .

على المكروه ، كما تحمد المولى على ما أصابك « الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه » .

ولا يكون الشكر إلا على المحبوب « وإن أصابته سرّاء شكر » ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ « وبالشكر تدوم النعم » .

[وأما الشحّ والبخل فقد زعم بعضهم أن البخل منع الحق وهو ظلم ، والشحّ ما يجده الشحيح في نفسه من الحزازة عند أداء الحق وإخراجه من يده ، قال : ولذلك قيل « الشحيح أعذر من الظالم » .

قلت : وقد وجدت هذا المعنى على العكس مما روي عن ابن مسعود : نا أحمد بن إبراهيم بن مالك قال : نا عمر بن حفص السدوسي قال : حدثنا المسعودي عن جامع بن شداد عن أبي الشعثاء قال : قلت لعبد الله بن مسعود : يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : ولم ذاك ؟ قلت : لأنني سمعت الله يقول : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ ﴾ ، وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء . قال : ليس ذاك الشح الذي ذكره الله في القرآن ، ولكن الشحّ أن تأكل مال أخيك ظلماً ، ولكن ذلك البخل . وبئس الشيء البخل [(١)] .

وما أورده الخطّابي في هذا الفرق بين لفظتي الشحّ والبخل هو الأقرب لما جاءت به الآيات والأحاديث .

فالبخل هو منع الحقّ وغمطه وإنكاره وجحوده ، كالذي ينكر غريمه ديناً استدانه ويجحده إياه ويأبى تسديده ، فهذا ظلم وغمط للحق ، وأما الشحّ فما يجده الشحيح في نفسه من الحزازة عند أداء

(١) رسالة بيان إعجاز القرآن - للخطّابي - ٢٧ .

الحق وإخراجه من يده ، وهذا جيلة وطبيعة ركبت في النفس الإنسانية إلا من عَصَم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ والحديث الشريف : « كل ابن آدم حريص » وقوله تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾ . ولذلك قيل : الشحيح أعذر من الظالم ، أي : البخيل ، لأن الشحيح يخرج من يده ولكن بحرص وحزازة وتوعر ، وأما البخيل فإنه لا ينصف ولا يعطي الحق من نفسه ، ومن هنا كان الشحيح أعذر في إخراج الحق من يده من البخيل الجحود الذي يمنع الحق ولا وجود به ، يقول الإمام الخطابي رحمه الله : قلت : وقد وجدت هذا المعنى على العكس ، فإن أبا الشعثاء يسأل عبد الله بن مسعود : يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : ولم ذلك ؟ قلت : لأنني سمعت الله يقول : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الحشر (٩) وأنا رجل شحيح لا تسح يدي بعتاء ، ولا يكاد يخرج من يدي شيء ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : ليس ذاك الشح الذي ذكره الله في القرآن ، يعني : في الآيات من سورة الحشر ، ولكنه البخل وبئس الصفة البخل ، ولعل ابن مسعود رضي الله عنه قد نظر في هذا إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ الليل (٨ - ١٠) فما الشح إذاً في نظر ابن مسعود رضي الله عنه ؟ قال : الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً » أي : غمط الحق وأكل حقوق الناس بالباطل » فكأن الكلام قد فسر بالعكس ، فالبخل الذي فُسر (بالظلم وغمط الحق ابتداءً) فسر ابن مسعود بالشح ، والشح الذي فُسر (بالحزازة في إخراج ما في اليد فسر ابن مسعود رضي الله

عنه بالبخل ؛ وليس في هذا غضاضة لأن ما نريد أن نصل إليه أن الألفاظ المتقاربة في المعاني ، التي يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ، والأمر فيها بخلاف ذلك ، فإن لكل لفظة خاصة تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها ، وهي تعبر عن معنى لا تعبر عنه الأخرى وإن كانا قد يشتركان في بعض هذه المعاني . . .

[وأما النعت والصفة ، فإن الصفة أعمّ والنعت أخص ، وذلك أنك تقول : زيد عاقلٌ وحليم ، وعمرو جاهلٌ وسفيه ، وكذلك تقول : زيد أسود ودميم ، وعمرو أبيض وجميل ، فيكون ذلك صفة ونعتاً لهما ، وأما النعت فلا يكاد يطلق إلا فيما يزول ولا يتبدل كالطول والقصر والسواد والبياض ، ونحوهما من الأمور اللازمة] .

وأما النعت والصفة ، فإن الصفة أعمّ والنعت أخص ، وهذا من الناحية المعنوية بغض النظر عن الصناعة النحوية ، فإن قولك : زيدٌ عاقلٌ ، مبتدأ وخبر ، والخبر في الأساس وصف للمبتدأ ، و : عمرو جاهلٌ ، أيضاً مبتدأ وخبر ، وجاهل وصف لعمرو وهو في نفس الوقت خبر لأن الخبر في الأساس وصف للمبتدأ .

وقولك : « جاء محمد المجتهد » جاء : فعل ماضٍ ، ومحمد : فاعل ، والمجتهد : صفة .

و : « جاء محمد الطويل » جاء : فعل ماضٍ ، ومحمد : فاعل ، والطويل : صفة لمحمد . ولكن الطويل يزيد على وصفه لمحمد أنه نعت له وكأنك تنعته لمن يسألك عنه فتقول : إن فيه علامة فارقة وهي الطول ملازمة له . وهي أيضاً صفة له باعتبار أن الصفة يدخل فيها الأمر اللازم وغير اللازم .

فالصفة تفيد العموم من هنا ، فإنها تشمل الوصف اللازم كالطول والقصر ، وغير اللازم كالعقل والاجتهاد .

ولكن النعت لا يشمل ما لا يلزم وما يزول ، فهو وصف خاص لازم لا يتغير ولا يتبدل ، بخلاف الصفة والأوصاف فإنها أمور عارضة ، فالعقل قد يزول والاجتهاد قد يتحول إلى نقيضه ، ولكن النعت شيء ثابت لا يتحول ولا يتبدل فالطول لا يكون عارضاً بحيث يتقزم صاحبه ، والسواد لا يتحول بل هو صفة راسخة في صاحبها تميزه ، وتكون نعتاً له وسمة فارقة .

وإنما قلت : بعيداً عن الصناعة النحوية ، لأنك قد تقول في النحو : جاء زيد المثابر . فتعرب المثابر صفة لزيد ، وقد تقول : هي نعت له ، كل ذلك جائز .

أما في تجريد الكلام وفي التفسير الدقيق له فإن لكل لفظة منها معنى تعبر عنه ، نعم لكل لفظة منها خاصية تميز بها عن صاحبها في بعض معانيها ، وإن كانا قد يشتركان في البعض الآخر .

فالصفة والنعت يشتركان من حيث أنّ الصفة أعمّ ، فهي تشمل النعت ، وأما النعت فهو أخصّ حيث لا يتجاوز محله .

فقولك : زيدٌ أسودٌ ودميم ، فالخبر أسود هنا وصف لزيد ، وفي نفس الوقت هو نعت له يميزه .

أما قولك : زيدٌ عاقل وكريم ، فإنّ الخبر هنا وصف لزيد ، ولكنه لا يتجاوزه إلى النعت .

فالصفة أعمّ من النعت ، والنعت أخصّ . .

قوله : [وأما النعت فلا يكاد يطلق^(١) إلا فيما لا يزول

(١) فلا يكاد يطلق : لا بمعنى النفي والعدم ، يكاد : بمعنى يقرب والضمير في =

ولا يتبدل كالطول والقصر والسواد والبياض ، ونحوهما من الأمور اللازمة] .

كأن الإمام الخطابي - رحمه الله - يقطع بأن النعت مقصور على الشيء الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل كالطول والقصر ، والسواد والبياض ، وغيره من الخلق الثابت ذلك أنه عَبَّرَ بالقصر الذي يفيد التخصيص ، وطريق القصر النفي والاستثناء ، فقوله : لا يكاد بمعنى لا يقرب (ولا) نافية بمعنى (ما) ، ومعنى الكلام : قصر عدم قرب الإطلاق ، إلا فيما لا يزول ولا يتبدل ، فكأنه قطع بأن النعت مقصور على الشيء الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل كالطول والقصر والسواد والبياض وغيره من الخلق الثابت ، وهو من باب قصر الصفة على الموصوف قصر وصف عدم قرب الإطلاق إلا في الذي لا يزول ولا يتبدل ، فكأن الإمام الخطابي رحمه الله يحذر من إطلاق وصف النعت أو مجرد من إطلاق هذا الوصف أي [النعت] على غير ما يزول أو يتبدل .

وكذلك يشدد على مجرد التفكير في إطلاق هذا الوصف في غير ما يزول أو يتبدل ، فكيف بمباشرته ! ، وكأن النعت مقصور على ما لا يزول ولا يتبدل ، ولا يصح إطلاق هذا الوصف على غير ما لا يزول ولا يتبدل نهائياً فهو أمر مقطوع به ومبتوت فيه . .

[وأما القائل لصاحبه : اقعده واجلس ، فقد حكى لنا عن النضر بن شُمَيْل أنه دخل على المأمون عند مقدمه مرو ، فمثل بين = يكاد يعود على النعت ؛ عدم قرب إطلاق وصف النعت إلا فيما لا يزول ولا يتبدل ، أي : عدم قرب إطلاق وصف النعت إلا في الذي لا يزول ولا يتبدل . ا - هـ .

يديه وسلم ، فقال له المأمون : اجلس : فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا بمضطجع فأجلس ، قال : فكيف تقول ؟ قال : قل : اقعد ، فأمر له بجائزة .

قلت : وبيان ما قاله النضر بن شميل^(١) إنما يصحّ إذا اعتبرت إحدى الصفتين بالأخرى عند المقابلة ، فتقول : القيام والعود ، كما تقول : الحركة والسكون ، ولا نسمعهم يقولون : القيام والجلوس . وإنما يقال : قعد الرجل عن قيام ، وجلس عن ضجعة واستلقاء ، ونحو ذلك] .

وأصل القضية في الحديث عن هذه الألفاظ المتقاربة :

على أننا قبل أن نسترسل في هذه الفروق فإني أري أن أقف عند نقطة لماذا أفاض الإمام الخطابي رحمه الله في هذه الفروق بين الألفاظ المتقاربة في المعاني ؟ فأقول : إن الإمام قصد بكلامه الردّ على من في نفوسهم شكّ أو تردّد في استخدام القرآن الكريم لبعض العبارات ، وأنها موهمة للترادف ، أو أنها توهم الترادف ، وليست هي بمترادفة . .

فما دام أن هذا هو أصل القضية ، والقرآن جاء باللغة العربية ، فوجب تفسيره باللغة العربية ، لأن اللغة وجدت قبل نزول القرآن ،

(١) النضر بن شميل بن خرشة بن كلثوم التميمي البصري الأصل أبو الحسن ، أخذ عن الخليل والعرب ، وأقام بالبادية أربعين سنة ، وكان أحد الأعلام ، وله من رواية الأثر والسنن والأخبار منزلة ، وهو أول من أظهر السنة « بمرؤ » وولي قضاءها ، وله مصنفات مات ٢٠٤ هـ . بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي - الجزء الثاني - الطبعة الأولى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ص ٣١٧ .

والقرآن نزل بلسان عربي مبين وقد أثر عن حبر الأمة وترجمان القرآن قوله : « الشعر ديوان العرب ، فإذا أشكل عليكم شيء من كتاب الله فالتمسوه في الشعر » .

فمعنى ذلك أن اللغة العربية وأهلها ، هم أقدر الناس على تفسير كلام الله تعالى ، فما دام أنهم أقدر الناس على تفسير كلام الله ، فقولهم حجة في هذا الباب ، وبالخصوص في العبارات التي توهم الترادف ، فالإمام لم يقصد بلفظة « اقعده واجلس » هي هي في حد ذاتها ، والمقام مقام حديث عن إعجاز القرآن الكريم ، وإنما أراد أن يستشهد بأن العرب قد فطنوا إلى مثل تلك العبارات التي توهم الترادف للنظر نظرة عجلية ، فمن باب أولى أن يفطنوا إلى ما ورد في القرآن الكريم ، بل على جهة القطع واليقين ، بل ما ورد فيه من عبارات توهم الترادف ، هي في الحقيقة ليست بمترادفة ، بل بينها فروق دقيقة ، يفطن إليها من خبر أساليب العرب في لغتهم ، ووصل إلى الدقائق التي تحويها هذه اللغة . . ، وقد ورد لفظ القعود في القرآن الكريم ، قال تعالى عن المنافقين : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لِأَعْدُو لَهُ عُدَّةٌ وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ التوبة (٤٦) وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران (١٩١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضَّرَّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يونس (١٢) .

والنضر بن شُميل من فصحاء العرب وساداتهم ، لم يستسغ

ذلك الخطأ واللحن من الخليفة المأمون حتى قال : يا أمير المؤمنين ، ما أنا بمضطجع ، فأجلس ! قال : فكيف تقول : قال : قل اقعد . .

ولا تنس بأن المجلس مجلس خليفة ، وهو يغصن بالعلماء وأرباب اللغة ، وأئمة البيان ، ولو كان النضر مخطئاً أو متقولاً لوجد من يردّ عليه ، كيف تُخطئَ أمير المؤمنين ، ومن تكون !؟

فمن أجل إثبات إعجاز القرآن ، والردّ على من يساوره شك أو تردّد ، أو من في قلبه مرض ، ساق الإمام الخطابي - رحمه الله - هذا المثال ليقول لنا بأن أرباب الفصاحة والبيان ، وهم العرب الفصحاء ، لم يكونوا ليسكتوا أو يغيب عنهم مثل هذا التقارب في الألفاظ ، وأن لكل لفظة خاصية تتميز بها في بعض معانيها ، وإن كانا يشتركان في بعضها ؛ فالنضر بن شميل احتج ، ولم يُمرّر هذه العبارة ، ولم يستسغها بل قال ما أنا بمضطجع حتى أجلس يا أمير المؤمنين ، فكيف يمكن بعد ذلك أن يتسرّب الظن بأن العرب الفصحاء الخالص يمكن أن يُسوِّغوا مثل هذا التجاوز ، وكيف يمكن أن يسوِّغ العرب من قريش وهم أصحاب الفصاحة واللسن هذا التجاوز في القرآن لو كان هناك تجاوز؟! ، وكيف يمكن أن يسكتوا عن الترادف لو كان هناك ترادف؟! ، وكيف يمكن أن يغضوا الطرف عن شيء كهذا لو كان هناك ما يزعم المتخردون المرجفون ، وقريش لا تفتأ تبحث عن كل ما يمكن أن تتخذه ذريعة للنيل من القرآن ، ورسول القرآن ، لو كان الأمر كذلك لما سكتوا ولا انتهزوها فرصة للحطّ من القرآن ، والقول بأنه مكرور ، وفيه ترادف وحشو وخلط كثير . . الخ ، وقريش من أحرص الناس على التهوين من شأن القرآن ، فلو علموا

أنَّ مثل هذه الألفاظ المتقاربة في المعاني ، متساوية في إفادة بيان مراد الخطابي ، لاقتنصوها فرصة لإيذاء النبي ﷺ والانتقاص من قيمة القرآن الكريم ، وما أحوجهم إلى مثل هذا . .

فما دام أنَّ النضر بن شُميل فيما بعد عصور الاحتجاج استهجن مثل هذا الكلام من المأمون واشمأز منه ، فحري بمن عاش قبل هذا العصر من العرب الخُلص الأَقحاح الذين هم أرباب الفصاحة والبيان أن ينفروا ويشمئزوا من مثل هذا لو وَرَدَ في عامة كلامهم فما بالك إذا ورد في القرآن ، وهم يتحيتون الفرص لمثل هذا الخلط ، ليتخذوه ذريعة للنيل من القرآن ، والحطِّ من شأنه وإسقاطه ، لا سيما وهو يقرعهم صباح مساء ، ويتهمهم بالعجز والقصور ، ويسفه آلهتهم وأحلامهم ، ويسخر من آلهتهم ومعتقداتهم ، إنها فرصة لا تعوّض للغض من الرسالة وصاحبها ، ولكن هيهات وأوهى قرنه الوعل .

نخلص من هذا كله إلى أنَّ القرآن الكريم معجز في كلّ أحواله ، وأنَّ ما جاء فيه من ألفاظ متقاربة في المعاني ، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ، فإن الأمر ليس كذلك لأن لكل لفظة خاصية تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في البعض الآخر ، كل لفظة تعبر عن معنى ، وتخدم الغرض الذي سيقت من أجله ، ولولا ذلك لما كان هناك بلاغة ، ولما سكت العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة واللسان . .

[قلت : وبيان ما قاله النضر بن شُميل إنما يصحّ إذا اعتبرت إحدى الصفتين بالأخرى عند المقابلة ، فتقول : القيام والقعود ، كما تقول : الحركة والسكون ، ولا نسمعهم يقولون القيام والجلوس ،

وإنما يقال : قعد الرجل عن قيام ، وجلس عن ضجعة واستلقاء ، ونحو ذلك [١] .

يريد أن يقول الإمام الخطابي : إنَّ الفرق بين هذه الألفاظ والتي تبدوا للوهلة الأولى أنها متقاربة في المعاني ، حتى أشكلت على المأمون حتى قال للنضر : فكيف أقول ؟ قال : قل اقعد . فأمر له بجائزة ، وإنما يتضح الفرق ويبدو جلياً إذا اعتبرت إحدى الصفتين بالأخرى عند المقابلة ، فالقيام يقابله القعود ، والحركة يقابلها السكون ، والجلوس يقابله الضجعة والاستلقاء هذه الفروق الدقيقة تتضح عند المقابلة ، كما تقول : العمى والإبصار ، واليمين واليسار ، وهكذا يتضح الفرق بين استخدام هذه أو تلك عند المقابلة ، فإن لكل واحدة من الألفاظ خاصية وميزة وموضعها الأخص الأشكل بها في إفادة بيان مراد الخطاب ، وهذا ما يدركه ويعرفه علماء اللغة . . .

[وأما قولك : بلى ونعم ، فإن بلى جواب عن الاستفهام بحرف النفي ، كقول القائل : ألم تفعل كذا ؟ فيقول صاحبه : بلى ، كقوله عز وجل : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى ﴾ (٢) وأما نعم فهو جواب عن الاستفهام نحو هل ، كقوله سبحانه : ﴿ هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا : نعم ﴾ (٣) وقال الفراء : بلى لا يكون إلا جواباً عن مسألة يدخلها طرف من الجحد . وحكي عنه أنه قال : لو قالت

(١) بيان إعجاز القرآن للإمام الخطابي - تحقيق وتعليق محمد خلف الله وزغلول

سلام - ط دار المعارف بمصر - ٢٨ .

(٢) الأعراف (١٧٢) .

(٣) الأعراف (٤٤) .

الذرية عندما قيل لهم : ﴿ أَلست بربكم ﴾ : نعم ، بدل قولهم : بلى ، لكفروا كلهم] .

معنى كلام الخطابي رحمه الله : أن هناك فروقاً دقيقة تستفاد من استعمال لفظتي بلى ونعم ، فإن بلى جواب عن الاستفهام بحرف النفي كقول القائل : ألم تفعل كذا ، فتكون الإجابة : بلى ، هنا الاستفهام تقريرى ، والسائل يعرف الإجابة ، لكنه يريد من المخاطب أن يوافقه للحكم عليه بإقراره وكأنه يقول : « من فمك أدينك » مثل هذا قوله تعالى : ﴿ أَلستُ بربكم ﴾ فالهمزة هنا للاستفهام ، والاستفهام هنا تقريرى « وليس » فعل ماضٍ ناسخ^(١) وهو يفيد النفي فالهمزة همزة الاستفهام جاءت لِتُفِيدَ بمدخولها معنى النفي « ولست » تفيد النفي أيضاً ، ونفي النفي إثبات ، فكأن الحق عز وجل يقول : « أَلست بربكم » فالمعنى « نفي عدم كونه رباً لهم » ، وهذا يقتضى أنه رب لهم ، لأنه كما أوضحنا سابقاً نفي النفي إثبات ، فما دام انتفى عدم كونه رباً لهم ، فهذا يعني أنه رب لهم ..

وبتوضيح أكثر نمسك الآية ﴿ أَلست بربكم ﴾ ف : « لست بربكم » نفي كونه رباً لهم ثم جاء بالهمزة التي تفيد نفي هذا النفي « أَلست بربكم » نفت عدم كونه رباً لهم فأصبحت النتيجة أنه رب لهم ، ونفي النفي إثبات . . ماذا كان الجواب : بلى أي : أنت رب لنا .

(١) ليس : من أخوات كان فعل ماضٍ ناقص ترفع الاسم وتنصب الخبر وهي تفيد النفي على حد قولك « ليس زيدٌ في الدار » نفت وجود زيد في الدار .

وقال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ الزمر (٣٦) . نفى
عدم كونه كافياً عبده ، والجواب : (بَلَى) هو كاف عبده ، ﴿ أليس
الله بأحكم الحاكمين ﴾ نفى عدم كونه أحكم الحاكمين فثبت نقيضه ،
وهو أنه أحكم الحاكمين . ﴿ أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيي
الموتى ﴾ نفى عدم كونه قادراً على أن يحيي الموتى فثبت نقيضه ،
وهو أنه قادر على أن يحيي الموتى ، والجواب (بَلَى) هو قادر على
أن يحيي الموتى .

وقال جرير يمدح الخليفة عبد الملك بن مروان :

أَلَسْتُم خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونٌ رَاحَ
نفى عدم كونهم خير من ركب المطايا ، فثبت نقيضه وهو أنهم
خير من ركب المطايا ، ولذلك كان الرد من عبد الملك : (بَلَى)
نحن كذلك ، وما زلنا كذلك .

وأما (نعم) فهو جواب عن الاستفهام بـ (هل) كقوله سبحانه
وتعالى : ﴿ هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم ﴾ هنا
الاستفهام تقريرى ولكن جاء بهل ، قال تعالى : ﴿ ونادى أصحابُ
الحِثَّةِ أصحاب النار أن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حقاً فهل وجدتم
ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم . فأذن مؤذّن بينهم أن لعنة الله على
الظالمين * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
كَافِرُونَ ﴾ والاستفهام هنا خرج عن أصله إلى (التقرير)^(١) أي :

(١) للتقرير معيان : يجيء بمعنى التحقيق والتثبيت مثل : ﴿ ألم نشرح لك
صدرك ﴾ ؟ أي : شرحناه لك بلا ريب ، فهو إنشاء لفظاً وخبر معنى ،
ولا يستدعي جواباً ، ويجيء التقرير بمعنى طلب الإقرار مثل : ﴿ أَلَسْتُ
بربكم ﴾ ؟ فهو إنشاء لفظاً ومعنى ويستدعي جواباً ، والتقرير أحد المعاني
التي يخرج إليها الاستفهام عن حقيقته . فالاستفهام الحقيقي يكون المتكلم =

نحن قد وجدنا ما وعد ربنا حقاً ، فما بالكم أنتم ؟ والجواب :
 (نعم) قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فيكون في هذا الاستفهام من
 التوبيخ والتقريع ما فيه ، ويزيدهم حسرة وندامة ، وكذلك قرع
 رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى : « يا أبا جهل بن هشام ،
 يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - هل وجدتم
 ما وعد ربكم حقاً ، فإنني وجدت ما وعدني ربي حقاً ؟ » قال سيدنا
 عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله تخاطب قوماً قد
 جئفوا ! فقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ما أنتم أسمع لما أقول
 منهم ، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا » .

[وقال الفراء : بلى لا يكون إلا جواباً عن مسألة يدخلها طرف
 من الجحد ، وحكي عنه أنه قال : لو قالت الذرية عندما قيل لهم :
 ﴿ ألسنتُ بربكم ﴾ : نعم بدل قولهم : بلى ، لكفروا كلهم] .

ونلاحظ أن مقالة الفراء جاءت بأسلوب القصر وطريقة النفي
 والاستثناء ، من باب قصر الموصوف على الصفة : « لا يكون »
 والضمير يعود على « بلى » إلا جواباً عن مسألة يدخلها طرفٌ من
 الجحد ؛ لا يكون « بلى » إلا جواباً عن مسألة يدخلها طرفٌ من
 الجحد ، فكأن الفراء يقصر استعمال (بلى) على المسائل التي
 يكون فيها شيء من الجحد والنكران « ألسنتُ بربكم » لأن هناك من

= جاهلاً المسؤول عنه ، أما في التقرير فالمتكلم عالم به ، ولكن يريد من
 المخاطب أن يوافق لغرض من الأغراض كالحكم عليه بإقراره ، وكالتنويه
 بشأنه .

دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني - شرح محمد عبد المنعم
 خفاجي - طبعة ١٩٧٦ م - ص ١٤٩ .

كفر وجحد من الذرية فيما بعد ، قالوا : (بَلَى) .

فالاستفهام إما أن يكون حقيقياً ، أي يخرج على بابه ، ويكون السائل يجهل المسؤول عنه ، فهو يطلب جواباً نحو : هل زيد في الدار ؟ أليس زيد في الدار وهنا تكون الإجابة بالنفي أو الإيجاب ، فإما أن يكون الردّ : نعم زيد في الدار . أو : لا ليس زيد في الدار .

قد يخرج الاستفهام عن الحقيقة أو عن وجهه الأصلي إلى مسائل منها : التقرير ، وحينئذ يكون المتكلم يعلم عن المسؤول عنه ، ولا يجهله ، ولكنه يريد من المخاطب أن يوافق لغرض من الأغراض ، كالحكم عليه بإقراره ، ولا يتصور في قول الحق جلّت قدرته : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أن يكون الاستفهام خرج على بابه ، لأن الحق عز وجل حاشاه أن يكون غير عالم بما يسأل عنه ، أو أن يسأله عن شيء مجهول لديه ، فهو علام الغيوب ، فما دام أنه لا يتصور هذا ، فمعنى ذلك أن الاستفهام قد خرج على غير وجهه فهو (للتقرير) وهو حينئذ يريد من المخاطب أن يقرّ له والإقرار إنما يكون (ببلى) فلو قالت الذرية : (نعم) لكان الاستفهام قد فسر خطأ بأنه على وجه الحقيقة ، وحينئذ كأن السائل يطلب جواباً وهو يتساءل « أخبروني هل أنا لست رباً لكم » وهو يتساءل والكلام على النفي ، فقالوا بالإيجاب : ما دمت تسألنا عن ذلك فنحن نقول : « نعم لست رباً لنا » هذا مفهوم الإجابة (بنعم) أن الاستفهام على بابه ، وحينئذ تكون الذرية نفت كونه رباً لهم فكفروا جميعاً ، وهو معنى قول الفراء : « لو قالت الذرية عندما قيل لهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ : (نعم) بدل قولهم : (بَلَى) لكفروا كلهم » وهذا كفر

صراح ، وهو حتماً لم يقع ، وإنما كان الجواب (بَلَى)^(١) وفي الحديث عن النبي ﷺ قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كله ذرية ذراًها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال : « ألسن بربكم » قالوا : (بَلَى) شهدنا أن تقولوا يوم القيامة ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ .

[وأما من وعن فإتھما يفترقان في مواضع كقولك : أخذت منه مالاً ، وأخذت عنه علماً فإذا قلت : سمعت منه كلاماً ، أردت

(١) (بَلَى) : حرف جواب أصلي الألف ، وقال جماعة : الأصل (بل) والألف زائدة ، وتختص (بَلَى) بالنفي وتفيد إبطاله ، سواء أكان النفي مجرداً نحو : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي ﴾ أم مقروناً بالاستفهام حقيقياً كان نحو : « أليس زيد بقائم » ؟ فتقول : (بَلَى) ، أو تويخياً نحو ﴿ أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَنْ نَسْمَعَ سَرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نَسُوِّي بَنَانَهُ ﴾ أو تقريرياً نحو : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أجروا النفي مع التقرير مجرى النفي المجرد في ردّه (بيلي) ولذلك قال ابن عباس وغيره (كالفراء) : لو قالوا نعم لكفروا ، ووجهه أن نعم تصديق للمخبر بنفي أو إيجاب ويشكل عليهم أن (بَلَى) لا إيجاب بها عن الإيجاب ، وذلك متفق عليه ، ولكن وقع في كتب الحديث ما يقتضي أنها إيجاب بها الاستفهام المجرد ، ففي صحيح البخاري في كتاب الإيمان أنه ﷺ قال لأصحابه : « أَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رِيعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ » قالوا : (بَلَى) .

ويتدخل ابن هشام فيقول : وليس لهؤلاء أن يحتجوا بذلك لأنه قليل فلا يتخرج عليه التنزيل .

ثم يقول : واعلم أن تسمية الاستفهام في الآية تقريراً عبارة جماعة ومرادهم أنه تقرير بما بعد النفي . ١ - هـ .

انظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب - لابن هشام الأنصاري - الجزء الأول - ص ١٠٤ .

سماعه من فيه ، وإذا قلت : سمعت عنه حديثاً كان ذلك عن بلاغ ، وهذا على ظاهر الكلام وغالبه] .

يريد أن يقول الخطابي رحمه الله : إن هناك فروقاً دقيقة ، يلحظها الفطين الأرب ، ف « مِنْ وَعَنْ » قد يتوهم بعض من لا علم له بالفروق بين الألفاظ أنهما حرفا جر ، وأن كلاً منهما تؤدّي ما تؤدّيه الأخرى في إفادة بيان مراد الخطاب ، فهما مترادفتان وليس الأمر كذلك ، فأنت تقول : أخذت منه مالاً ، وأخذت عنه علماً ، فقولك : أخذت منه مالاً ، تعني أنك أخذت منه المال مباشرة وليس عن واسطة ، بخلاف قولك : أخذت عنه علماً ، فإن هذا يعني أن التلقي كان بواسطة ، ألا ترى أنك إذا قلت : سمعت منه كلاماً ، فإنك تقصد سماعه من فيه ، وإذا قلت : سمعت عنه حديثاً ، كان ذلك عن بلاغ وبواسطة بلغته إليك ، وهذا ما يفهم ويلمس في غالبية الاستعمال لهذين الحرفين .

ذكر ابن هشام الأنصاري في مغني اللبيب^(١) : ل (مِنْ) خمسة عشر وجهاً ومنها :

الابتداء والانتهاء ، نحو : أخذته من زيد ، فالأخذ ابتداءً من زيد وانتهى إليك ، وهو ما يناسب المثال الذي ساقه الخطابي هنا من قوله : « أخذت منه مالاً » فيناسبها : « الابتداء والانتهاء » أي : أن الأخذ أبتدى منه وانتهى إليك^(٢) .

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعراب - لمحمد بن هشام الأنصاري - الجزء

الثاني - دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي - ص ١٦ .

(٢) هذا وترد من بمعنى :

١ - ابتداء الغاية وهو الغالب عليها حتى ادعى جماعة أن سائر معانيها =

وأما « عن » فقد ذكر صاحب مغني اللبيب لها عشرة معانٍ ومنها :

المجاوزه ، نحو : سافرت عن البلد ، وهذا المعنى لم يذكر البصريون سواه ، وكأنهم لا يرون غيره ، وهو ما يمكن أن ينطبق على ما ساقه الخطابي رحمه الله من قوله : « سمعت عنه الحديث » كان ذلك عن بلاغ ، لأن معنى : « سمعت عنه حديثاً » المجاوزة مجاوزة السند ، فعندما تقول : سمعت عن عمرو عن زيد ، فمعنى ذلك أن زيداً صاحب الحديث نفسه ، وعمرو واسطة بينك وبينه ، فإذا قلت : « سمعت عنه حديثاً » وتعني زيداً ، فمعنى ذلك أنك تجاوزت الوسطة عمرواً إلى صاحب الحديث نفسه وهو زيد ، ولولا الوسطة لقلت : « سمعت الحديث زيد » وهذا لا يصح فجيء « بعن » للمجاوزه « سمعت عنه الحديث » أي : متجاوزاً عمرواً إلى زيد ، متجاوزاً الوسطة التي بلغني عنه الحديث « أي زيد » وهذا من أخص معاني (عن) وهي (المجاوزة) حتى جعلها البصريون المعنى الوحيد المقصور عليها ، فلم يذكروا سواه ، وبذا يكون قد اتضح أن لكل من لفظتي « من وعن » معنى خاص بها هو الأخص والأشكل بها في إفادة بيان مراد الخطاب ، وأن لكل منها خاصية

= راجعة إليه نحو : « إنه من سليمان » .

٢ - وتأتي للتبعيض نحو : ﴿ منهم من كَلِمَ الله ﴾ أي : بعضهم .

٣ - وتأتي للجنس نحو : ﴿ ما نَسَخْ من آية ﴾ أي : جنس آية .

٤ - وتأتي للتعليل نحو :

يُغْضِي حياءً وَيُغْضِي من مهابته فلا يكلم إلا حين يتسّم

أي : بسبب مهابته . الخ .

ذكره صاحب مغني اللبيب عن كتب الأعراب .

تتميز بها لا تقوم بها غيرها في إفادة بيان مراد الخطاب ، وإن كانا قد يشتركان في بعض المعاني كما في قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عبادة ﴾ فإن (عَن) هنا بمعنى (مِنْ) يعني هو سبحانه الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات . . (١)

[وقد يتعارفان في مواضع من الكلام ، مما يدخل في هذا الباب ، ما حدثني محمد بن سعدويه قال : حدثني محمد بن عبد الله بن الجنيد ، قال : حدثني محمد بن النضر بن مساور قال : حدثنا جعفر بن سليمان ، عن مالك بن دينار قال : جمعنا الحسن لعرض المصاحف أنا وأبا العالية الرياحي ، ونصر بن عاصم الليثي وعاصماً الجحدري ، فقال رجل : يا أبا العالية قول الله تعالى : ﴿ فويلٌ للمصلِّين الذين هُم عن صلاتِهِم ساهون ﴾ ما هذا السهو ؟ قال : الذي لا يدري عن كم ينصرف : عن شفع أو عن وتر ؟ فقال الحسن : مَهَ (٢) يا أبا العالية ليس هذا ، بل الذين سهوا عن ميقاتهم

(١) هذا ومن معاني (عن) :

١ - البدل نحو قوله تعالى : ﴿ وآتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ﴾ أي : بدل نفس وفي الحديث « صومي عن أمك » أي : بدلاً عنها .
٢ - الاستعلاء ، نحو قوله تعالى : ﴿ فمنْ بخلٍ فإِتماً يبخلُ عن نفسه ﴾ أي : على نفسه . ﴿ إني أحببتُ حبَّ الخير عن ذكرِ ربِّي ﴾ أي : على ذكر ربي .

٣ - التعليل نحو قوله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه ﴾ أي : لسبب موعدة وعدها إياه .

٤ - الاستعانة نحو : « رميت عن القوس » أي : مستعيناً رميت بالقوس .
مغني اللبيب - الجزء الأول - ص ١٢٩ .

(٢) مَهَ : كلمة تدل على الطلب بمعنى : (اكْفُفْ) وهي اسم فعل أمر . ومثلها (صَهَ) بمعنى : اسكت .

حتى تفوتهم . قال الحسن : ألا ترى قوله عز وجل : ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ ﴾ .
 وحدثناه أبو رجاء الغنوي ، حدثنا محمد بن الجهم السجزي ،
 حدثنا الهيثم بن خالد المنقري عن أبي بكر عكرمة عن جعفر بن سليمان
 عن مالك بن دينار نحوه . قلت : وإنما أُتِيَ أبو العالية في هذا حيث
 لم يُفَرَّق بين حرف (عَنْ وَفِي) فتنبه له الحسن فقال ألا ترى قوله :
 ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ ﴾ يؤيد أن السهو الذي هو الغلط في العدد إنما هو
 يعرض في الصلاة بعد ملابتها ، فلو كان هو المراد لقليل : « في
 صلاتهم ساهون » فلما قال : ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ ﴾ دلّ على أن المراد به
 الذهاب عن الوقت [.

ويواصل الإمام الخطّابي - رحمه الله - الحديث عن الفروق بين
 الألفاظ ، ويحللها تحليلاً فنياً جميلاً ، يكشف عن ذوق وبصر
 بمواطن الجمال في الكلام فيقول : « وقد يتعارفان » ولعله يقصد :
 وقد يتخالفان ، أو : يتنافران . وهو يعني لفظتي « عَنْ ، وفي » فقد
 انتهى الكلام عن الفرق بين لفظتي « مِنْ وَعَنْ » ونحن الآن في لفظتي
 (عَنْ وَفِي) والغريب في الأمر أنّ محققي الرسالة الدكتورين محمد
 خلف الله أحمد ، والدكتور محمد زغلول سلام ، لم يفتننا إلى مثل
 هذا الخطأ فقالا : في قول الإمام الخطّابي رحمه الله « وقد يتعارفان
 في مواضع من الكلام » قالوا في الهامش في نفس الصفحة من
 الرسالة : « لعلهما يتقاربان » أي : لعل الإمام الخطّابي قصد « أنهما
 يتقاربان » . وليس الأمر على ما ذكروا ، ولعل الصواب أن يكون فيما
 أرى والله أعلم أنهما قد يختلفان ، أو يتنافران أما أن يتفقا فلا . ذلك
 أنّ (عَنْ) ليست بمعنى (فِي) في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ
 صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ كما سنفصله بعد قليل في الحديث الذي ساقه

الإمام الخطّابي - رحمه الله - عن الحسن عن أبي العالية ، يقول
الإمام الخطّابي رحمه الله :

فقال : رجل مستفسراً يسأل أبا العالية عن قول الله تعالى :
﴿ فويل للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ الماعون (٥)
ما المقصود بالسهو في الآية ﴿ عن صلاتهم ساهون ﴾ ؟ فبماذا
أجاب أبو العالية ؟ قال : المقصود هو الذي لا يدري عن كم
ينصرف : عن شفع أو عن وتر ؟ يغلط في عدد ركعاته ، وهذا دليل
غفلته في صلاته ، وأنه لا إله عنها ، فقال : الحسن ليس الأمر
كذلك ، لقد أخطأت التفسير يا أبا العالية « مه » يا أبا العالية ليس
الكلام ما ذكرت بل هم الذين سهوا عن ميقاتها حتى تفوتهم ، أي :
غفلوا عن وقتها حتى تفوت ، وكما ثبت في الصحيحين أن رسول الله
ﷺ قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة
المنافق ، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام
فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » والمقصود الصلاة الوسطى
صلاة « العصر » ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا
إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾
النساء (١٤٢) . وفي الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه
قال : سألت رسول الله ﷺ عن ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾
قال : « هم الذين يؤخّرون الصلاة عن وقتها » (١) .

فاستدرك الحسن على أبي العالية مفسراً الآية بالمعنى الصحيح
الذي تقتضيه ، وأنهم الذين يغفلون عن وقت الصلاة حتى تفوتهم ،
وليسوا الذين يخالطهم السهو في عددها ، لا نصراف ذهن وخلافه ،

(١) ابن كثير - المجلد الرابع - ٥٥٤ .

فمعظم الناس يعرض لهم شيء من هذا ، وإنما وقع الحسن على هذا المعنى من خلال تلك الفروق الدقيقة بين الألفاظ ، فمعنى ﴿ عن صلاتهم ساهون ﴾ يخالف معنى « في صلاتهم ساهون » فتأمله . .

[ونظيراً هذا ما قاله القُتَيْبِيُّ في قوله تعالى : ﴿ ومن يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ زعم أنه من قوله : عشوت إلى النار أعشو : إذا نظرت إليها . فغلطوه في ذلك وقالوا : إنما معنى قوله : « ومن يُعرض عن ذكر الرحمن » ولم يفرق بين عشوت إلى الشيء وعشوت عنه - وهذا الباب عظيم الخطر ، وكثيراً ما يعرض فيه الغلط ، وقديماً عُنِيَ به العربيّ الصريح - فلم يحسن ترتيبه وتنزيله] .

ونظير هذا ، أي : نظير ما وقع فيه من الخلط لأبي العالية في قوله تعالى : ﴿ الذين هُم عن صلاتهم ساهون ﴾ الماعون (٥) . نظيره ومثيله ما وقع للقتيبي^(١) فقد خلط وغلط في تفسير (عن) في

(١) والقتيبيّ هو : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري من أئمة الأدب ، ومن المصنفين المكثرين ، ولد ببغداد ٢١٣ هـ وسكن الكوفة ، ثم ولي قضاء الدينور مدة فنسب إليها ، توفي ببغداد ٢٧٦ هـ . من كتبه : تأويل مختلف الحديث ، وأدب الكُتّاب ، والشعر والشعراء ، وعيون الأخبار ، ومشكل القرآن .

وردت ترجمته في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلّكان - تحقيق د . إحسان عباس - المجلد الثالث - دار صادر - ٤٢ .

وبغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاة - للسيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - المجلد الثاني - المكتبة العصرية بيروت - ص ٦٣ .
وشذرات الذهب في أخبار من ذهب - لابن العماد الحنبلي - منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت - الجزء الثاني - ص ١٦٩ . =

الآية ﴿ ومن يعيش عن ذكرِ الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ الزخرف (٣٦) ، فقد زعم أن « عن » هنا بمعنى « إلى » من قولهم « عشوت إلى النار أعشو إذا نظرت إليها » (١) .

= وانظر الأعلام - للزركلي - المجلد الرابع - ص ١٣٧ .
قال سيد قطب في قوله تعالى : ﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ الزخرف (٣٦) .
وقد قضت مشيئة الله في خلقه الإنسان ذلك ، واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه ، فيلزمه ، ويصبح له قرين سوء يوسوس له ، ويزين له السوء وهذا الشرط ، ومن أداته ، ويعيش : فعل الشرط ، ونقيض جوابه يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة ، التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب ، كما قضاه الله في علمه .
يعيش : يعرض عن ذكر الله = النتيجة : نقيض له شيطاناً فهو له قرين ملازم ، فبئس القرين ؛ والعشي : كلال البصر عن الرؤية ، والمراد هنا العماية والإعراض عن تذكّر الرحمن واستشعار وجوده ورقابته في الضمير ..

في ظلال القرآن - الطبعة العاشرة - المجلد الخامس - ص ١٣٨٩ .
(١) ورد في اللسان : عَشَا يَعْشُو : إذا أتى ناراً للضيافة ، وعشا إلى النار ، رآها ليلاً على بُعد فقصدتها مستضيئاً بها . قال الحطيئة :
مَتَى تَأْتِيهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدٍ
أَي : متى تأتته لا تبين ناره من ضعف بصرك ، وعشوت إلى النار أعشوت إليها عشواً : إذا استدلت عليها ببصر ضعيف ، وأما قوله تعالى : ﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن ﴾ . قال الفراء : معناه : « من يُعْرِضُ عن ذكر الرحمن » قال : ومن قرأ ﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن ﴾ فمعناه : مَنْ يَعْمَ عَشِيَّةً ، وقال القتيبي : معنى قوله : ﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن ﴾ أي : يُظْلَمُ بَصَرُهُ قال : وهذا قول أبي عبيدة ، ثم ذهب يردُّ قول الفراء ويقول : لم أرَ أحداً يُجيزُ عَشَوْتُ عن الشيء : أَعْرَضْتُ عنه ، إنما يقال : تَعَاشَيْتُ عن الشيء : أَي تَغَاوَلْتُ عنه كأني لم أره ، وكذلك تعاميت ، قال : وعشوت إلى النار ، أي : استدللت عليها ببصرٍ ضعيف . =

وعلى هذا فهو يفسر قوله تعالى : ﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمن ﴾ بمعنى : يعش إلى ذكر الرحمن وهذا خطأ فادح ، إذ كيف يتأتى أن من يقبل إلى ذكر الرحمن ، يقيض له شيطاناً يلزمه ، ولهذا فقد غلطوه في ذلك ، وردّوه إلى الصواب وقالوا : إن معناها « من يُعرض عن ذكر الرحمن » ، والذي أوقع القتيبي في هذا اللبس ، أنه لم يفتن إلى الفروق الدقيقة بين الألفاظ ، وظن بأن (عن وإلى) بمعنى واحد ، يقوم بعضها مقام بعض ما دام أنها حروف جر ، ولم يدرك بأن لكل لفظة معناها الأخصّ الأشكل بها في إفادة مراد الخطاب ..

وهذا الباب عظيم الخطر ، فهو عظيم الشأن ، نابه البرهان ، وكثيراً ما يعرض فيه الغلط ، وقديماً عني به العربي الصريح ، أي : العربي صليبة ، ومع ذلك وقع في اللبس والخطأ ، ولم يحسن ترتيبه وتنزيله ..

[حدثني عبد العزيز بن محمد المسكني ، قال : حدثني إسحاق بن إبراهيم قال : حدثني سويد ، حدثنا ابن المبارك عن عيسى بن عبد الرحمن قال : حدثني طلحة اليامي قال : حدثني عبد

قال الأزهري : أَغْفَلَ الْقُتَيْبِيُّ موضع الصواب ، واعترض مع غفلته على الفراء يُرَدُّ عليه ، فذكرت قوله لأبَيّن عُوَارَه فلا يغتر به الناظر في كتابه ، والعرب تقول : عشوت إلى النار أعشو عشواً ، أي : قصدته مهتدياً به ، وعشوت عنها أي : أعرضت عنها ، فيفرون بين إلى وعنّ موصليّن بالفعل .

لسان العرب - المجلد التاسع عشر - فصل العين - حرف الواو - ٢٨٧ .
وانظر كلام القتيبي هذا في كتابه : « تفسير غريب القرآن » ص ٣٩٨ .
بتحقيق السيد أحمد صقر . ط . دار الكتب العلمية .

الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب « أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال : علمني عملاً يدخلني الجنة ، فقال ﷺ : « أعتق النسمة وفك الرقبة » قال : أوليس واحداً؟ قال : « لا ، عتق النسمة : أن تنفرد بعقتها ، وفك الرقبة : أن تعين في ثمنها » . فتأمل كيف رتب الكلامين ، واقتضى من كل واحد منهما أخص البيانين ، فيما وضع له من المعنى ، وضمنه من المراد] .

ويتواصل الحديث حول الفروق الدقيقة بين الألفاظ ، من هذا أن أعرابياً سأل النبي ﷺ : يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة . فقال : له النبي ﷺ : « لئن كنت أقصرت الخطبة لقد عرضت المسألة : أعتق النسمة ، وفك الرقبة »^(١) فظن الأعرابي أن في الكلام ترادفاً وأن العتق والفك بمعنى واحد ، حتى قال متسائلاً « أوليس واحداً؟! حتى أزال له النبي ﷺ شيئاً من اللبس ، وأن هناك فرقاً بين اللفظتين ، وقدم ذكر الفاضل على المفضول « عتق النسمة على فك الرقبة » تدرج له بأعلى المراتب فبدأ بأفضلها من جهة الثواب والأجر ، ثم المفضول ، الأفضل فالأفضل ، فقال له :

(١) مسند الإمام أحمد - المجلد الرابع - المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بيروت - ٢٩٩ .

والنسمة والرقبة بمعنى واحد ، ولكن الفرق يبدو بين اللفظتين (أعتق وفك) حتى توهم الأعرابي أنها من باب الترادف . قال تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ وما أدراك ما العقبة ﴿ فك الرقبة ﴾ * أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴿ البلد (١١ - ١٤) ، وفي الحديث : « من أعتق رقبة مؤمنة فهي فكاكه من النار » .

والأعراب من العرب : سكان البادية خاصة ، يتبعون مساقط الغيث ، ومنابت الكلاء . الواحد أعرابي .

المعجم الوسيط - الجزء الثاني - الطبعة الثانية - ٥٩ .

عتق النسمة : أن تنفرد بعقتها ، أما فك الرقبة فهو أن تعين في ثمنها ، فتأمل كيف رتب الكلامين متدرّجاً بالأفضل ثم المفضول ، واقتضى من كل واحد منهما أحصّ البيانين ، واضعاً كلّ لفظة في موضعها الأحصّ الأشكل بها في إفادة بيان مراد الخطاب . وهكذا زال اللبس واتضح الأمر .

[وحدثني عبد الله بن أسباط عن شيوخه قال : جمع هارون الرشيد سيويه والكسائي ، فألقى سيويه على الكسائي مسألة فقال : هل يجوز قول القائل : « كاد الزنبرُ يكون العقربَ ، فكأنه إيّاها أو كأنها إيّاه ؟ » فجوزه الكسائي على معنى كأنه هي أو كأنها هو ، وأباه سيويه ، فأحضر الرشيد جماعة من الأعراب الفصحاء كانوا مقيمين بالباب ، وسألهم عنها بحضرتهما ، فصوّبوا قول سيويه ، ولم يجوزوا ما قاله الكسائي ، قيل : وذلك أن حرف « إيّا » إنما يستعمل في موضع النصب ، وهي هنا في موضع الرفع فلم يجز . ومثل هذا كثير واستقصاؤه يطول] .

ويسوق الإمام الخطابي هذه القصة بين سيويه والكسائي^(١)

(١) وتروى القصة على تخريجات شتى ، ومنهم من يقول بأن القصة كانت بحضور يحيى وجعفر البرمكي وأن يحيى قال : قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن يحكم بينكما ، فقال له الكسائي : هذه العرب ببابك فيحضرون ويسألون ، فقال يحيى وجعفر : أنصفت ، فأحضرُوا فوافقوا الكسائي فاستكان سيويه ، فأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم ، فخرج سيويه إلى فارس فمات بها كمدأ ، ويقال : إن العرب قد أرشوا ، أو أنهم علموا منزلة الكسائي عند الرشيد ، فتحفظوا من جهته ، ويقال : « إنهم إنما قالوا القول قول الكسائي ولم ينطقوا بالنصب » ، وأن سيويه قال ليحيى مُرْهُمُ أن ينطقوا بذلك فإن ألسنتهم لا تطاوعهم .

مغني اللبيب - الجزء الأول - ٨٠ .

وهما من أئمة اللغة ، وهو يقصد بذلك أنهم كانوا يتهيبون أن يضعوا لفظاً في غير موضعه ، كما يُفَرِّقُونَ من اللحن ويشمئزون منه ولا يستسيغونه بحال ، ولم يكن يُعْرَبُ عنهم في ذلك منه شيء ، هذا الكسائي وهو إمام من أئمة اللغة ، ومثله سيبويه اجتمعاً عند الرشيد ، فألقى سيبويه على الكسائي مسألة في النحو : « هل يجوز قول القائل : كاد الزنبور يكون العقرب . فكأنه إيّاها وكأنها إيّاه »

= هذه هي المسألة المعروفة بالزنبورية ، والزنبور : ذباب لساع كالزنبورة .

والكسائي : علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان الإمام أبو الحسن الكسائي من ولد بهمن بن فيروز مولى بني أسد ؛ إمام الكوفيين في النحو واللغة ، وأحد القراء السبعة ، استوطن ببغداد ، وكان يُعَلِّمُ بها الرشيد ثم الأمين مات بالرّي هو ومحمد بن الحسن في يوم واحد ، وكانا خرجا مع الرشيد فقال : دفنت الفقه والنحو في يوم واحد ١٩٢ هـ .

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الجزء الثاني - الطبعة الأولى - ١٦٢ .

وسيبويه : عمرو بن عثمان بن قنبر إمام البصريين (أبو بشر) . وسيبويه بالفارسية : رائحة التفاح لقب به لأن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان ، وقيل : من يلقاه لا يزال يشم منه رائحة الطيب ، فسُمِّيَ بذلك ، وكان شاباً جميلاً ظريفاً وهو مولى لبني الحارث بن كعب ، وكان في لسانه حُبْسة ، وقلمه أبلغ من لسانه . وكان المبرد يقول لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه : « هل ركبت البحر ! تعظيماً واستصعاباً لما فيه » ولم تطل مدة سيبويه بعد مناظرة الكسائي ، فمات بشيراز غماً ١٨٠ هـ وعمره اثنتان وثلاثون سنة على اختلاف .

(بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - للسيوطي - الجزء الثاني - ص ٢٢٩) .

وقد وقعت مناظرة بين الكسائي واليزيدي وظلّم فيها الكسائي كما ظلّم سيبويه ، فسبحان الله فكما تدين تدان هذا حال هذه الدنيا . .

فجوز الكسائي ذلك وهذا لحن ، لأن كأن تنصب الاسم وترفع الخبر ، والهاء الضمير اسمها منصوب ، وإياها الخبر وحقه الرفع ، ولكن جاء هنا بضمير من ضمائر النصب المنفصلة وهو « إِيَّا » ومن هنا رفض سيبويه ذلك حيث الصواب الإتيان بضمير من ضمائر الرفع المنفصلة فيكون الكلام فكأنه هي ، أو كأنها هو ، فأحضر الرشيد جماعة من الأعراب الفصحاء كانوا مقيمين بالباب ، وسألهم عن المسألة فصوبوا قول سيبويه لأن السليقة العربية والذوق الفصيح يأباه ، أي : ما قاله الكسائي وجوزه .

ومن هنا ندرك أن العرب الفصحاء الخالص لم يكونوا ليجوزوا اللحن ، ولم يكونوا ليتساهلوا فيه إذا ما رأوا كلمة عوارٍ أن يرفضوها ويشمئزوا منها ، وأن يقفوا عند الفصيح وأن يضعوا كل لفظة في موضعها الأخص الأشكل بها في إفادة بيان مراد الخطاب . .

[قلت : ومن ها هنا تهيب كثير من السلف تفسير القرآن ، وتركوا القول فيه حذراً أن يزلوا^(١) فيذهبوا عن المراد ، وإن كانوا

(١) الزلل : الخطأ من « زَلَّ » في طين أو مَنَطِيٍّ ، يَزُلُّ بالكسر ﴿ وَالْمَزَلَّةُ ﴾ بفتح الزاي وكسرها : المكان الدَّحْضُ وهو موضع الزلل . (مختار الصحاح ص ١١٥) .

ومن شروط المفسر : صحة الاعتقاد ، والتجرد عن الهوى ، وأن يبدأ بتفسير القرآن بالقرآن ثم السنة ومن شروطه : العلم باللغة العربية وفروعها ، قال مجاهد : « لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب » وهذا يشمل علم النحو والصرف الذي تعرف به أبنية الكلمة ، ثم من ناحية وجوه تحسين الكلام وهي علوم البلاغة « المعاني والبيان والبديع » وإنما يدرك الإعجاز بهذه العلوم مع دقة الفهم في ترجيح معنى على آخر . (مباحث في علوم القرآن - مناع القطان) .

علماء باللسان ، فقهاء في الدين ، فكان الأصمعي - وهو إمام أهل اللغة - لا يفسر شيئاً من غريب القرآن . وحكي عنه أنه سئل عن قوله سبحانه : ﴿ قد شغفها حُبّاً ﴾ فسكت وقال : هذا في القرآن ، ثم ذكر قولاً لبعض العرب في جارية لقوم أرادوا بيعها : أتبيعونها وهي لكم شفاف؟! ولم يزد على ذلك ، أو نحو هذا الكلام] .

يقول الإمام الخطابي رحمه الله : ومن أجل هذه الفروق بين الألفاظ والتي يحسب كثير من الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ، ومن أجل هذه الفروق الدقيقة بين الألفاظ ، وخشية الوقوع في اللبس والخطأ ، تهيب كثير من السلف رحمهم الله الإقدام على تفسير القرآن ، وعلموا بأن الإقدام على الغوص في هذا البحر العميق ضرب من المخاطرة ، فتحفظوا من ذلك ورعاً وزهداً بأن يذهب بهم عن المعنى المراد فيقعوا في الزلل ، ويذهبوا عن المقصود بمراد الخطاب ، وإن كانوا علماء باللسان - أي : بعلوم اللغة - فقهاء في الدين لأن من يتصدى لتفسير القرآن ينبغي عليه أن يكون محيطاً بعلوم اللغة واللسان العربي حيث نزل القرآن بلسان عربي مبين ، وينبغي أيضاً أن يكون ملماً بعلوم الشريعة ، فكان الأصمعي وهو إمام من أئمة اللغة ، لا يتجاسر أن يفسر شيئاً من غريب القرآن .

وحكي عن الأصمعي أنه سئل عن قوله سبحانه : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً ﴾ فسكت ولم ينبث ببنت شفة تهيباً وأدباً مع كلام الله تعالى ، وقال هذا في القرآن ، لا يمكن أن أجرؤ على تفسيره والغوص فيه ، خشية أن يذهب به عن المعنى المراد ، ثم عدل عن تفسير الآية إلى

قول بعض العرب في جارية أرادوا بيعها : « أتبيعونها وهي لكم شفاف ؟! »

فهو لم ينصرف عن الإجابة وتقريب المعنى ، ولكن دون الاجترار على كتاب الله ، فذاك أمر لا يمكن الإقدام عليه ، والأصمعي هو من هو في العربية ، والمعرفة بأسرار الكلام ، والفروق الدقيقة بين الألفاظ إلا أنه لم يبح لنفسه الجراءة على كتاب الله على حد قول بعض السلف « أيّ أرض تُقْلِنِي وأي سماء تُظْلِنِي إن قلت في حديث رسول الله ﷺ بما لا أعلم » فكانوا يتورعون زهداً وورعاً عن التجري على كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ، وهم من هم في علمهم وإحاطتهم بدقائق اللغة وأسرارها وأوضاع الكلمات ، وكانوا قريبي عهد بعصور الاحتجاج ، لكنهم يخشون الزلل وأن يقولوا في كتاب الله فيخطئوا . من هنا تهيّبوا واحتاطوا لأنهم يعرفون ثراء هذه اللغة وقدرتها على الاتساع والمرونة لتستوعب الكثير من المعاني والكثير من الألفاظ ، وأن لكل لفظة خاصية تتميز بها في إفادة بيان مراد الخطاب ، وأنه ينبغي وضعها في مكانها الأليق بها والأخص والأشكل بها في إفادة بيان مراد الخطاب .

وأما قوله تعالى : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ فالآية من سورة يوسف هكذا : قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره

لِيُسْجَنَ وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّاعِرِينَ ﴿ يوسف (٣٠ - ٣٢) .

﴿ وقال نسوة في المدينة ﴾ والنسوة : جمع قلة ، وكنّ - على ما نقل - خمس نسوة : امرأة خبازة ، وساقية ، وسجّانة ، وبوابة ، وصاحب دوابّه ، والمدينة هي مصر ، ومعنى : ﴿ في المدينة ﴾ أنهم أشاعوا هذا الحبّ في المدينة ، وأن امرأة العزيز تراود فتاها ، وفي إضافتها للعزيز مبالغة في التشنيع ، لأن النفوس أميلُ لسماع أخبار ذوي الأخطار وما يجري لهن ، وَعَبَّرَ^(١) بتراود ، وهو المضارع الدال على أنه صار ذلك سجية لها تخادعه دائماً عن نفسه ، كما تقول : زيد يعطي ويمنع ، ثم نبهن على علة المراودة وهي كونها قد شغفها حُبّاً . أي : بلغ حُبُّهُ شغافَ قلبها ، والشغاف : حجاب القلب ، وقيل : سويداؤه ، مما يدل على فرط هذا الحب وأنه كان عظيماً حتى أنه مرّق الشغاف وبلغ الحجاب ، فهو حب جسيم لا يبارحها .

فَأَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطَحَّالَهَا

كلّ ذلك يفيد تنكير كلمة « حُبّاً » فيدل على نفوذه واتساعه وتغلغله ، وأنه لا يزال يلح عليها وقد استحکم في قلبها وفؤادها وأنها مستعبدة لهذا الحبّ .

والشغف^(٢) : تأثير الحب ، فالحب قد شقّ شغاف قلبها ،

(١) البحر المحيط - لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي الغرناطي - الطبعة الثانية - المجلد الخامس - ص ٣٠٠ .

(٢) عناية القاضي وكفاية الرازي - الشهاب على البيضاوي - الجزء الخامس - ص ١٧٣ .

وانتصب « حُبّاً » على التمييز المنقول من الفاعل .

الأصمعي : عبد الملك بن قُريب بن عبد الملك بن علي بن أصمغ بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان الباهلي ، أبو سعيد =

وهو حجابها ، ووصل إلى فؤادها فهي ذليلة أسيرة لحبها ، ومن هنا فإن امرأة العزيز كانت تحب يوسف وهي ولهة به ، حتى جمعت النسوة لتعبر لهن عن عذرها في هذا الحب وتلك المراودة ، ﴿ فأرسلت إليهم وأعدت لهن متكأً * وآت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ ومعلوم أن مثل هذا المجلس لا بد فيه من طعام وشراب ، فيكون في جملة الطعام ما يقطع بالسكاكين ، وقالت : أخرج إليهن ، فخرج عليهن ، ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ : أعظمه ودهشن برؤية ذلك الجمال الفائق والحسن الرائق .

كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ جرحنها كما تقول كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، والتضعيف للتكثير ، ذهبن بما رأين من جمال يوسف فكأنهن غبن عن حسنهن ﴿ وقلن حاشَ الله ﴾ تنزيهاً لله ﴿ ما هذا بشراً ﴾ ، لأن هذا الحسن غريب عن البشر وصورة الإنسان ، فهو ملكٌ كريم ، لأن المركوز في الطباع حُسنُ الملك .

= الأصمعيّ البصريّ اللغويّ ، أحد أئمة اللغة والغريب والأخبار والملح والتّوادر ، روى عن أبي عمرو بن العلاء .

قال عمر بن شبّة : سمعته يقول : حفظت ستة عشر ألف أرجوزة .
وقال أبو داود : صدوق ، وكان يتقي أن يُفسّر الحديث كما يتقي أن يفسر القرآن ، وكان بخيلاً ويجمع أحاديث البخلاء . وكان من أهل السُّنّة ولا يُتقي إلا فيما أجمع عليه علماء اللغة ويقف عما ينفردون عنه ؟ ولا يجيز إلا أفصح اللغات ، وله العديد من المصنفات روى له أبو داود والترمذي . مات سنة ست عشرة ومائتين عن ثمان وثمانين سنة .
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - للسيوطي - المجلد الثاني -
ص ١١٢ - ١١٣ .

وقيل : ﴿ أَكْبَرَنَّهُ ﴾ . بمعنى حِضْنٍ من أكبرت المرأة إذا حاضت ، لأنها تدخل الكبر بالحيض .

يقول أبو الطيب في مدح الحسين بن إسحاق التنوخي :
خَفِ اللهُ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالِ بِبُرْقِعٍ فَإِنْ لُحَّتْ حَاضَتْ فِي الْحُدُورِ الْعَوَاتِقُ
ومعنى قول الأصمعي قريب من هذا ، أي : أتبيعونها؟!
وحبكم قد خالط شغاف قلبها : شق حجاب القلب حتى بلغ فؤادها ،
فكيف تسخو نفوسكم ببيعها ، وكيف يليق بكم مثل هذا الفعل؟!
والاستفهام إنكاري كيف تقدمون على هذه الفعلة الشنعاء أتبيعونها
وهي لكم شغاف؟!

[قلت : ومن ها هنا تهيب كثير من السلف تفسير القرآن ،
وتركوا القول فيه : حذراً أن يزلوا فيذهبوا عن المراد ، وإن كانوا
علماء باللسان ، فقهاء في الدين ، فكان الأصمعي - وهو إمام أهل
اللغة - لا يفسر شيئاً من غريب القرآن . وحكي عنه أنه سئل عن قوله
سبحانه : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ فسكت وقال : هذا في القرآن ، ثم
ذكر قولاً لبعض العرب في جارية لقوم أرادوا بيعها : أتبيعونها وهي
لكم شغاف؟ ولم يزد على ذلك ، أو نحو هذا الكلام] .

والإمام الخطابي - رحمه الله - يقدم هذا الكلام بمثابة التهيئة
لاعتراضات سترد بعد قليل من بعض الذين سقمت أذواقهم وفاتهم
الحس الأدبي في تحسس بلاغة القرآن والوقوف على أسراره وسبر
أغواره ، فأخذوا يلصقون التهم جزافاً بالقرآن ، ويقولون فيه بما
لا يعلمون ، من هذه الاعتراضات قولهم : إنا لا نسلم لكم
ما ادعيتموه من أن العبارات الواقعة في القرآن إنما وقعت في أفصح

وجوه البيان ، وأحسنها لوجودنا أشياء بخلاف^(١) هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها ، ثم أخذوا يلوكون ألسنتهم بما هم أعجز عن إدراك كنهه ، فيرد عليهم الإمام الخطابي . بردود مقنعة يفند فيها آراءهم بأسلوب الحاذق البصير ، وهو يسوق هذه المقدمة من قوله :

[قلت : ومن ها هنا تهب كثير من السلف تفسير القرآن] الخ كلامه ، يسوق هذه المقدمة كالتوطئة لذلك ، فكأنه يريد أن يقول : بأن السلف الصالح ، وهم من هم في العلم بأمور الشريعة واللغة ، كانوا يتهيبون الإقدام على تفسير شيء من القرآن ، خشية أن يزلوا فيذهبوا عن المراد ، وليس ذلك عن قصور بهم ، أو عدم فهم منهم ، فقد كانوا علماء باللسان ، وفقهاء في الدين وتلك هي شروط المفسر ، لكنهم تأدباً مع كتاب الله ، وثقة منهم بمرونة هذه اللغة ، واتساعها لاستيعاب كثير من الألفاظ ، كانوا يفزعون أن يقدموا على شيء من القرآن ، ويقولون : هذا في القرآن ، فكيف نتجاسر عليه؟! ومع ذلك نجد من لم يدركوا سر هذه اللغة واتساعها ، وليس عندهم أثارة من علم ، يبيحون لأنفسهم الخوض في مثل هذا البحر العميق . .

فلم يأنف الإمام الخطابي - رحمه الله - من الرد على اعتراضاتهم ، ودفع تشككاتهم بالحجة والبرهان ، وهو يعلل إقدامه على مثل هذا الأمر مع جسامته وشرف موضوعه بأن رسول الله ﷺ حث على تعلم إعراب القرآن والتماس غرائبه وتفسيره ، والبحث عن معانيه .

(١) بيان إعجاز القرآن الكريم - للخطابي - ص ٣١ .

يقول الإمام الخطابي (١) :

[قلت : ولهذا ما حث ﷺ على تعلم إعراب القرآن ، وطلب معاني الغريب منه ، حدثنا إسماعيل بن محمد الصفار ، قال : حدثني محمد بن وهب الثقفي ، قال : حدثني محمد بن سهل العسكري قال : حدثني ابن أبي زائدة عن عبد الله بن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه] .

معنى الإعراب : الإفصاح ، من أعرب عن حجته إذا أفصح عنها .

قوله : ولهذا « ما » حث ﷺ . .

(ما) لها عدة استعمالات ، فتأتي « ما » تامة ، وتأتي ناقصة ، وتأتي زائدة . . .

و« ما » هنا إما أن نعربها زائدة ، فيكون الكلام : ولهذا حث ﷺ .

ويكون المعنى : ولأجل هذا حث ﷺ ، فيكون الجار والمجرور مفعولاً لأجله مقدماً متعلقاً بالفعل : حث .

وإما أن نعربها تامة ، ويكون معنى الكلام : ولهذا الشيء حث رسول الله ﷺ على تعلم إعراب القرآن ، وطلب معاني الغريب منه . ويكون الإعراب هكذا : ولهذا : مبتدأ ، و« ما » بمعنى الأمر أو الشيء بدل أو عطف بيان . حث : فعل ماض ، والفاعل رسول الله ﷺ .

(١) بيان إعجاز القرآن - للخطابي - ص ٣١ .

[قلت : فإذا عرفت هذه الأصول تبينت أن القوم إنما كاعوا^(١) وجبنوا عن معارضة^(٢) القرآن ، لما قد كان يؤودهم^(٣) ويتصعدهم^(٤) منه ، وقد كانوا بطباعهم يتبينون مواضع تلك الأمور ، ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العُهد^(٥) فيها ، ويعلمون أنهم لا يبلغون

(١) كاعٌ : هو الناكص على عقبيه ، الذي لا يمضي في عزمٍ وحزمٍ ، وفي الحديث : ما زالت قريش كاعة حتى مات أبو طالب ، فلما مات اجترؤوا عليه . أي : على رسول الله ﷺ .

والكعُ والكاعُ : الضعيف العاجز وزنه « فَعَلٌ » . اللسان .

(٢) المعارضة : عارض الشيء بالشيء مُعارضة : قَابَلَهُ ، وعارضت كتابي بكتابه : قَابَلْتَهُ ، وفلان يعارضني : أي يباريني . اللسان .

(٣) يؤودهم : الأود من آده الأمرُ أوداً : بلغ منه المجهود والمشقة ، وفي التنزيل : ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ قال أهل التفسير وأهل اللغة معاً : معناه : لا يثقله ، ولا يشق عليه ، من آده يؤوده أوداً . وأنشد :

إذا ما تنوءُ به آدَهَا

اللسان - ج ٤ .

ويؤودُهُمْ : بمعنى يثقلهم ويعجزهم ويشق عليهم .

اللسان - ج ٤ .

(٤) ويتصعدُهُمْ : صَعَدَ ، والصَّعُودُ : الطريق والجمع أصْعَدَةٌ . والصَّعُودُ ، والصَّعُودَاءُ ممدود العقبة الشاقة . قال تميم بن مقبل :

وَحَدَّثَهُ أَنْ السَّيْلَ ثِيَّئَةً صَعُودَاءَ تَدْعُو كُلَّ كَهْلٍ وَأَمْرَدَا
وأكمة صَعُودٌ وذات صَعْدَاءَ : يشتدُّ صَعُودُهَا على الراقي .

وفي التنزيل : ﴿ سَأَرْهَقُهُ صَعُوداً ﴾ أي : مشقة من العذاب ، وتَصَعَّدَنِي ذلك الأمرُ ، أي : شَقَّ عَلَيَّ ، وعلى هذا يكون يتصعدهم : أي : يشق عليهم ويصعب .

(٥) العُهدُ : جاء في اللسان : العَهْدُ والعُهدَةُ واحدة تقول : بَرِئْتُ إِلَيْكَ مِنْ عُهُدَةِ هَذَا الْعَبْدِ ، أي : مما يدركك فيه من عَيْبٍ كان معهوداً فيه عندي وعهد الشيء عَهْداً : عَرَفَهُ وَمِنَ الْعَهْدِ أَنْ تَعَهَّدَ الرَّجُلَ عَلَى حَالٍ أَوْ فِي =

شأوها^(١) ، فتركوا المعارضة لعجزهم ، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم ، فكان حظهم مما فروا إليه حظهم مما فزعوا ﴿ فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ والحمد لله رب العالمين [.

قلت : فإذا عرفت هذه الأصول وهو أن القرآن الكريم إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، وفي أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصح المعاني ، أتضح لك أن القوم وهم قريش ، إنما كاعوا ولم يستطيعوا مجارة القرآن أو معارضته ، ولم يقدموا على هذه المخاطرة ، وكانوا ناكسين على أعقابهم في ضعف وخور ، لأن الإقدام على مباراة القرآن أمر شاق ومجهد ، كالذي يقتحم عقبة صَعُوداً كأداء وهذا أمرٌ شاقٌ وعسير ، وقد كانوا بطباعهم وبسليقتهم وفطرتهم البيانية وهم أهل الفصاحة واللسن ومن غير أن يحتاجوا إلى أدوات بيانية أو لسانية يدركون ذلك ويعرفون مرامي القول فيه ، وكانوا يعرفون إعجازه ، لأنه لسانهم ، ومن جنس ما برعوا فيه ، فهم أهل اللسان وتلك بضاعتهم ، وهم أهل السنان الذي يقتحمون الردى ، وهم يرتجزون ، فلم يكن ليعجزهم ، أو يتعثر عليهم شيء

= مكان ، يقال : عَهْدِي بِهِ فِي مَوْضِعِ كَذَا ، وفي حال كذا ، وعهدي به قريب .

والعهدُ : ما عَهَدْتَهُ فثأنته ، يقال : عَهْدِي بِفُلَانٍ وَهُوَ شَابٌ ، أي : أدركته فرأيتُه كذلك .

وعلى هذا يكون معنى العهدة هنا : الشيء المألوف المعروف لديهم ..
اللسان - ج ٤ .

(١) الشَّأُوْ : الطَّلَقُ والشَّوْطُ والغايَةُ والأَمْدُ ، والشَّأُوْ : السبق .

وعلى هذا فمعنى قوله : لا يبلغون شأوها : لا يدركونها ولا يصلون إلى أمدها .

اللسان - ج ١٤ .

من القول ، هم أهل الفصاحة وأصحاب اللسان ، وسليقتهم وفطرتهم كانت تهديهم إلى مدى الإعجاز فيه ، وكانوا يتبينون مواضع تلك الأمور من مجيئه بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصح المعاني ، وكانوا يدركون أن له وقعاً في النفوس يريبهم ويحيرهم ، بل إن بعضهم إذا ترك نفسه على سجيّتها وفطرتها ولم تأخذه العزة بالإثم ، والعنادُ الأحمق ، فإنه يقرّ بأنه معجز ، وأنه الحقّ ، وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب ، وقرعاً في النفوس ، يريبهم ويحيرهم ، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف ، كما حصل من الوليد بن المغيرة الذي يقول : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث : أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زُهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكلُّ لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلس فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا

نعود على ذلك ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : مَنَ نبي يأتيه الوحي من السماء ؛ فمتى ندرك مثل هذا ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

وكان رسول الله ﷺ إذا تلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله ، قالوا يهزؤون به : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ ، لا نفقه ما تقول ، ﴿ وفي آذاننا وقراً ﴾ لا نسمع ما تقول ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ قد حال بيننا وبينك « فاعمل » بما أنت عليه ﴿ إننا عاملون ﴾ بما نحن عليه ، إنا لا نفقه عنك شيئاً ، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك قولهم : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ وجعلنا على قلوبهم أكنة إن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً ﴾ نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أتنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً ﴾ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون

قريباً * يومَ يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴿ الإسراء (٤٥ - ٥٢) .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : سألته عن قول الله تعالى : ﴿ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ ما الذي أراد به الله ؟ فقال : الموت ^(١) .

هكذا كانت قريش في عنادها وبغيها ، وتماديهم في باطلهم ، وإصرارهم على ما هم فيه من كفر وعناد ، وإلا فقد كانوا يعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها ، أي : كانوا يدركون هذه الصفات التي انبنت عليها فصاحته ويألفون ذلك ويدركونه ، وأنه شيء ليس في مقدورهم ، ولا تبلغه طاقاتهم وليس في وسعهم ، هذا شيء يألفونه ويعرفونه ، ويعلمون أنهم لا يبلغون شأوها ولا يصلون إلى مداها ، وأن الإقدام على هذا مخاطرة ، فلم يكونوا ليتجشموا مثل هذه الصعاب ، وتلك المسالك الوعرة ، فلما عرفوا العجز من أنفسهم ، وأنهم لا يستطيعون معارضة القرآن ، وأن هذا الأمر ليس في مقدورهم ، تحولوا عن المعارضة إلى المحاربة ، تحولوا عن المعارضة باللسان إلى المعارضة بالسنان ، مع أنّ هذا الأمر ليس محل المعارضة ، وليس مجال التحدي ، وليس محلّ البحث والمناقشة ، وكأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه ، ولكن عجزهم وانقطاعهم هو الذي دفعهم إلى تنكب الجادة ، وارتكاب الصعب الوعر ، دون السهل الدمث من القول ولو كان ذلك في وسعهم ، أو

(١) سيرة ابن هشام - تقديم طه عبد الرؤوف سعد - الجزء الأول - الناشر مكتبة الكليات الأزهرية - ٢٧٥ .

تحت أقدارهم ، لما ركبوا تلك الفواقير المبيرة ولم يتكلفوا تلك الأمور الخطيرة ، وهذا مالا يفعله عاقل ، ولا يختاره ذولب . .

وإذ قد ثبت هذا ، وقام دليل الحال على عجزهم ، وأنهم لم يستطيعوا معارضة القرآن الكريم ، وإذ لو وجدوا في أنفسهم القدرة عليه ، لما ترددوا فيه ، والقرآن يقرعهم ليل نهار ، ويتحداهم بالإتيان بسورة من مثله ، وبعشر سور من مثله ، ويمعن في التحدي فيطالبهم بالإتيان بسورة ولتكن مفتراة ، وهذا دليل قاطع على عجزهم وانقطاعهم ، إذ لو استطاعوه لراموه ، ولكثر القيل والقال وقد بقي ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة ، مظهراً لهم النكير ، زارياً على أديانهم ، مسقهاً آراءهم وأحلامهم ، حتى نابذوه وناصره الحرب ، فهلكت فيه النفوس ، وأريق المهج ، وقُطعت الأرحام ، وذهبت الأموال ، ولو استقر في نفس العرب شيء من القدرة عليه ، وهم أهل الفصاحة واللسن ، لما أظهروا التأهب والاحتشاد ، وساروا في طريق التكلف والاجتهاد ، ولما راموا الصعب الشاق على السهل الميسور ، وأراقوا الدم والمهج وقطعوا الأرحام ، لو كان في مقدورهم لما عُقدت الاجتماعات في دار الندوة ولما حشدوا من كل قبيلة فتي من أشجع فتيانهم ليضربوه ﷺ ضربة رجل واحد ليتفرق دمه في القبائل ، لو كان في مقدورهم لما حاصروه في الشعب ثلاث سنين ، لو كان في مقدورهم لما تعرضوا للناس في المواسم ينفرونهم من محمد ﷺ ودعوته ، لو كان في مقدورهم لما هجر الأب ابنه ، وترك الولد أباه ، لو كان في استطاعتهم لما أخذوا يؤلبون الناس على رسول الله ﷺ ، لو كان في مقدورهم لما عذبوا من تحت أيديهم من العبيد كبلال وصهيب وعمار ويأسر يُستشهد وتُستشهد زوجته سُميَّة ، وكل

أولئك لا يزدادون إلا تمسكاً وإصراراً على عقيدتهم وصهيبت يفر مهاجراً ويتخلى عن ماله كله في سبيل دعوة الحق حتى يقول له الرسول الأعظم ﷺ « ربح البيع أبا يحيى ربح البيع » وهكذا باءت كل جهودهم بالفشل ، ولم تسفر جميع محاولاتهم إلا عن الخزي والعار ، وسقطت جميع العراقل التي أقاموها ، والعقبات التي ابتدعوها ، وباءت بالخذلان . . وكان بإمكانهم لو كان ذلك في مقدورهم أن يأتوا بوضع آيات يعارضون بها القرآن ، ويثبتون أن ذلك في وسعهم وأن ما تتحدانا به هو في غاية السهولة وها نحن ننسخ آياتك ونثبت كذب دعواك ، وكسبنا الرهان ، لأن الخصم عندما تتحداه يزداد إصراراً على التحدي وعندما تلجأ إلى المعاندة يزداد أكثر فأكثر ، ولكن إن غلبته انتهى الرهان ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ، وتخاذلوا وانصرفوا إلى السيف والسنان وإراقة المهج وسفك الدماء ، لأنهم لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً . . وأقبلوا على المحاربة لجهلهم ، فكان حظهم مما فروا إليه ، حظهم مما فزعوا ﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ الأعراف (١١٩) والحمد لله رب العالمين .

فكان حظهم مما فروا إليه ، وهو القتال وإشهار السيف ، حظهم مما فزعوا وهو المقارعة بالقول وقبول التحدي للقرآن الكريم ، حيث فقدوا أبطالهم ورجالاتهم وحاقت بهم الهزائم المتلاحقة ففي بدر قُتل أبو جهل فرعون هذه الأمة وعتبة وشيبة وربيعة وغيرهم من ساداتهم وأشرفهم ، وفي أحد فقدوا الكثير من رجالاتهم حصدوا تحت اللواء ، وفي الخندق انهزموا شرّ هزيمة وقتل عمرو بن عبد ود العامري ، وفي فتح مكة كان النصر والظفر

لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ والحمد لله رب العالمين .

[فإن قيل : إنا إذا تلونا القرآن ، وتأملناه ، وجدنا معظم كلامه مبنياً ومؤلفاً من ألفاظ مبتدلة في مخاطبات العرب ، مستعملة في محاوراتهم ، وحظ الغريب المشكل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليل ، وعدد الفقر والغرر من ألفاظه بالقياس إلى مبادله ومراسيله عدد يسير ، فكيف يتوهم عليهم العجز عن معارضته والإتيان بمثله وهم عرب فصحاء ، مقتدرون على التصرف في أودية الكلام ، عارفون بنظومه ؛ قصيده ، ورجزه وسجعه ، وسائر فنونه ، فلو كانوا أرادوه وقنعوا عن شفاء الأنفس به لسهل ذلك عليهم ، وإنما عاقهم عن ذلك رأي آخر كان أقوى في نفوسهم ، وأجدى عليهم في مبلغ آرائهم وعقولهم ، وهو مناجزتهم إياه الحرب ومعالجته بالإهلاك ، استراحة إلى الخلاص منه ، وكراهة لمطاولته على القول ، ومعارضته بالكلام الذي يقتضي الجواب ، فيتمادى بهم الزمان للنظر فيه ، والانتقاد له ، فتكثر الدعاوي ، ويخفى موضع الفضل بين الكلامين ، فمالوا إلى هذا الرأي قصداً إلى اجتياحه واستئصاله ، إذ كانوا فيما يرونه مستظهرين عليه مستعلين بالقدرة فوقه] .

يسوق الإمام الخطابي رحمه الله في سياق كلامه هذا اعتراضاً مفاده أنه قد يقول قائل معترض : إن ما ذكرته من دعوى أن قریشاً عجزت عن مجارة القرآن الكريم ومعارضته لكونه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني ، وتحولت للحرب من أجل ذلك ، هذا كلام مبالغ فيه ، والأخذ به ضرب من

التجاوز والإسراف ، والدليل على ذلك : « أنا إذا تلونا القرآن وتأملناه ، وجدنا معظم كلامه مبنياً ومؤلفاً من ألفاظ مبتدلة في مخاطبات العرب ، مستعملة في محاوراتهم ، وحظ الغريب المشكل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليل ، وعدد الفقر والغرر من ألفاظه بالقياس إلى مبادئه ومراسيله عدد يسير » .

يعني أن القرآن الكريم مبني من ألفاظ ألفها العرب وهي مطروقة معروفة لديهم وهم يستعملونها في محاوراتهم وفي حديثهم ، وليس هناك من الغريب الذي يحتاج إلى تفسير أو إلى معجم إلا الشيء اليسير ، فهو سهل التناول وهو قريب ميسور ، وما فيه من الفقر والآيات الغرر بالقياس إلى الآيات التي تحمل معان مألوفة ومعروفة الشيء الكثير « فكيف يتوهم عليهم العجز عن معارضته والإتيان بمثله ، وهم عرب فصحاء مقتدرون على التصرف في أودية الكلام عارفون بنظومه ، قصيده ورجزه وسجعه وسائر فنونه ، فلو كانوا أرادوه وقنعوا عن شفاء الأنفس به لسهل ذلك عليهم » يعني كيف يتسرب إلى نفسك الشك بأنهم عاجزون عن معارضة القرآن والإتيان بمثله ، وهم أهل الفصاحة واللسن ، والقادرون على التصرف في أودية الكلام ، يمكنهم أن يهيموا في كل وادٍ من أودية القول دون أن يتعسر عليهم ذلك ، لأنه لسانهم وقد برعوا فيه والقرآن الكريم ألفاظه مألوفة لديهم في قصيدهم ونثرهم وهم أصحاب الكلام الذين لا يجدون مشقة فيه ، فلو كانوا فكروا في شيء من ذلك لما تعسر عليهم ولسهل عليهم ولكن نفوسهم لم تستشرف إلى شيء من ذلك من هنا ، فإن الحكم عليهم بالعجز ضرب من المبالغة والإسراف ، وإلا فهو ميسور لهم بدليل أن كثيراً

من ألفاظه مبتذله مألوفة ، وهم عرب فصحاء مقتدرون على التصرف في أودية الكلام .

هذا اعتراض ساقه الإمام الخطابي ، وساق مضمونه ، وعرفنا جواب الشرط الذي ورد في أول الكلام ، وهو : « فإن قيل : إنا إذا تلونا القرآن وتأملناه .. والجواب فكيف يتوهم عليهم العجز عن معارضته والإتيان بمثله .. » .

إذن - يا أيها المعترض - فما الوجه الذي تراه صرفهم عن معارضة القرآن الكريم ومجاراته . أجب : « وإنما عاقهم عن ذلك رأي آخر كان أقوى في نفوسهم ، وأجدى عليهم في مبلغ آرائهم وعقولهم ، وهو مناجزتهم إياه الحرب ومعاجلته بالإهلاك ، استراحة إلى الخلاص منه ، وكراهة لمطاولته على القول ومعارضته بالكلام الذي يقتضي الجواب ، فيتمادى بهم الزمان للنظر فيه والانتقاد له ، فتكثر الدعاوى ، ويخفى موضع الفضل بين الكلامين » .

معنى هذا الكلام أن العرب قريش لم تكن عاجزة عن معارضة القرآن الكريم وكان في وسعها الإتيان بمثله ، إذأما الذي صرفها عن ذلك ؟

قال : هو أمر آخر وهو أن قريشاً آثرت الخلاص من النبي ﷺ ودعوته ومناجزة الدعوة وصاحبها ووأدها في مهدها قبل أن تستفحل ويعظم خطرهما ، وذلك أن قريشاً رأت بأنها تمتلك كل الإمكانيات التي تساعدها على القضاء على الدعوة عن طريق الحرب الخاطفة ، فهم أصحاب السيادة والريادة والرّفادة^(١) والسقاية والبيت الذي

(١) الرّفادة : وكانت الرّفادة خَرْجاً تخرجه قريش في كلّ موسم من أموالها إلى قُصي بن كلاب ، فيصنع به طعاماً للحاج ، فيأكله من لم يكن له سعة =

تعظمه العرب والعرب تسمع كلمتهم ولا تدين إلا لهذا الحي من العرب وهم قريش فكلمتهم مسموعة ، وفيهم السادة والكبراء كالوليد بن المغيرة ﴿ لولا أنزلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيمٍ ﴾ والسلاح بأيديهم ، والعرب تعظمهم وتزور بيوتهم ، ولهم العزوة ، وفيهم المقاتلون والأشاوس ، فما داموا يمتلكون كل هذه الأدوات وبأيديهم كل هذه الميزات ، التي يفتقدها الرسول ﷺ ومن معه من أصحابه ﴿ إن اتَّبَعَكَ إلا الذي هم أراذِلُنَا بادي الرأي ﴾ كل هذه الميزات التي نمتلكها ويفتقدها النبي ومن معه جعلت قريشاً تلجأ

= ولا زاد ، وذلك أَنَّ قُصِيّاً فرضه على قريش ، فقال لهم حين أمرهم به : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وإن الحاج ضيفُ الله وزوّار بيته ، وهم أحقّ الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيامَ الحجّ حتى يصدُّروا عنكم ، ففعلوا .
الروض الأثف - المجلد الثاني - ٥٠ .

السقاية : وهي ما كان أقامه عبد المطلب من زمزم التي احتفرها لسقاية الحجاج .

الروض - ج ١ - ١٧١ .

قوله تعالى : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيمٍ ﴾ يقول الوليد بن المغيرة : أُنزِلَ على محمد ، وأُتِرَ وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو بن عُمر الثقفي سيّد ثقيف ، ونحن عظيمي القريتين؟! فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وقالوا لولا نزلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيمٍ * أهُم يَفْسِمُونَ رحمةَ ربِّك نحن فقسّمنا بينهم معيشتَهُم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوقَ بعضٍ درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيّاً ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون ﴾ الزخرف (٣١ - ٣٢) .
ويقصد بالقريتين « مكة والطائف » .

الروض الأثف - للسهيلي - تحقيق وشرح عبد الرحمن الوكيل - الجزء الثالث - ط ١٤١٤ هـ - ص ٢٩٢ .

إلى الحرب الخاطفة بدلاً من إضاعة الوقت ، فلما ذا لا نؤد الدعوة في مهدها ونجهز عليها وعلى صاحبها وبأيدينا كل المقومات فنأخذ بالحرب ؟ وهذا معنى قوله : « وهو مناجزتهم إياه الحرب ، ومعاجلته بالإهلاك ، استراحة إلى الخلاص منه » ثم يقول : وأما المعارضة فتقتضي أن يكون هناك أخذ وردّ ، وهذا يقتضي تحكيمياً وقد يحكم لهذا أو ذاك فتكثر الدعاوى وتتسع دائرة القول ، ويخفى موضع الفضل بين الكلامين فبدلاً من ذلك كله رأوا أن المناجزة هي أقصر الطرق وأسرعها ، وهي الحل الناجع للمسألة فلجئوا إليها « فمالوا إلى هذا الرأي قصداً إلى اجتياحه واستئصاله » لأنهم يحسون القدرة عليه ، وعلى هذا فمناجزته ﷺ وانصرافهم عن معارضة القرآن ليس عجزاً منهم وعدم قدرة وانعدام لوسائل الفصاحة والبلاغة واللسن وإنما لأمر آخر ؛ وهذا مكابرة ومغالطة واضحة ، وإلا فالقوم عاجزون ولكنهم لا يقرّون ولا يعترفون أنفةً وعزة بالإثم ، ولو كان ذلك في مقدورهم كما قدمنا لحسموا هذا الأمر الجسيم في بضع كلمات لا تتجاوز سورة الكوثر ، وعلى هذا فلا معنى لقول المعترض ، وسقط القناع عن وجه هذا الاعتراض وهذه الدعوى السادرة ، فأما « أنهم أحجموا عن المعارضة إذ كانوا فيما يرونه مستظهرين عليه مستعلين بالقدرة فوقه » فذلك كلام وإه لا يستقيم ويستمرّ الإمام الخطابي في تنفيذ هذه الدعوى فيقول :

[قيل : إنا قدمنا من بيان أوصاف بلاغة القرآن وذكرنا من شرائطها ما أسقطنا به عن أنفسنا هذا السؤال . وزعمنا أنها أمور لا تجتمع لأحد من البشر ، ولا يجوز أن تأتي عليها قدرته ، وإن كان أفصح الناس وأعرفهم بطرق الكلام وأساليب فنون البيان ، وذكرنا

العلة في ذلك وبيّنا المعنى فيه ، ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التي منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التي هي معانيه ، وملابسه التي هي نظوم تأليفه [١].

يردّ الإمام الخطّابي رحمه الله فيقول : إنّ الإجابة على هذا الاعتراض في تمام الوضوح ، وهذا أمر قد تحدثنا فيه طويلاً ، وقدّمنا من بيان أوصاف بلاغة القرآن ما ذكرنا فيه أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرسل ، فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والثاني أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة ، وأخذت من كل نوع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام ، يجمع بين صفتي الفخامة والعدوبة وهما على الانفراد في نعوتهما ، كالمتضادين ، لأنّ العدوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خصّ بها القرآن الكريم ، يسرّها الله بلطيف قدرته من أمره ، ليكون آيةً بينةً لنبِيِّه ، ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه .

وما امتزج لبلاغة القرآن في كل ما ذكرنا من شعب الكلام وأخذه من كل شعبة أعلاها ، ما يجعلنا في حلٍّ من هذا الاعتراض ، وما يزيل الإشكال والإبهام ، وما يسقط عنا مؤونة هذا السؤال

(١) بيان إعجاز القرآن - للخطّابي - ٣٢ .

والاعتراض ، إذ قد ذكرنا أن هذه الأمور التي قدمنا والتي حازتها بلاغة القرآن الكريم ، حتى جاءت بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمّنة أصحّ المعاني ، أمور لا يمكن أن تجتمع لأحدٍ من البشر ، ولا يجوز أن تأتي عليها قدرته ، وإن كان أفصح الناس ، وأعرفهم بطرق الكلام ، وأساليب فنون البيان ، نعم لو كان هذا البشر مشهوداً له بالفصاحة ، وامتلاك زمام البيان ، واقتداره على الضرب في أودية الكلام ، ومعرفته بأجناس الكلام من قصيده ورجزه وسجعه ، ومعرفته بأدوات البيان من بيان وتشبيه وتمثيل واستعارة وكناية ، إلا أنه لا يستمر على نسق واحد أو نظم واحد طيلة حياته ، فهو إن جاء بقصيدة موزونة قد اكتملت فيها صفات الحسن ، إلا أن هناك الكثير من القصائد التي تفتقد مثل هذه الصفات ، وهو إن جاء بقطعة من النثر قد حازت صفات الجمال والحسن ، إلا أنه ينقطع في غيرها كثيراً ولن تستمر له صفات الحسن والجمال في كل أعماله ، لأن هذه صفات البشر الضعف والخور والانقطاع ، وتلك بلاغة القرآن التي حازت صفات الكمال والجمال لأنها صنع الخبير العليم ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ .

وذكرنا العلة في ذلك ، وبيننا المعنى فيه ، وهو أن القرآن الكريم قد جمع من أجناس الكلام أعلاها ، وأخذ من كل منها بشعبة ، فاجتمع وامتزج له بذلك نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعدوبة . . فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر ، فضيلة خُصَّ بها القرآن الكريم ، يسرّها الله بلطيف قدرته من أمره ، ليكون آية بينة لنبيه ، ودلالة على صحّة ما دعا إليه من أمر دينه .

ثم يقول الإمام الخطابي رحمه الله : ولم تقتصر فيما اعتمدهنا من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التي منها يتركب الكلام ، دون ما يتضمنه من ودائعه التي هي معانيه ، وملابسه التي هي نظوم تأليفه ، فنحن حين تحدثنا عن بلاغة القرآن ذكرنا بأن إعجازه اتضح في مجيئه بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني ، فإعجازه يتمثل في هذه الأركان الثلاثة « لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم » وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها .

وعلى هذا فبلاغة القرآن وإعجازه تقوم على الزوايا الثلاثة من أركانه : « ألفاظه ، ومعانيه ، ونظمه » .

ألفاظه التي منها يتركب الكلام .

ومعانيه التي هي ما أودع في هذه الألفاظ وحملته من

روائعه ..

ونظومه التي هي اللباس الذي يكسو هذه الألفاظ ، القائمة

بهذه المعاني ..

فاللفظ الجسم ، والمعنى روح له ، والنظم لباس يكسو ويؤنن

هذه العروس ويجلوها حتى تكون في ازهى صورة وأبهاها .

ونظوم القرآن جاءت تجلو هذه الألفاظ وتزينها وتخرجها في

أحسن صورة وأحلاها ، حتى غدت كالعروس التي تُجلى فتبختر في

مشيتها وهي تزف إلى عريستها ، جسم رشيق ، وثوب أنيق ،
وعروس فاتنة ، وبعل حقيق ، تلك هي بلاغة القرآن التي تقاصرت
دونها الرقاب ، وعنت له الوجوه ، إيماناً بعظمتها وإيقاناً
بإعجازها ، وأنها تنزيل من حكيم خبير ، وهيهات أن تداني أو أن
تجارى أو تبارى ، فالكلام كلام الله ، والإعجاز من عند الله . .

[وقد قال بعض العلماء في الأسماء اللغوية^(١) ، وهي نوع
واحد من الأنواع الثلاثة التي شرطنا أنه لا يجوز أن يحيط بها كلها إلا
نبي : وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو من الفصاحة^(٢)
في ذروة السنام والغارب - يقرأ قوله عز وجل : ﴿ وفاكهةً وأبا ﴾ فلا
يعرفه فيراجع نفسه ويقول : ما الأب ؟ ثم يقول : إن هذا تكلف منك
يا ابن الخطاب وكان ابن عباس رحمه الله - وهو ترجمان القرآن
ووارث علمه - يقول : لا أعرف حناناً ولا غسلين ولا الرقيم . هل
في اللغة التفت في شيء من كلام العرب ؟ ، وإنما أخذوه عن أهل
التفسير ، على ما عقلوه من مراد الخطاب] .

يقول الخطابي رحمه الله : ولنستعرض هذه الأركان ولنحاول
الوقوف عندها فالركن الأول من أركان بلاغة القرآن ومناط إعجازه
وهو مجيئه بأفصح الألفاظ ، دلالات الألفاظ على معانيها ، الدلالة

(١) الرسالة - للإمام محمد بن إدريس الشافعي المطلبي - تحقيق محمد سيد
كيلاني - الطبعة الأولى - ٢٧ .

(٢) الدرّة : بالكسر والضم من كل شيء أعلاه ، وذروة السنام والغارب :
أعلى السنام والغارب وهي أعلى ما في البعير .

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير - تأليف العلامة أحمد بن
محمد بن علي المُقَرِّي الفيومي تحقيق د . عبد العظيم بن علي الشناوي -
الناشر دار المعارف مصر .

المعجمية القاموسية اللسانية ، هذه الدلالة والتي لا يجوز أن يحيط بها إلا نبي ، هذه الدلالة كان أصحاب رسول الله ﷺ وقد عايشوا القرآن وهم أهل الفصاحة واللسن ، وأقرب الناس عهداً بالوحي وبالبلغة ، وهم في ذروة السنام والغارب من الفصاحة ، ومع ذلك نجدهم يذهلون عن فهم بعض معانيها ، ويجدون مشقة في الوقوع على بعض تفسيرها ، فيراجعون أنفسهم ويتوزعون عن الخوض فيها ، حتى إذا ما ألهموا فهم بعضها من خلال سؤال أو ملبسة أو مناسبة تَعْنُ ، فسروه على ما اجتهدوا فيه من إرادة بيان مراد الخطاب ، هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو من الفصاحة في ذروة السنام والغارب - يقرأ قوله تعالى : ﴿ وفاكهةً وأباً ﴾^(١) . فلا يعرف معنى كلمة (الأب) فيراجع نفسه ويردّد (ما الأب) ؟ (ما الأب) ؟ ثم يقول : إن هذا تكلف منك يا ابن الخطاب ..

وهذا ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو ابن عم رسول الله ﷺ وحبر الأمة وترجمان القرآن ، ومن آل بيت النبوة كان رضي الله عنه وهو ترجمان القرآن ووارث علمه يقول : لا أعرف حناناً ولا غسلين ولا الرقيم .

قال تعالى في سورة مريم^(٢) عن يحيى عليه السلام : ﴿ وحناناً من لدناً وزكاةً وكان تقياً ﴾ والحنان من العطف والشفقة (وحناناً) مصدر سماعي للفعل (حَنَّ) من باب (ضَرَبَ) .

(١) سورة عبس (٣١) قال تعالى : ﴿ وفاكهةً وأباً ﴾ . والأب : اسم للعشب اليابس وقيل هو التبن ..

(٢) مريم (١٣) .

وقال تعالى في سورة الحاقة^(١) عن مصير الكافر يوم الدين :
 ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ *
 فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا
 الْخَاطِئُونَ ﴾ .

والغسلين على وزن فَعْلَيْنِ : اسم لما يجري من الجراح إذا
 غسلت وهو صديد أهل النار ، أو شجر يأكلونه .

وقال تعالى في سورة الكهف^(٢) مخاطباً نبيه وحببيه وصفيه
 محمد بن عبد الله ﷺ : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ
 كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ .

والرقيم : اسم اللوح الذي كتب فيه أسماء أهل الكهف ،
 وقيل : اسم القرية ، وقيل : هو اسم الوادي ، وقيل : هو اسم
 الجبل ، وقيل : هو الكلب الذي كان معهم .

فابن عباس - رضي الله عنهما - يقع في حيرة في فهم معاني هذه
 الألفاظ ودلالاتها ، وهو يعيش في كنف النبوة ومن آل البيت ، وهم
 ورثة الفصاحة والبيان ، وذلك أن الإحاطة بمدلولات الألفاظ
 لا يحيط بها كلها إلا نبي ، ومن هنا كان قول سيدنا علي بن أبي
 طالب رضي الله عنه مخاطباً رسول الله ، وهو يخاطب وفود العرب
 ويردّ عليها بألسنتها : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم
 وفود العرب بما لا نفهم أكثره فقال ﷺ : « أدبني ربّي فأحسن
 تأديبي » وفي رواية : لا يحيط باللغة إلا نبي .

وموضع استغرابهم في محله لأنهم من قريش ، ورسول الله ﷺ

(١) الحاقة (٣٣ - ٣٧) .

(٢) الكهف (٩) .

منهم ولم يتعلم اللغات ولا درس اللهجات ، ولم يعرف عنه أنه تنقل في القبائل حتى يتقن لهجاتها ، ولم يبذل مشقة في تعلم هذه اللغات واللهجات ، ولا كلف نفسه عناء البحث عنها ، ولا تجشم مؤونة فهمها ، فليس هناك جهدٌ شخصي يذكر منه ﷺ في هذا المجال ، فكيف يعرف هذه الألسنة ويحيط بها ويرد على كل قبيلة بلسانها ، فيقول ﷺ مخاطباً وفد اليمن مجيباً عليهم : « ليس من امبر امصيام في امسفر » بإبدال لام التعريف ميماً والأصل في لغة القرآن : « ليس من البر الصيام في السفر » .

هنا أزال ﷺ موضع الاستغراب فقال : « لا يحيط باللغة إلا نبي » وأن ذلك من تعليم الله سبحانه ، يقول الإمام الشافعي رحمه الله : « لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولا نعلم أنه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها » (١) .

(١) وتمتة للفائدة نذكر هنا ألفاظاً وردت في القرآن الكريم وقد فسرت بأنها أعجمية فارسية أو حبشية أو نبطية والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قرأنا عربياً ﴾ يوسف (٣) وقوله تعالى : ﴿ ولو جَعَلْنَاهُ قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أعجميَّ وعَرَبيَّ ﴾ فصلت (٤٤) فكيف يتفق إطلاق لفظ الأعجمي علي مثل هذه الألفاظ : قال ابن جرير هي من باب توارد اللغات ، فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد ، والصواب أن هذه الأحرف والألفاظ أصولها أعجمية ، لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها ، وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الألفاظ بكلام العرب ، فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال : أعجمية فصادق ، والقرآن حوى علم الأولين والآخرين فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لتتم إحاطته بكل شيء فاختر من كل لغة أعذبها وأخفها .

ويتساءل ابن عباس - رضي الله عنهما - هل في اللغة « التَّفَثُ » في شيء من كلام العرب قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ الحج (٢٩) . والتفت في المناسك : قص الأظافر والشارب وحلق الرأس . قال أبو عبيدة : ولم يجيء فيه شعر يحتاج به .

نخلص من هذا كله إلى أنَّ صحابة رسول الله ﷺ ومع قرب عهدهم بأنوار النبوة وإشراقاتها ، ومع أنهم العرب الخالص الفصحاء ، كانت تغيب عليهم كثير من الدلالات الموضوعية للألفاظ ، وكانوا لا يعرفونها ، لأن الإحاطة بها من خصائص النبوة ، ولأن اللغة العربية بحر واسع ممتد العباب . . فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتساءل عن معنى (الأب) في قوله تعالى : ﴿ وفاكهةً وأباً ﴾ ، وروي عنه رضي الله عنه أنه كان يتساءل عن معنى الكلالة ؟ في قوله تعالى : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكُم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولدٌ وله أخت فلها نصفُ ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلُّوا والله بكل شيء عليم ﴾ النساء (١٧٦) .

فعن الفاروق رضي الله عنه قال : ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري وقال : ما تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء .

وكان ابن الخطاب رضي الله عنه إذا قرأ قوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ

= معترك الأقران - ج ١ - ١٤٧ .

الله لكم أن تضلّوا ﴿﴾ قال : اللهم من بيّنت له الكلالة فلم تبين لي (١) .
والكلالة : « من مات وليس له والد ولا ولد » وهو الذي عليه
الجمهور (٢) .

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : نزلت بسبب : لما
عادني النبي ﷺ وأنا مريض ، فقلت : يا رسول الله ، كيف أقضي في
مالي ، وكان لي تسع أخوات ولم يكن لي ولد ولا والد ؟ فنزلت .
واختلف في اشتقاقها فقليل : من الكلال ، وهو الإعياء ،
فكأنه يصير الميراث إلى الوارث من بعد إعياء . قال الأعشى :

فَأَلَيْتُ لَا أَرْتِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ وَجِيٍّ حَتَّى نُلَاقِي مُحَمَّدًا
وقال الزمخشري : الكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال ،
وهو ذهاب القوة من الإعياء فاستعيرت للقرابة من غير جهة الوالد
والولد ، لأنها بالإضافة إلى قرابتها كالة ، أي : ضعيفة ، وقيل :
هي مشتقة من تكلله النسب : أحاط به لأنه بذهاب طرفيه عمودي
نسبه تكلله الورثة ، وطافوا به من جوانبه ، ويرجح هذا القول نزول
الآية في جابر رضي الله عنه ، ولم يكن له يوم نزولها ابن ولا أب ،
لأن أباه قتل يوم أحد ، فصارت قصة جابر بياناً لمراد الآية (٣) .

وابن عباس رضي الله عنهما ، وهو من هو في علمه وفصاحته
أشكل عليه فهم « الحنان والغسلين والرقيم » ويروى عنه أنه كان
يتساءل عن معنى قوله تعالى : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرضِ

(١) فتح القدير - للشوكاني - المجلد الأول - ٥٤٤ .

(٢) البحر المحيط في التفسير - لأبي حيان الغرناطي - الجزء الرابع - دار الفكر
ط ١٤١٢ هـ - ص ١٤٩ .

(٣) البحر المحيط - الجزء الثالث - ٥٤٥ .

جاعلِ الملائكةِ رُسُلًا أولي أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباعٍ يزيدُ في الخلقِ ما يشاءُ إنّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴿ فاطر (١) .

وقد أخرج أبو عبيد في فضائله عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض ؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرته يقول : « ابتدأتها »^(١) .

وأن أبا هريرة رضي الله عنه لقي النبي ﷺ وقد وقعت من يده السكين فقال له : ناولني السكين ، فالتفت أبو هريرة رضي الله عنه يمناً ويسرة ، ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة وهو يفعل ذلك . ثم قال : ألمدية تريد ؟ فقليل له : نعم ، فقال : أو تسمى عندكم سكيناً ؟ ثم قال : والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ !!
وكما أوضحنا فإن العربية بحر واسع زاخر ، ولا يحيط بها إلا نبي .

وليس معنى هذا أننا نذهب ما ذهب إليه الإمام الخطابي - رحمه الله - من أنه تعذر على البشر الإتيان بمثل هذا القرآن ، لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية ، وألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها .

نحن لا نقرر هذا ولا نذهب إليه ، ذلك أن المولى عز وجل قد تحدّى العرب بشيء في مقدورهم ومن جنس ما برعوا فيه ومادته بين أيديهم ، وهم أهل الفصاحة واللسن . فالحق سبحانه لم يتحدّهم بشيء غريب غير مألوف لديهم ، ولم يتحدّهم بألفاظ غير مقرّرة أو متداولة لديهم ، وإنما قال لهم : المادة الخام هي هي بين أيديكم من جنس ما تجيدون وهي لسانكم ولغتككم وأنتم أهلها ، والقرآن بلسان

(١) فتح القدير - للإمام الشوكاني - المجلد الرابع - ٣٣٩ .

عربي مبين ، إذن مادته بين أيديكم ، وحتى ما تشابه منه فإنه قليل ، ومع ذلك يعلمه الراسخون في العلم منكم ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي أنزلَ عليك الكتابَ منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ آل عمران (٧) . والراسخون في العلم أيضاً يعلمون ما تشابه منه بتعليم الله لهم^(١) ، هذا على أن الواو للعطف .

إذا ثبت ذلك تبين أن القوم إنما كاعوا وعجزوا عن الفصل والقطع في الموضوع لعدم القدرة عليه ، لا لأنهم فقدوا الآلة ، أو أنهم لم يحيطوا بجميع اللغة وألفاظها فهذا ليس موضع تحدد ، فالقرآن من جنس ألفاظهم ، وحظ الغريب المشكل إلى الكثير الواضح قليل ، وعدد الفقر والغرر من ألفاظه بالقياس إلى مبادله ومراسيله عدد يسير ، وكان باستطاعة المولى جلت قدرته أن يأتي بالقرآن من ألفه إلى يائه بالشيء الغريب الذي لا يطبقونه ، ولا تتسع له قُدْرُهُم ، ولكن ليس الأمر أمر تحدد بقدر ما هو إظهار لإعجاز القرآن عن طريق شيء تجيدونه ، ولكن عجزتم عنه ، فهذا في حد ذاته شهادة بإعجازه وأنه من عند الله .

(١) وقد اختلف العلماء في تفسير المحكمات والمتشابهات على أقوال ، ف قيل : المحكم : ما عرف تأويله ، والمتشابه : ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل كالآيات المقطعة في أوائل السور (ألم - ألر) وقيل : من المتشابه الاختلاف ، كاختلافهم في الوصية للوارث . والواو هل هي الاستئناف أو للعطف . خلاف .

فتح القدير - المجلد الأول - ٣١٤ - ٣١٥ .

المولى لم يتحدّهم بالإحاطة ﴿ ولا يُحيطون بشيءٍ من علمه إلا بما شاء ﴾ فهو سبحانه المحيط باللغة والعارف بدلالاتها ومعانيها^(١) ، ولكن التحدي هنا بهذه الألفاظ المعهودة لديكم التي أنتم أصحابها ، وإذا كان في القرآن كلّ ما لا يعيىكم ، وهناك من السهل الواضح المبتذل المرسل ما لا يشكل عليكم ، فأتوا بسورة على غراره ، لكن هذا ليس في وسعكم ولا تطبيقه قُدْرُكُمْ ، فما دام الأمر كذلك فهذا هو مناط الإعجاز ، وتلك هي مصداقية الرسالة .
والحمد لله رب العالمين .

[وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفناه ، فقد علم أنه ليس المفردُ بذربِ اللسان وطلاقة كافيًا لهذا الشأن ، ولا كلّ من أوتي حظًا من بديهة وعارضة كان ناهضاً بحمله ومضطلعاً بعبئه ، ما لم يجمع إليها سائر الشرائط التي ذكرناها على الوجه الذي حدّدناه ، وأتى لهم ذلك ومن لهم به ؟ ﴿ لئن اجتمعتِ الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثلٍ هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ .

يريد أن يقول الإمام الخطابي - رحمه الله - : إذا ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن بلاغة القرآن الكريم قد تجلت في نسجه ونظمه الذي أخذ من أجناس الكلام أعلاها وأرفعها فكان أن أخذ من البليغ الرصين الجزل ، والفصيح القريب السهل ، والجائر الطلق الرسل فحازت بلاغته من كل قسم منها حصة ، وأخذت من كل نوع

(١) وهل اللغة توقيفية أم وضعية ؟ فيه خلاف .

فمنهم من يقول بأن اللغة توقيفية من المولى عز وجل موقوفة على ما علمه آدم من الأسماء ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ﴾ .

شعبة فامتزج لها نمط من الكلام يجمع بين حفتي الفخامة والعدوبة ، فكان أن جاء القرآن بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصحّ المعاني ؛ إذا كان الأمر على ما وصفناه ، فإنه حتى لو كان هناك المفرد العلم الذي شهد له الأقران بالفصاحة وذلاقة اللسان ، وطلاقته مع سرعة البديهة والذكاء الحاضر ، هذا الذي اجتمعت له تلك الصفات من ذرب اللسان وطلاقته ، مع كونه بليل الريق حاضر الذهن سريع البديهة ، إلا أن هذا كله لا يُخوّله لمعارضة القرآن ، ولا يؤهّله لهذا الشأن ، ولا كلّ من أوتي حظاً من بديهة وسرعة خاطر كان ناهضاً بحمله ، ومضطرباً بعبئه ، ما لم يجمع إليها سائر الشرائط التي ذكرناها على الوجه الذي حددناه .

إذن فمهما كان بليغاً فصيحاً ذرب اللسان بليل الريق حاضر البديهة ، سريع الخاطر فإنه لا يستطيع أن ينهض بعبئه فهو يثقله ، فلا يكفي في هذا أن يستطيع معارضة القرآن الكريم ، لأنه جاء بأوصاف لا يستطيعها العرب ، ولأنه تنزّل من حكيم خبير ، فما لم يجمع إليها ذلاقة اللسان وطلاقته وسرعة الخاطر سائر الشروط التي ذكرناها على الوجه الذي حددناه وهو مجيئه بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصحّ المعاني ، بعد أن يكون قد أخذ من أجناس الكلام أرفعها وأعلاها من البليغ الرصين الجزل ، والفصيح القريب السهل ، والجائر الطلق الرسل ، وتلك بلاغة القرآن الكريم ، وأتى لهم ذلك ومن لهم به ؟! كيف يتأتى لهم ذلك ، فهو معسور عليهم ، شاقٌّ لا يستطيعونه والتحدّي عام يشملهم ويشمل الجن معهم ، فليس الأمر مقصوراً على فصحاء الإنس فقط ، بل حتى الجن لو احتشدوا جميعاً ، وكان بعضهم لبعض ظهيراً لم

يستطيعوا مجاراة القرآن أو الإتيان بمثله أو حتى بسورة من مثله . .

[وأما ما ذكروه من قلة الغريب في ألفاظ القرآن ، بالإضافة إلى الواضح منها ، فليست الغرابة مما شرطناه في حدود البلاغة ، وإنما يكثر وحشي الغريب في كلام الأوحاش من الناس ، والأجلاف من جفاة العرب ، الذين يذهبون مذاهب العنهجية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام ، وتنزيله ، والتخير له ، وليس ذلك معدوداً في النوع الأفضل من أنواعه ، وإنما المختار منه النمط الأقصد الذي جاء به القرآن ، وهو الذي جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة والسهولة] .

يريد أن يقول الإمام الخطابي رحمه الله : وأما ما ذكروه من قلة الغريب في ألفاظ القرآن الكريم إذ يقول معترضهم : « وحظ الغريب المشكل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليل » يقول الخطابي رحمه الله : إن الغرابة ليست شرطاً في الفصاحة ولا تقوم دليلاً على علو طبقة الكلام ، أو وصوله إلى أعلى درجات البيان ولم نشترط في بلاغة الكلام أن يكون غريباً ، بل إنما ركّزنا على البليغ الرصين الجزل والفصيح القريب السهل ، والجائز الطلق الرسل ، ولم نشترط شيئاً من الغريب ليفصح عن بلاغة الكلام أو تنأيه في الفصاحة ، وإنما يكثر وحشي الغريب في كلام الأوحاش من الناس ، والأجلاف من جفاة العرب هم الذين يحرصون على ترسم مثل هذه الطرق ، أولئك الذين طبعتهم الصحراء بشظافة عيشها ، فنشئوا على الجلف والقساوة تجده ينعكس عليهم الغلظ والقسوة حتى في تعاملهم ، ومن هنا قال ﷺ : « من بدا جفا » أي : من عاش في البادية تربى على الجفوة والغلظة ، أمثال هؤلاء لا يستغرب منهم

أن يذهبوا في الكلام مذاهب العنجهية^(١) فتجدهم يتشدقون بغريب الكلام ، ويأتون بالشيء القبيح المستهجن منه ، ظناً منهم أن هذه هي الفصاحة والبلاغة ، لأنهم يفتقدون الذوق البلاغي ، الذي يضع الكلام في مواضعه ، وينزله في منازلها ، فهم لا يحسنون تخيره وإنما همّهم النطق بكلام لا يفهمه حتى العامة أو الفصحاء .

كما نُقل عن بعضهم قوله : « صَيْنَ امْرُؤٌ وَرُعِي ، دَعَا لَامْرَأَةً
إِنْبَحْلَةً مُفْسِنَةً مُنِيَّتْ بِأَكْلِ الطَّرْمُوقِ ، فَأَصَابَهَا مِنْ أَجْلِهِ الاسْتِمْصَالُ ،
أَنْ يَمُنَّ اللهُ عَلَيْهَا بِالْأَطْرِعَشَاشِ » .

فهل هذا من الكلام الذي يفهم أو حتى يكون له نصيب أو حظ على الأسماع ، وليس ذلك معدوداً في النوع الأفضل من أنواعه في أجناس الكلام ، وإنما المختار منه النمط الأقصد الذي جاء به القرآن ، وهو الذي جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة والسهولة ، وتلك لهجة قريش الذين سَمَتُ لغتهم بمخالطتهم للقبائل المختلفة ، وكانت لهم تجارتهم إلى الشام واليمن رحلة الشتاء والصيف وهم أهل حاضرة ، فقد كانت مكة عاصمة العرب إليها يفدون ، ولبيتها يحجون ، ومن أسواقها يتبضعون ، فرقت أذواقهم ولانت لغتهم ، وأضحت مفهومة للعرب قاطبة ، وهم أهل حاضرة يتذوقون ، فينتقون ما سهل ورق من الألفاظ ، مما جمع الرشاقة إلى الفخامة والجزالة ، فجاء القرآن في أفصح اللغات وأيسرها ، ذلك أن الإغراب وإجهاد الذهن ، وكده في استخراج دلالات الألفاظ ليس من الفصاحة في شيء ، وعلماء البلاغة اشرطوا في فصاحة الكلمة شروطاً منها :

١ - السلامة من تنافر حروفها .

(١) العنجهية : الغلاظة والقساوة والفظاظة . .

٢ - وأن تكون سليمة من مخالفة القياس ، أو الوضع اللغوي ،
 ٣ - وأن تكون قريبة لا تحتاج إلى بحث أو تفتيش في كتب
 المعاجم واللغة لفهم معناها ، فإن ذلك مما يذهب برونق الكلام
 ومائه .

ألا ترى أنّ لنت الطويل ووصف الإنسان بالطول وَرَدَ فيه
 ما يربو على ستين لفظة كلها غريبة مستهجنة أكثرها بَشَعٌ شَنِعٌ^(١) !
 كالعَشَنَقِ^(٢) ، والعَشَنَطِ^(٣) ، والعَنْطَنُطِ^(٤) ، والشوقِبِ^(٥) ، والشوذب ،

(١) بَشَعٌ : البَشَعُ : الحَسِينُ من الطَّعامِ واللِّبَاسِ والكلامِ ، شَنِعٌ : الشَّنَاعَةُ :
 الفِظَاعَةُ شَنِعَ الأمرِ شِنَاعَةً ، وشِنَعًا ، وشِنوعًا : قَبِيحٌ فهو شَنِيعٌ والاسم الشُّنَعَةُ .
 اللسان - المجلد الأول والتاسع .

(٢) العَشَنَقُ : العَشَنَقَةُ : الطَّوْلُ والعَشَنَقُ : الطَّوِيلُ الجسمِ ، قال الأصمعي :
 العَشَنَقُ : الطَّوِيلُ الذي لس بمثقلٍ ولا ضخمٍ من قومِ عَشَانِقَةَ .

وفي حديث أم زرع أن إحدى النساء قالت : زَوَّجِي العَشَنَقُ إن أنطِقُ
 أُطَلِّقُ ، وإن أسكْتُ أُعَلِّقُ ، أرادت أن له مَنظَرًا بلا مَحْخَرٍ ، لأن الطول في
 الغالب دليل السَّفَه ، تقول : ليس عنده أكثر من طوله بلا نفع ، فإن ذكرت
 ما فيه من العيوب طَلَّقَنِي ، وإن سَكَّتْ بقيت معلقة لا أيماً ولا ذاتُ بَعْلٍ .
 اللسان - مجلد ١٢ .

(٣) العَشَنَطُ : الطَّوِيلُ من الرجال كالعَشَنَقِ ، وقيل : هو الشابُّ الظَّرِيفُ .
 قال الأصمعي : العَشَنَطُ ، والعَشَنَطُ معاً : الطَّوِيلُ ، الأول بتشديد النون
 والثاني بتسكين النون قبل الشين .

اللسان - المجلد التاسع .
 (٤) العَنْطَنُطُ : العَنْطُ طَوْوُ العُنُقِ ، وحُسْنُهُ ، وقيل : هو الطُّوْلُ عامَّةً ، ورجل
 عَنْطَنُطٌ والأنتى بالهاء الطويل ، وأصل الكلمة (عنت) فكُثِرَتْ ، وفي
 حديث المُتَمَعَةِ فتاةٌ مِثْلُ البُكَرَةِ العَنْطَنُطَةِ ، أي : الطَّوِيلَةُ العُنُقِ مع حُسْنِ
 قوامٍ . والعَنْطَنُطُ : الإِبْرِيْقُ لَطَوْلِ عُنُقِهِ .

اللسان : م التاسع .
 (٥) الشوقِبُ : من الرجال الطويل ، والشَقْبُ : والشِقْبُ : مَهْوَاةٌ ما بين كلِّ =

وَالسَّلْبُ ، والقُوق والقاق ، والطوط والطاق^(١) ، فاصطَلح أهل البلاغة على نبذها وترك استعمالها في مرسل الكلام ، فإذا كانوا يتورعون عن ذكرها في مرسل الكلام ، فما بالك بالقرآن؟! فهو من باب أولى وقد بلغ ذروة الفصاحة والبيان ، أن لا يحفل بهذا الغريب المتقعر ، الذي تَشَمَّرَ منه النفوس ، وإذا كان القرآن الكريم لم يُعِرْهُ اهتماماً ولم يحفل به ، ولم يلتفت إليه ، فمعنى هذا أنه لم يقع به تحدُّ ، وإذا لم يقع به التحدي فمعنى هذا أنه ليس من البلاغة في شيء ، ثم عدم إيراد مثل هذا أبلغ وأدخل في التحدي ، وكأن القرآن يقول لهم إن ألفاظي من نفس ألفاظكم ، وأنا من نفس كلامكم ، وقد جمعت السهولة والفخامة ، ومع ذلك عجزتم عن مجاراتي ، فكيف لو كان في شيء من الغريب ، كما ورد في لفظ « الطويل » لكان لكم

= جَبَلَيْنِ . وقيل : صدع يكون في لُهوبِ الجبال يُوكِرُ فيها الطيرُ .

اللسان - م الأول .

الشَّوْذَبُ : الطويلُ النجيب من كل شيء ، وشوْذَبُ اسم .

اللسان - م الأول .

السَّلْبُ : الطويلُ عامَّةً وقيل هو الطويل من الرجال ، وقيل من الخيل والناس ، . والسَّلْبَةُ من النساء : الجَسِيمَةُ وليست بِمِدْحَةٍ .

اللسان - م الأول .

القُوقُ والقاقُ : غير مهموز والقُوقُ « الطويل » وقيل : هو القبيح الطول والقاقُ القوقُ : طائر من طير الماء طويل العنق .

اللسان - المجلد الثاني عشر .

(١) الطُّوطُ والطَّاطُ والطَّائِطُ : الفحلُ المُغْتَلِمُ الهائِجُ ، يوصف به الرجل الشجاع والجمع طاطةٌ وأطواطٌ .

ورجل طاطٌ وطوطٌ : مُفْرِطُ الطُّولِ ، وقيل : هو الطويلُ فقط من غير أن يُقَيَّدَ بإفراط ، وطوط الرجل إذا أتى بالطاطة من الغلمان وهم الطوال .

اللسان - المجلد التاسع .

الحق أن تعترضوا ، وتقولوا هذا إغراب ، ويحتاج إلى قواميس ، وهذا تعجيز ، ونحن لا نستطيعه . . وهذا يدل على أن البلاغة لا تعباً بالغرابة ولا تعمل بها شيئاً . . وعن أثر التحضّر وما يحدثه من تهذيب للطباع وترقيق للمشاعر يقول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني : « فلما ضرب الإسلام بجِرائه ، واتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادي إلى القرى ، وفشا التأدب والتظرف ، اختار الناس من الكلام أليّنه وأسهله ، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة ، اختاروا أحسنها سمعاً ، وألطفها من القلب مَوْقِعاً ؛ وإلى ما للعرب فيه لغاتٌ ، فاقترضوا على أشرفها وأسلسها ، كما رأيتهم يختصرون ألفاظ « الطويل » فإنهم وجدوا للعرب فيه نحواً من ستين لفظة ؛ أكثرها بَشَع ، شَنِع ، كالعَشَنُطُ والعَنْطَنُطُ ، والعَشَنُتُقُ ، والجَسْرَبُ ، والشَّوْقَبُ ، والسَّلْهَبُ ، والشَّوْذِبُ والطَّاطُ والطُّوطُ ، والقاق والقُوقُ ، فنبذوا جميع ذلك وتركوه واكتفوا « بالطويل » لخفته على اللسان ، وقلة نُبوُّ السمع عنه» (١) .

[فإن قيل : إنا لا نسلم لكم ما ادعيتموه من أنّ العبارات الواقعة في القرآن ، إنما وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها ، لوجودنا أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها كقوله : « فَأَكَلَهُ الذُّبُّ » وإنما يستعمل مثل هذا في فعل

(١) عن مقدمة كتاب الوساطة بين المتنبئ وخصومه - للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني - تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي - طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي - ص ١٨ . والمقدمة للجرجاني ، سوى مقدمة الشارحين المحققين .

السباع خصوصاً الافتراس ، يقال : افترسه السبع هذا هو المختار الفصيح في معناها ، فأما الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع [.

هنا يورد الإمام الخطابي اعتراضات تتعلق بفصاحة الألفاظ المستعملة في القرآن ومن هذه الألفاظ لفظة الأكل في قوله تعالى : ﴿ فَأَكَلَهُ الذُّبُّ ﴾ فيقول : إنه قد يُعترض علينا فيقال : إنا لا نسلم لكم ما ادعيتموه ، وكأن هذه دعوى سادرة مختلفة ، من أن العبارات الواقعة في القرآن إنما وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها ، وإن الأمر ليس كذلك ، لماذا ؟ قالوا لأننا وجدنا أشياء في القرآن لا تصل إلى درجة الفصاحة ، ولا يشملها هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها وهم المدركون لأسرارها ، المتمرسون فيها ، العرب الخالص الفصحاء ومن أكبَّ على لغتهم درساً وتمحيصاً ، وماذا عثر هؤلاء مما يخلّ بفصاحة الأسلوب القرآني ، قالوا : لفظ الأكل في قوله تعالى : ﴿ فَأَكَلَهُ الذُّبُّ ﴾ في سورة يوسف لأن وصف الأكل لا ينطبق على الذبُّ الحيوان المفترس ، كان خليقاً بالقرآن لو اختار لفظ الافتراس لأنه الفصيح في الاستعمال مع الحيوانات المفترسة كالذبُّ وهو من جنس السبع وهذا يصدق معه لفظ الافتراس ، وهو المختار الفصيح في معناها ، فأما الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع آخر . .

ويجب الإمام الخطابي رحمه الله على هذا فيقول : [الجواب : أن القول في وجود ألفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذي وصفناه صحيح لا ينكره إلا جاهل أو معاند . وليس الأمر في معاني هذه الآي على ما تأولوه ، ولا المراد في أكثرها على ما ظنوه وتوهموه ، فأما قوله تعالى : ﴿ فَأَكَلَهُ الذُّبُّ ﴾ فإن الافتراس معناه في فعل

السبع القتل فحسب ، وأصلُ الفَرَسِ دَقُّ العُنُقِ ، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً ، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلاً ولا عظماً ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى ، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع ، وحكى ابن السكيت في ألفاظ العرب قولهم : أكل الذئب الشاة فما ترك منها تاموراً [.

يريد أن يقول الإمام الخطابي - رحمه الله - أن الحكم بفصاحة ألفاظ القرآن ، والجزم ببلاغتها على النعت الذي وصفناه من أنها أخذت من كل قسم من الأقسام حصة ، ومن كل نوع من أجناس الكلام شعبة فامتزج لها بذلك نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعدوية ، هذا أمر مقطوع به ، ولا ينكره إلا جاهل أو معاند مكابر ، ولا يخالج الشك أدنى من له مسكة من صواب أو نصيب من عقل في ثبوت هذا الشأن ، وليس الأمر في معاني هذه الآيات على ما تأولوه ولا المراد في أكثرها على ما ظنوه وتوهموه ، فأما هؤلاء المعترضون فيختلقون مثل هذه الاعتراضات ، ويتوهمون مثل هذه التوهمات ، التي ليس لها أساس إلا في خيالاتهم المريضة ، فليس الأمر على ما ظنوه أو توهموه ، إذ أن قوله تعالى : ﴿ فأكله الذئب ﴾ يتفق تمام الاتفاق مع الغرض الذي ذهب إليه إخوة يوسف ، فهم يريدون أن يوهموا أباهم بأن الذئب قد أكل يوسف وأتى عليه ، فلم يترك منه عضواً ولا مفصلاً ، وهذا إنما يتناسب مع لفظ الأكل ، فهم ادّعوا على الذئب بأنه أكل يوسف أكلاً وأتى على جميع أجزائه

وأعضائه فلم يترك مفصلاً ولا عظماً ، ولكن لماذا صنعوا ذلك واختاروا لفظ الأكل ؟ والجواب : إنما عدلوا إلى ذلك خشية أن يطالبهم يعقوب عليه السلام بأي أثرٍ ثبت ما ذهبوا إليه ، كأن يقول : ائتوني بأثر استدللّ به على أن الذئب مزّق يوسف وأتى عليه ، وهذا ما لا يريدونه وهذا تماماً ما يفيد لفظ الأكل ، فإنه يفيد أن الذئب قد أتى على يوسف فلم يبق منه قيدَ إصبع ، وهذا معنى قول الخطابي رحمه الله : « وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باقٍ منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة »^(١) .

بخلاف لفظ الافتراس ، فإنه لا يعطي هذا المعنى إذ إن لفظ الافتراس ، قد يستشعر منه أنّ الذئب افترس يوسف ولكنه ترك منه أجزاءً وأشلاءً ، هذا ما يفيد لفظ الافتراس ، وهذا قد يدفع يعقوب لمطالبتهم بشيء من هذه القطع المتناثرة من لحم يوسف ومشاش

(١) يقول الإمام أبو حيان رحمه الله : « وخص يعقوب الذئب لأنه كان السبع الغالب على قطره ، أو لصغر يوسف ، فخاف عليه هذا السبع الحقيق ، وكان يعقوب بقوله : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ ﴾ لقنهم ما يقولون من العذر إذا جاؤوا وليس معهم يوسف ، فلقنوا ذلك وجعلوه عدة للجواب . رُوي أنهم أخذوا سخلة أو جدياً ، فذبحوه ولطخوا قميص يوسف بدمه ، وقالوا ليعقوب : هذا قميص يوسف ، فأخذه ولطّخ به وجهه وبكى ، ثم تأمله فلم ير خرقاً ، فاستدلّ بذلك على خلاف ما زعموا وقال لهم : متى كان الذئب حليماً؟! يأكل يوسف ولا يخرق القميص؟! لطيفة : « قيل : كان في قميص يوسف ثلاث آيات : ١ - كان دليلاً ليعقوب على أن يوسف لم يأكله الذئب ، هذه واحدة . ٢ - ألقاه على وجهه فارتد بصيراً هذه الثانية . ٣ - وكان دليلاً على براءة يوسف حين قُدّ من دبر » .

البحر المحيط - لأبي حيان - المجلد الخامس - ٢٨٧ .

عظمه ، وهم يفرون من هذا ولا يريدونه ، فلعجؤوا إلى لفظ الأكل وهذا معنى قوله : « والفَرَسُ لا يعطي تمام هذا المعنى ، فلم يصلح أن يعبر عنه إلا بالأكل » ثم يعقب الإمام الخطابي رحمه الله فيقول : « على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع ، فمن الذي قصره على جنس دون جنس ، حتى يقال : إن الافتراس لجنس السباع ، والأكل لما سواهم ، ثم يسوق الأمثلة التي تثبت استعمال لفظ الأكل مع الذئب وغيره من جنس السباع فيقول : « وحكى ابن السكيت في ألفاظ العرب قولهم : أكل الذئب الشاة فما ترك منها تاموراً » والتامور : الوعاء والنفس وحياتها .

وقال بعض شعرائهم^(١) :

فَتَى لَيْسَ لِابْنِ الْعَمِّ كَالذَّئْبِ إِنْ رَأَى بَصَاحِبَهُ يَوْمًا دَمًا فَهَوَّ آكِلُهُ
وقال آخر^(٢) :

أَبَا خُرَاشَةَ أَمَّا أَنْتَ ذَا نَفَرٍ فَإِنَّ قَوْمِي لَمْ تَأْكُلْهُمْ الضَّبْعُ
والشعر ديوان العرب ، وفي هذه الأبيات ما يثبت أن العرب استعملوا لفظ الأكل مع الذئب والضبع والضبع من نوع الحيوان المفترس ، وفي حديث عتبة بن أبي لهب أنه لما دعا عليه السلام عليه فقال : « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك »^(٣) فخرج في تجر إلى الشام ، فنزل في بعض المنازل ، فجاء الأسد ، وأطاف بهم فجعل عتبة يقول : أكلني السبع ، فلما كان في بعض الليل علا عليه ففدغ

(١) ينسب البيت للفرزدق ، وفي بعض المراجع بنت الطثرية .

(٢) وأما القائل : أبا خُرَاشَةَ أَمَّا أَنْتَ ذَا نَفَرٍ ، فإنه للعباس بن مرداس . وأبو

خراشة هو : خفاف بن ندبه .

(٣) الروض الأثف - للسهيلى .

رأسه ، فدل ذلك على أن لفظ الأكل يستعمله العرب حتى مع الأسد وهو الحيوان المفترس ، كما استعمل من قبل مع الذئب والضبع .

[وقد يتوسع في ذلك حتى يُجْعَلَ العَقْرُ أَكْلًا ، وكذلك اللدغ واللسع : حدثنا أبو عمر قال : حدثنا أبو العباس عن ابن الأعرابي عن أبي المكارم قال : مررت بمنهال على شفيره صنبور بيده شوشب^(١) فقلت لأمه : أدركي القامة لا تأكله الهامة^(٢) . قال أبو العباس : الشوشب : العقرب ، والقامة الصبي الصغير . وحكي أيضاً عن بعض الأعراب : أكلوني البراغيث ؛ فجعل قرص البرغوث أكلاً . ومثل هذا في الكلام كثير] .

[وكقوله : ﴿ ذَلِكْ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ قالوا : وما اليسير والعسير من الكيل والاكتيال ، وما وجه اختصاصه بهذه ، وأنت لا تسمع فصيحاً يقول : « كِلْتُ لزيد كَيْلاً يَسِيراً » إلا أن يعني به أنه يسير العدد والكمية] .

وهذا اعتراض جديد يسوقه الإمام الخطابي في سلسلة الاعتراضات المتلاحقة والشبه التي يذيعها المغرضون ، فيقول :

(١) المنهال : كالمنهل والمناهل : المنازل على الماء ، وفي حديث الدجال أنه يَرِدُ كُلَّ مَنَهَلٍ .
شفيره : حافته .

الصُّنْبُورُ : الضعيف ، والصنوبر أيضاً : النخلة المنفردة من جماعة النخل وقد يقصد بالضعف هنا ضعف البنية ، لأن من معانيه كما في اللسان النخلة التي دق أسفلها وقل سعتها ويس . . اللسان م ٦ .
(٢) فقلت لأمه أدركي القامة أي الصبي لا تأكله الهامة ، أي : العقرب : لا تلدغه ، فسمى لدغ العقرب أكلاً ، وفي الحديث « أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة » .

وقد يعترض أحدهم فيقول : وأيّ فصاحة في وصف الكيل باليسير ، فإن الكيل من الأمور المحسوسة ، وهي لا توصف باليسر والعسر وإنما توصف به الأشياء المعنوية ، فتقول : مسألة يسيرة أو عسيرة .

أما اتصاف الأمور المعنوية باليسر فهذا لم نسمع فصيحاً نطق به ، ولا سيما المكاييل ، فإنها توصف بالكثرة والقلة فتقول : كيل قليل ، أو كيل كثير ؛ وأنت لا تسمع فصيحاً ، يقول : كِلْتُ لزيد كيلاً يسيراً ، إلا أن يعني به أنه يسير العدد والكمية .

ويجب الإمام الخطابي رحمه الله على هذا الاعتراض بقوله : [وأما قوله سبحانه : ﴿ وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ ذلك كَيْلٌ يسيرٌ ﴿ فَإِنَّ مَعْنَى الْكَيْلِ الْمَقْرُونِ بِذِكْرِ الْبَعِيرِ : الْمَكِيلُ .

والمصادر توضع موضع الأسماء كقولهم : هذا درهم ضرب الأمير ، وهذا ثوب نسج اليمن ، أي : مضروب الأمير ، ونسيج اليمن ، والمعنى : أننا نزداد من الميرة المكيلة إذا صحبنا أخونا حمل بعير ، فإنه كان لكل رأس منهم جمل واحد لا يزيده على ذلك لعزة الطعام ؛ فكان ذلك في السنين السبع القحطة ، وكانوا لا يجدون الطعام إلا عنده ، ولا يتيسر له مرامه إلا من قبله ، ف قيل على هذا المعنى : ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يسيرٌ ﴾ أي : متيسر لنا إذا تسببنا إلى ذلك باستصحاب أخينا »] .

وما يريد أن يقوله الإمام الخطابي : أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ عَلَى مَا ذَكَرُوهُ وَلَا مَا تَأْوَلُوهُ « فَإِنَّ وَصْفَ الْيَسْرِ لَا يَعُودُ عَلَى الْكَيْلِ ، وَالصَّنْفُ الْمَكِيلُ ، وَإِنَّمَا يَعُودُ إِلَى كَيْفِيَّةِ الْحَصُولِ عَلَى الْكَيْلِ وَأَنَّهُ أَمْرٌ مَيْسُورٌ مَتَسَهِّلٌ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ ، لِلْأَسْبَابِ الْمُتَّصِلَةِ بِهِ ، وَهُوَ أَنَّا التَزَمْنَا بِالْعَهْدِ الَّذِي قَطَعْنَاهُ عَلَى أَنْفُسِنَا لِعَزِيزِ مِصْرَ مِنْ إِحْضَارِ أَخِينَا مِنْ أَبِينَا

« بنيامين » وانصعنا لأوامره وبالتالي لن نحرم هذا الكيل الميسور ،
 وأيضاً فإن عزيز مصر لن يتعاضمه أن يمنحنا حمل بعير ، فذلك سهل
 متيسر له ، وهو الذي بيده خزائن الأرض ، فكان وصف اليسر إنما
 يعود على أمر آخر غير ما قصدوه وعنوه من وصف الكيل والميرة ،
 فذلك أمر سلمنا به وهو مقطوع به أن الزيادة متحصلة وهي حمل
 بعير ، وهذه الكمية قد عرفنا حجمها سلفاً ، وهي حمل بعير من
 الميرة المكيلة ، وهذه المؤونة وهذا الحمل سهل الحصول عليه
 ميسور ما دام قد توفرت الوسيلة ، وهي اصطحابنا لأخيها فإن العزيز
 قد وعد بإعطائنا حقه من حمل البعير ، وقطع على نفسه عهداً بذلك .
 وبذلك يكون قد اتضح المراد من الآية وأنّ قوله تعالى : ﴿ وَنَزَادُ
 كَيْلَ بَعِيرٍ * ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ قد أفادنا شيئين قوله تعالى : ﴿ وَنَزَادُ
 كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ أوضح لنا الكمية التي وقع عليها الكيل ، وقوله تعالى :
 ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أوضح لنا أن الوسيلة سهلة ميسورة للحصول
 على هذا الكيل ، فإنه في هذه السنين العجاف القحطة التي يصعب
 فيها الامتياز لأن الجفاف والتصحر قد ضرب كافة الأقاليم ،
 ولا يمكن أن يحصل الإنسان على أكثر من قوته ، فإنه كان لكل رأس
 جمل واحد لا يزيده على ذلك لعزة الطعام ، وكانوا لا يجدون الطعام
 إلاّ عنده ، أي : يوسف عليه السلام ، لأنه كان على خزائن الأرض ،
 ولكن مع ذلك فإن الحصول على هذا المرام ، متيسر وليس من
 الصعوبة بمكان ما دمنا قد تعهدنا بإحضار أخيها ، وقطع على نفسه
 العهد بإعطائنا ، فنحن قد نفذنا طلبه فلم يبق سوى الوفاء ، وهذا معنى
 قوله : « وكانوا لا يجدون الطعام إلاّ عنده ، ولا يتيسر له مرامه إلا من
 قبله ، فقبل على هذا المعنى : ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي : متيسر لنا إذا

تَسَبَّبْنَا إِلَى ذَلِكَ بِاسْتِصْحَابِ أَخِينَا . عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْوَقْتَ وَقْتُ قِحْطٍ لَا يَتَيْسِرُ لِكُلِّ أَحَدٍ أَخْذَ الْمِيرَةِ فِيهِ ، وَلَكِنْ إِحْضَارِ أَخِينَا صِيرَ الْأَمْرِ الْمَتَعَسِّرَ سَهْلًا مَيْسُورًا . وَأَمَّا مَعْنَى قَوْلِهِ : « وَالْمَصَادِرُ تَوْضِعُ مَوْضِعِ الْأَسْمَاءِ كَقَوْلِهِمْ : هَذَا دِرْهَمٌ ضَرَبَ الْأَمِيرُ ، وَهَذَا ثَوْبٌ نَسَجَ الْيَمَنُ ، أَيْ : مَضْرُوبُ الْأَمِيرِ وَنَسِيجُ الْيَمَنِ » فَمَعْنَاهُ الدِّرْهَمُ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ الضَّرْبُ ، وَالثَّوْبُ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ النَّسِجُ وَالضَّرْبُ ، وَالنَّسِجُ هَذَا الْمَصْدَرَانِ بِمَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ الْمَضْرُوبِ ، وَالْمَنْسُوجُ ، وَالْمَصَادِرُ تَوْضِعُ مَوْضِعِ الْأَسْمَاءِ .

[وَالْيَسِيرُ شَائِعُ الْإِسْتِعْمَالِ فِيمَا يَسْهَلُ مِنَ الْأُمُورِ ، كَالْعَسِيرِ فِيمَا يَتَعَذَّرُ مِنْهَا ، وَلِذَلِكَ قِيلَ : يُسِّرُ الرَّجُلُ إِذَا تُنَجَّتْ مَوَاشِيهِ وَكَثُرَ أَوْلَادُهَا قَالَ الشَّاعِرُ :

يَعُدُّ الْغِنَى مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ غِنَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُيَسِّرٍ
وقال آخر هو أبو أسيدة الديبيري :

هُمَا سَيِّدَانَا يَزْعُمَانِ وَإِنَّمَا يَسُودَانِنَا أَنْ يَسَّرَتْ غَنَمَاهُمَا]
ولا يكتفي الإمام الخطابي بالرد على من زعم أن اليسير لا يتفق مع الكيل ، لا يكتفي بإثبات أن وصف اليسر إنما ينصب على أن الأمر ميسر وسهل وأن المقصود أن الحصول على الميرة وزيادة حمل بعير أمر سهل ميسور لتوفر دواعيه وتعهد العزيز به حتى يرد على أولئك المعترضين بما يزيدهم افتضاحاً ليقول : بأن استعمال لفظ اليسر والعسر يمكن أن يضاف إلى الأشياء الحسية ، وها هي الأدلة والشواهد على ذلك فقد قيل : يُسِّرُ الرَّجُلُ ، إِذَا تُنَجَّتْ مَوَاشِيهِ وَكَثُرَ أَوْلَادُهَا ، فَعِنْدَمَا تَتَوَالَدُ مَا شِئْتَهُ وَيَكْثُرُ خَيْرُهَا وَأَوْلَادُهَا فَلَا شَكَّ بِأَنَّهُ قَدْ يُسِّرُ » .

ويقول الشاعر :

يَعُدُّ الْفَتَى مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ غَنَاها مِنْ صَدِيقٍ مُيَسَّرٍ
وقال آخر :

إِنَّ لَنَا شَيْخَيْنِ لَا يَنْفَعَانِنَا غَنِينِ لَا يُجْدِي عَلَيْنَا غَنَاهُمَا
هما سيّدانا يزعمان وإّما يَسُودَانِنَا أَنْ يَسَّرَتْ غَنَاهُمَا
ومعنى البيت : إنّ هذين الشيخين يزعمان بأنهما سيّدان لنا ،
ومع العلم أنهما لا يُجديان نفعاً ، ولا أرى السيادة لهما إلاّ لأن
نتجت أغنامهما وزاد نسلها ولبنها . .

فنحن نرى بأن لفظ اليسر ورد في البيتين بمعنى الزيادة في الغنم
والماشية بأن كثر لبنها ونسلها وسهلت ولادتها وتكاثرت . .

وفي هذا أبلغ الردّ على من زعم أن اليسر والعسر لا يستعملان
في الأمور الحسيّة ، ومعنى ذلك أنّ ما ذهبتم إلى الاستدلال به حجة
داحضة على الحالين في الأحوال المعنوية والأمر الحسية ، وقد تمّ
الردّ عليكم في الصورتين ، فهل هناك انقطاع وإقامة حجة عليكم أكثر
من هذا . .

كما يأتي بمعنى ثانٍ لليسر فيقول : [وقد قيل في ذلك كيلٌ
يسير ، أي : سريع لا حبس فيه ، وذلك أنّ القوم كانوا يُحسّون على
الباب ، وكان يوسف يقدمهم على غيرهم] . فهذا معنى ثانٍ لليسر
وهو السريع ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ أي : سريع ليس فيه طول انتظارٍ
ولا ترقب ، ولا حبس ، بل بمجرد إقبالنا على يوسف ومعنا أخونا
فسوف نحصل على بغيتنا من حمل البعير ، وذلك كيل يسير سريع
سهل متيسر لا مشقّة فيه ، وذلك أنّ يوسف عليه السلام كان يوليهم
الاهتمام فيقدمهم على غيرهم . وهو أمرٌ معنوي . .

ويذكر معنىً ثالثاً فيه فيقول : [وقد قيل : إن معنى الكيل هنا
السعر . أخبرني : أبو عمر عن أبي العباس قال : والكيل بمعنى
السعر ، يقال : كيف الكيل عندكم ؟ أي : كيف السعر ؟ وقد أنشدنا
عمر بن أبي عمرو والشيباني عن أبيه :

فإن تك في كيل اليمامة عُسرةً فما كيل مَيَّافَرِقِينَ^(١) بأعسراً]

وهذا معنى جديد يسوقه الإمام الخطابي في تعريف الكيل ،
وهو السَّعْرُ ، وعلى هذا فلا غرابة في استعمال لفظ اليسر معه ، لأنه
الذي يليق به والسعر أمرٌ محسوس ، « سَعْرٌ يسيرٌ » أي : سعرٌ بسيطٌ
زهيدٌ ، ومعنى البيت إذا كان في سعر اليمامة عُسرةً وجهدٌ ، فإن
مَيَّافَرِقِينَ لا تقلَّ عنها في هذا الباب والنصب الذي تعانيه .

[وكقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وانطلق الملائم منهم أن امشوا
واصبروا على آلهتكم ﴾ والمشى في هذا ليس بأبلغ الكلام ، ولو قيل
بدل ذلك : أن امضوا وانطلقوا لكان أبلغ وأحسن] .

وهذا اعتراض آخر يسوقه الإمام الخطابي - رحمه الله - عن
أولئك المبطلين ، الذين ينكرون مجيء عبارات القرآن في أفصح
وجوه البيان وأحسنها ، فيقولون في قوله تعالى : ﴿ وانطلق الملائم

(١) مَيَّافَرِقِينَ : مدينة بديار بكر من أرض أرمينية ، مدينة حسنة حصينة في
حضيض جبل . قال بعض الظرفاء : سُمِّيَتْ بذلك لأن ذا الرُّمة أو غيره من
العشاق لو وصل إلى هذه المدينة بالاتفاق ، وشاهد وجوه أهلها الملاح ،
والعيون السقيمة الصحاح ، وسمرة الشفاه اللعس ، وحمرة الوجنات ،
لقال لصاحبه (مي) : فارقيني ولا ترافقيني .

الروض المعطار في خبر الأقطار - لمحمد بن عبد المنعم الحميري -
تحقيق إحسان عباس - الطبعة الثانية - ص ٥٦٧ - ومعجم البلدان - لياقوت
الحموي - تحقيق فريد عبد العزيز الجندي - الطبعة الأولى - ص ٢٧٣ .

مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ يقولون :
 إن التعبير بلفظ المشي ليس فيه شيء من البلاغة ، فلو قال القرآن بدل
 ذلك : أن امشوا وانطلقوا ، لكان أبلغ وأحسن . .

يرد الإمام الخطّابي : ليس الأمر كما ذكر ، ذلك أن الآيات
 لا تتفق مع ما ذكره ، ذلك أنه لما مرض أبو طالب ، جاءت قریش
 رسول الله ﷺ وعند رأس أبي طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كي
 يمنعه ، وشكوه إلى أبي طالب ، فقال : يا ابن أخي ما تريد من
 قومك ؟ فقال : يا عم ، إنما أريد منهم كلمة ، قال : وما الكلمة ؟
 قال : كلمة واحدة ، قال : وما هي ؟ قال : « لا إله إلا الله » قال :
 فقاموا وقالوا : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ » فنزل فيهم القرآن :
 ﴿ ص ﴾ والقرآن ذي الذكر ﴿ بل الذين كفروا في عِزَّةٍ وشِقَاقٍ ﴾ كم
 أهلكننا من قبلهم من قرنٍ فنادَوْا ولات حين مناص ﴿ وعَجِبُوا أَنْ
 جاءَهُمْ منذرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحرٌ كذاب ﴾ ﴿ أجعل الآلهة
 إلهاً واحداً إنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجَاب ﴾ وانطلق الملائمة منهم أن امشوا
 واصبروا على آلِهَتِكُمْ إنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿ ص (١ - ٦) .

تعجب رؤوس الشرك من توحيد الله وقالوا : ﴿ أجعل الآلهة
 إلهاً واحداً إن هذا لَشَيْءٌ عَجَاب ﴾ كيف يكون إلهٌ واحدٌ يرزق
 الجميع ، وينظر في كلِّ أمورهم ؟ وانطلق الملائمة منهم أن امشوا
 واصبروا على آلِهَتِكُمْ « أوصى بعضهم بعضاً بأن يسيروا على
 طريقتهم ، وأن يداوموا على سيرتهم » - من الكفر والضلال - وكأنه
 يقول بعضهم لبعض : لا تكثرثوا بما يقوله محمد ﷺ ، ولا تبالوا

بدعواه ، بل استمروا بثبات على النهج الذي اعتنقتموه من الكفر به ، هذا الذي يسفه أحلامكم ، ويزدري آلهتكم ، ويدعي خلاف المعتاد بأن جعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيءٌ عجاب ، غاية في العجب والاستغراب ، فامشوا بثبات على المنهج ولا تضطربوا ولا تقلقوا ، فإنما هي دعاوى لا تؤمن بها ، ولا ندين ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاقٌ ﴾ محض كذب وافتراء وهكذا ، فإنما يناسب ما هم فيه ، والخط الذي رسموه لأنفسهم أن يسيروا من غير اضطراب ، وهذا إنما يناسبه « المشي » الذي هو الاستمرار على نفس الشيء المعتاد الذي ألفوه ، ووضعهم وحالهم إنما يتناسب معه (المشي) لا الانطلاق ، لأن الانطلاق انزعاج وخروج عن المألوف ، وعن العادة ، وهم لا يريدون ذلك ، وإنما يريدون الاستمرار على العادة ، والمنهج الذي اختطوه لأنفسهم ، لا الخروج عليه ، وكأنهم لا يكثرثون لأمر النبي ﷺ ولا يعينهم في شيء ، وأن دعواه بأن الآلهة إلهٌ واحد ، وما يردده من دعوى الوحدانية كلها أمور لا ينبغي أن نزعج لها ، ولا أن نهتز لها ، ولا نبتس لها ، لأنها أباطيل مختلفة ، ومحض كذب وافتراء ، فلا تعيروها اهتماماً ، وسيروا على طريقتم ، ودوموا على سيرتكم ﴿ بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ الزخرف (٢٢) .

وهذا معنى قول الخطابي رحمه الله : [وأما قوله سبحانه : ﴿ إن امشوا واصبروا على آلهتكم ﴾ وقول من زعم أنه لو قيل بدله : امضوا وانطلقوا كان أبلغ على الأمر على ما زعمه ، بل المشي في هذا المحل أولى وأشبه بالمعنى ، وذلك لأنه إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ولزوم السجية المعهودة في غير انزعاج منهم

ولا انتقال عن الأمر الأول ، وذلك أشبه بالثبات والصبر المأمور به في قوله : ﴿ وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾ والمعنى كأنهم قالوا : امشوا على هينتكم وإلى مهوى أموركم ، ولا تعرجوا على قوله ، ولا تبالوا به . وفي قوله : امضوا وانطلقوا زيادة انزعاج ليس في قوله امشوا ، والقوم لم يقصدوا ذلك ولم يريدوه [(١)] .

وفي الآية استعارة فقد شبه التزامهم نهجاً معيناً ، وسيرهم على هذا النهج دون انزعاج في معتقداتهم الفاسدة ، شبه بتتابع الخطى في المشي بجامع عدم الانزعاج في كلِّ ثم أدخل المشبه في جنس المشبه به وجعله فرداً من أفرادهِ وواحداً من جنسه ، ثم أطلق لفظ المشبه به وهو المشي على التابع وهو الاستمرار على النهج ، واشتق من لفظ استمر بمعنى مشى على كذا اشتق منه امشوا ، بمعنى استمروا على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية وهي تصريحية ، لأنه صرح بلفظ المشبه به فيها وهو امشوا ، والتبعية لأنها جرت في المشتقات ، لأن امشوا فعل أمر ..

وهكذا اتضح لنا بأن لفظ « المشي » بمعنى السير على نهج واحد يتأتى معه المشي وهو يتأتى مع حالهم ، على هذه الدعاوى التي جاءت من النبي ﷺ وقد نسفت معتقداتهم وأراقت دماءهم ، وقطعت أرحامهم .. اصبروا على معتقداتكم ولا تعبؤوا بما يقوله هذا الرسول ، وهذا يقتضي أن تمشوا على تودة ومهل وهويني ، ولا تبالوا بما يقوله هذا النبي من تسفيه أحلامكم ، وتقبيح آلهتكم ،

(١) رسالة بيان إعجاز القرآن - للخطابي - ص ٤٠ .

والانطلاق : سرعة الذهاب ، واستطلقَ الظبي : استنق في عدوه فمضى ومز لا يلوى على شيء ، والطلق : الشأؤ . لسان العرب .

فأنتم على نهج لا ينبغي أن تغيروه . ومعنى الانطلاق فيه ما فيه من الانزعاج الذي يشعر بانبهارهم بالرسالة ، وجزعهم مما جاء به النبي ﷺ ، وهم لا يريدون ذلك ، فكان أن رَسَخَ بطلان ما ادعاه أولئك المغرضون ، وسوء فهمهم ، وضعفهم عن فهم بلاغة هذا الكلام المعجز ، الذي فصّلت آياته من لدن حكيم خبير . إنهم عاجزون عن إدراك شأو هذه البلاغة وكفى . .

[وقيل : بل المشي ها هنا معناه التوفر في العدد والاجتماع للنصرة ، دون المشي الذي هو نقل الأقدام من قول العرب : مشى الرجل : إذا كثر ولده ، وأنشدوا :

والشاةُ لا تَمْشِي على الهمَّعِ

أي : لا يكثر نتاجها ، والهمَّعُ : الذئب [(١)] .

يذكر الخطابي هنا وجهاً آخرأ في معنى « المشي » غير الثبات على الحال ، والمداومة على الطريقة ، وهو التوفر والاجتماع للنصرة ، دون المشي الذي هو نقل الأقدام ، فقوله تعالى : ﴿ امشوا واصبروا على آلهتكم ﴾ أي : اجتمعوا وتوفروا على مناصرتها ، لأن ما جاء به محمد ﷺ شيء من نوائب الدهر فلا انفكاك عنه ، وما غرض محمد إلا أن يستولي علينا فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد .

وعلى هذا « فامشوا » من المشاء ، ولا من المَشِي ، والمَشَاء : نماء المال وزيادته ، يقال : مَشَى الرجلُ ، وأمَشَى : إذا نما ماله ، قال الشاعر :

وكلُّ فتىٍّ وإن أمشَى وأثرى ستَحْلِجُه عن الدنيا مُنون

(١) بيان إعجاز القرآن - للإمام الخطابي - ٤٠ .

وتقول العرب : مشى الرجل إذا كثر ولده . وأنشدوا :

والشاةُ لا تَمْشي على الهمَلَعِ^(١)

أي : لا يكثر نتاجها ، الهمَلَعُ : الذئبُ ، كأنهم أرادوا أن
المَسَاءَ والبركة في صبرهم على ألتهم . .

قال الزمخشري : « ويجوز أنهم قالوا : امشوا أي : اكثروا
واجتمعوا ، من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها ؛ ومنه الماشية
للتفاؤل » . وقيل لها : الغاشية .

[وكقوله : ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴾ وإنما يستعمل لفظ الهلاك
في الأعيان والأشخاص كقوله : هلك زيد ، وهلك مال عمرو
ونحوهما ، فأما الأمور التي هي معان وليست بأعيان ولا أشخاص
فلا يكادون يستعملونه فيها . ولو قال قائل : هلك عن فلان علمه أو
هلك جاهه ، على معنى ذهب علمه وجاهه ، لكان مستقبحاً غير
مستحسن] .

يستمر الإمام الخطابي رحمه الله في الرد على العائنين على
القرآن الكريم في اختيار ألفاظه وأن القرآن الكريم قد استعمل بعض
الألفاظ وليست بالأفصح ، من هذا قوله تعالى : ﴿ هَلَكَ عَنِّي
سُلْطَانِيَّةٌ ﴾^(٢) فالهلاك نادراً ما يستعمل في الأشياء المعنوية كالعلم
والشجاعة فيقول الخطابي : إنَّ في زعمهم أن الهلاك لا يستعمل إلا

(١) قال الراجز :

لا تأمريني بنات أسفع فالشاةُ لا تَمْشي مع الهملع
والهمَلَعُ ، والسملَعُ : الذئب الخفيف ، وقوله : لا تَمْشي مع الهملع ،
أي : لا تكثر مع الذئب ، لأنه ينقض عليها فينقصها . . لسان العرب .

(٢) الحاقة (٢٩) .

في تلف الأعيان ، فإنهم ما زادوا على أن عابوا أفصح الكلام وأبلغه ، لأن الاستخدام في الأشياء المعنوية قد يكون على سبيل الاستعارة ، والاستعارة قد تكون أبلغ من الحقيقة في بعض المواضع خذ مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَأَيَّةَ لَهْمٍ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مَبْصُرُونَ ﴾^(١) فقد شبه انكشاف وإزالة الضوء عن مكان الليل بكشط الجلد عن الشاة ، فكما أن سلخ الجلد يكون بالتدرج حتى يكشط عن جسد الشاة فكذلك إنحسار ضوء النهار ليعقبه الليل بعد ذلك إنما يكون بالتدرج ، والجامع لهما ترتب أمر على آخر بحصوله عقبه ، كترتب ظهور اللحم على السلخ والكشط وترتب حصول الظلمة على إزالة ضوء النهار عن مكان ظلمة الليل ، والاستعارة تصريحية تبعية .

فهل يخالغ أدنى من له مسكة من أدب أن الاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة؟! والسلخ ها هنا مستعار كما أوضحنا وهو أبلغ من لو قال : ﴿ نخرج منه النهار ﴾ وكذلك قوله سبحانه وتعالى لنبية محمد بن عبد الله ﷺ : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ فالمستعار منه في الآية كسر الزجاج وهو أمرٌ حسي باعتبار متعلقه ، والمستعار له التبليغ جهراً ، والجامع التأثير الذي لا يمكن معه ردّ كل منهما على ما كان عليه ، أي : أظهر الأمر إظهاراً لا ينمحي كما أن صدع الزجاج لا يلتئم ، وإجراء الاستعارة هكذا : شبه التبليغ جهراً بكسر الزجاج . بجامع التأثير الشديد في كل ، واستعير المشبه به وهو « الصدع » للمشبه وهو التبليغ جهراً واشتق منه « اصدع » بمعنى « بلغ » جهراً على طريق الاستعارة

(١) يس (٣٧) .

التصريحية التبعية ، والصدع إنما يكون في الزجاج ونحوه من فلز الأرض ، ومعنى الصدع هنا المبالغة فيما أمر به حتى يؤثر في النفوس والقلوب تأثيراً تستقر به آياته ، وتثبت في النفوس عظاته تأثيراً لا ينمحي ولا يزول ، بل يثبت ويرسخ ، شأن الصدع في الزجاج ، وكيف أنه يشرخها فلا تعود تلتئم :

إن القلوب إذا تنافرت وُدَّها مثل الزجاج كسرُها لا يُجبر
وكذلك قوله سبحانه : ﴿ هَلَكَ عَنِي سُلْطَانِيَّةٌ ﴾ . فقد شبه فناء الشيء بالإهلاك والإزالة التامة بجامع عدم الانتفاع والاستفادة في كل ، ثم اشتق من الهلاك هلك بمعنى فني وذهب وأزِيل ، على سبيل الاستعارة التصريحية ، لأنه صرح بلفظ المشبه به « الإهلاك » التبعية لأنها جرت في المشتقات « هلك » ، والاستعارة هنا لا شك أبلغ من الحقيقة ، لأن خروجه على الحقيقة بمعنى « ذهب » قد يكون على مرصدة العود فالشيء الذي يذهب قد يعود ، ولكن ليس مع الهلاك بقيا ولا رجعى ، فالهلاك الفناء الذي لا يرجى معه عودٌ والفناء الذي بلغ الغاية في بابه ، وكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة فيما ذكر أن المعنى مع الاستعارة قد بلغ الغاية في بابه ، وأعلى الدرجات في تحقيق معناه فهي أبلغ للأسباب التالية :

١ - أن الحقائق تجهض المعاني ، وتجعلها ملموسة محسوسة ، وآفاقها ضيقة على عكس الخيال الذي يكسبها خصوبة ، ويجعلها رائعة رائعة في بابها .

٢ - الأمر الثاني التلازم الذي تفيده الاستعارة ، فلفظ الإهلاك يلازمه الفناء والإجهاز والانتهاى وهو الغاية في بابه ؛ فلفظ الأسد تلازمه الشجاعة والافتراس الذي هو الغاية في بابه ، واختيار القرآن

الكريم لهذه الألفاظ هو اختياره للألفاظ النموذجية المثالية في بابها ، والتي لا يقوم غيرها مقامها الأخص الأشكل بها ، فكونه أطلق لفظ الإهلاك فمعناه الإفناء الذي قد بلغ مداه وأقصى درجاته ، فإذا تصورته في العز والسلطان فمعناه قد انطمس حتى لم تعد له قائمة ، وإذا تصورته في الصدع فمعناه أن التأثير قد بلغ غايته ومداه ، حتى لم يدع موضعاً في النفس إلا وقد أحدث تأثيره فيه وإذا تصورته في الليل فمعناه أن الظلمة قد عمّت الكون في تدرج حتى عمّ الليل الكون بانحلاكه وغسقه ولم يُبق أثراً لضوء النهار ، وكل ذلك في تصوير يملأ النفس ، ويبهرها فترق له القلوب ، وتسحر بجلاله وعظمته ، وذلك سر عظمة القرآن وسر إعجازه الذي لا يتناهى ، وناهيك فذلك تنزيل الحكيم الخبير . .

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَهُ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهُ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهُ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهُ * خَذُوهُ فَعُغْلُوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ الحاقة (٢٥ - ٣٢) .

نزلت الآيات في الأسود بن عبد الأسد وهو أول من يؤتى كتابه بشماله وقد كان عدو الله من كبار المؤذنين لرسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفِينَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ الحجر (٩٠ - ٩٦) .

وقد كفاه المولى سبحانه المستهزئين بمصائب أصابتهم لم يسع فيها الرسول الله ولا تكلف لها مشقة . قال عروة وابن جبير : هم

خمسة : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن
المطلب ، والحارث بن الطلائفة والأسود بن عبد يغوث . .
﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴾ قال ابن عباس « حجتني » ضلّت عني
حجتني ، وقال ابن زيد يقول ذلك ملوك الدنيا ، وكان عضد
الدولة بن بويه لما تسمى بملك الأملاك غالب القدر لم يفلح وَجُنَّ ،
فكان لا ينطلق لسانه إلا بقوله : ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴾ البحر
المحيط - لأبي حيان - ط ١٤١٢ هـ - ٢٦١ - الجزء العاشر - مطبعة
دار الفكر .

[وكقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ . وأنت
لا تسمع فصيحاً يقول : أنا لحب زيد شديد ، وإنما وجه الكلام
وصحته أن يقال : أنا شديد الحبّ لزيد ، والمال ، ونحوه] .

هذا اعتراض ساقه الإمام الخطابي - رحمه الله - في سلسلة
الاعتراضات التي يسوقها عن أولئك الذين ينكرون عن عبارات القرآن
الكريم أنها وقعت في أفصح الألفاظ ، وفي أفصح وجوه البيان
وأحسنها ، ويتذرّعون في ذلك بوجودهم أشياء في عبارات القرآن
بخلاف ما تواضع عليه أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها . فقالوا :
ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ فقالوا : أنت
لا تسمع فصيحاً يقول : « أنا لحب زيد شديد » والصواب ؟ قالوا :
الصواب أن تقول : « أنا شديد الحبّ لزيد » وعلى هذا فلا فصاحة
تذكر في الآية ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً . .

والرد على هؤلاء أن نرجع إلى تفسير الآيات من سورة
العاديات قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ وإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ
لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * فالمولى سبحانه يقسم : ﴿ إِنَّ

الإنسان لربّه لکنودٌ ﴿ وفي الحديث^(١) « الكنود يأكل وحده ويمنع رفته ، ويضرب عبده » وعن ابن عباس والحسن : هو الجحود لنعمة الله تعالى : وقال ابن قتيبة : أرض كنود : لا تنبت شيئاً . ﴿ وإنّه على ذلك لشهيدٌ ﴿ يشهد على كنوده ولا يقدر يجحده لظهوره ، وربّه شاهد عليه ، ﴿ وإنّه لحبّ الخير لشديد ﴿ أي : المال ﴿ لشديد ﴿ قوي في حبه ، ويقال للبخيل الشديد والمتشدد : البخيل . قال طرفة بن العبد البكري^(٢) :

أرى الموت يعتامُ الكرامَ ويصْطفي عقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشددِ
إذا عرفنا هذا ، واتضح لنا أنّ الكنودَ والشديد بمعنى واحد ، وهو البخيل الحريص ، لم يكن هناك أي استغراب في تأخير وصف (الشديد) إلى آخر الآية لأن المقام يقتضيه ، لأن هذا المتصف

(١) تفسير البحر المحيط - الجزء العاشر - ٥٢٩ .

(٢) البيت من معلقة طرفة بن العبد البكري يريد أن يقول فيه : أرى الموت يختار الكرام بالإفناء ويصطفي كريمة مال البخيل المتشدد بالإبقاء ، وقيل : بل معناه أن الموت يعم الأجواد والبخلاء ، فيصطفي الكرام وكرائم أموال البخلاء ، يريد أنه لا تخلص منه لواحد من الصنفين ، فلا يجدي البخل على صاحبه بخير ، فالجواد أحرى لأنه أحمد .

المفردات : الاعتيام : الاختيار ، العقائل : كرائم المال والنساء ، الواحدة : عقيلة ، الفاحش : البخيل ، المتشدد : يمكن أن يكون بمعنى البخيل كما ذكر فيفيد المبالغة ، أي : وإنه من أجل حُبّ المال لبخيل ، ويمكن أن يكون بمعنى المبالغ في البخل ، ويمكن أن تكون الآية « وإنّه لكثير الحبّ لجمع المال » .

معاني القرآن وإعرابه - للزجاج - تحقيق عبد الجليل شلبي - الجزء الخامس الطبعة الأولى - دار الحديث بالقاهرة - ص ٣٥٤ .

شرح المعلقات السبع - للزوزني - دار الكتب العلمية بيروت - ص ٥٣ .

بصفة البخل قد أعماه حبّ المال وتعلقه به حتى وصل إلى درجة الجحود والظلم وغمط الحق ، فكان التناسق يقتضي بتأخير الوصف بالشدة إلى آخر الآية ، وتقديم الجار والمجرور عليه ، لأن في تقديم الجار والمجرور ما يدل على أنه موضع عناية واهتمام منه ، أي : حب المال ولذلك جاء باللام التعليلية ، أي : هو بسبب حب الخير ولأجل حب المال (شديد) ممسك ولا تبص يده ولا تسح بعباء ، وإنه لأجل حب المال وإيثاره لبخيل .

وهذا معنى قول الإمام الخطابي : [وأما قوله سبحانه : ﴿ وإنه لحبّ الخير لشديد ﴾ وأن الشديد معناه ها هنا البخيل ، ويقال : رجل شديد ومتشدد أي : بخيل . قال طرفة : أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفّي عقيلة مال الفاحش المتشدد واللام في قوله : ﴿ لحبّ الخير ﴾ بمعنى لأجل حب الخير وهو المال لبخيل [(١)] .

وأما حبّ المال باعتدال فلا شيء فيه فهو أمر مغروز في النفوس تحنّ إليه وتميل وتحبه حباً طاغياً ، كما قال تعالى في سورة الفجر : ﴿ وتحبّون المال حباً جماً ﴾ الفجر (٢٠) .

وقال تعالى : ﴿ زُيِّنَ للناسِ حبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنينِ والقناطرِ المُقنطرةِ من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المسومةِ والأنعامِ

(١) رسالة بيان إعجاز القرآن - للخطابي - (٤٠ - ٤١) .

قال قتادة : الخير من حيث وقع في القرآن الكريم (هو المال) قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ البقرة (١٨٠) . والخير في الآية الكريمة بمعنى (المال) .

والْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَأْبِ ﴿١٤﴾ آل عمران . (١٤)

فالمولى جلّت قدرته وتسامت حكمته خلق هذه الدار وأنشأ الجبلّة على الميل لها ، فزينها سبحانه للابتلاء قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ والمال فتنة ، لأنه يحصل به غالب الشهوات ، وبه تتحقق كثير من مآرب الحياة فالنفس تميل إليه وتشتهيه ، وهذه الغريزة لا تُدَمُّ إن كانت باعتدال ، وأما المستقبح المستهجنُ فأن تكون سبباً في الظلم ومنع الحقّ والبخل والحرص الذميم .

[وكقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ ولا يقول أحد من الناس : فعل زيد الزكاة ، إنّما يقال : زكى الرجل ماله ، وأدى زكاة ماله ، أو نحو ذلك من الكلام]^(١) .

وفي إطار الرد على أولئك المرجفين الذين يقولون : نحن لا نسلم لكن ما ادّعيتموه من أن العبارات الواقعة في القرآن ، إنما وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها ، لوجودنا أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها ، يسوق الإمام الخطابي اعتراضاً جديداً ساقوه في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ قالوا : ولا يقول أحدٌ من الناس « فعل زيد الزكاة » إنّما يقال : زكى الرجل ماله أدى زكاة ماله أو نحو ذلك من الكلام . .

يقول الإمام الخطابي - رحمه الله - ليس الأمر على ما زعمه أولئك لأن المقصود تخصيص هؤلاء بالزكاة لا يشركهم فيها غيرهم ، وكأن المولى عزّ وجل يقول : هؤلاء هم الذين يفعلون

(١) بيان إعجاز القرآن - للإمام الخطابي - ٣٥ .

الزكاة لا غير اختصاصهم وخصهم بهذا الوصف . والتخصيص مبني على المبالغة ، غيرهم لا يشركهم فيها ، فكأن المولى قصر هذه الصفة عليهم لا غيرهم مبالغة في وصفهم دون غيرهم ، فكأنهم لحرصهم على أدائها والمواظبة عليها صارت تلك سمة لازمة ومميّزة لهم أختصوا بها فهم للزكاة فاعلون ، والقصر هنا قصر ادعائي جاء من ناحيتين :

١ - من ناحية ضمير الفصل « هُم » ويكون المقصور « الزكاة » والمقصور عليه « هُم » ، وكأن أداء الزكاة مقصور عليهم بضمير الفصل (هُم هُم) لا يشركهم غيرهم فيه .

٢ - والناحية الثانية : القصر عن طريق ما حقه التأخير وهو ﴿ للزكاة فاعلون ﴾ لأن « الزكاة » الجار والمجرور خبر مقدم « وفاعلون » مبتدأ مؤخر ، فكأنه قصر فعلهم على الزكاة فقط لا يتجاوزونها إلى غيرها من باب المبالغة ؛ ذلك أن الإنسان يصدر عن ثلاثة أشياء : « نية وقول وعمل » فهؤلاء تمثلوا هذه الأمور الثلاث ، حتى أصبحت صفة راسخة لهم ، ولازمة لا تفارقهم فما أن تراهم حتى تعلم بأنهم الذين جبلوا على هذا الوصف ، وأدمنوا عليه حتى عُرفوا به ، فهم الذين للزكاة فاعلون لا غير ، اختصاص لا ينفك واختيار التعبير باسم الفاعل « لأنه يدل على وجود الحدث والتلبس بصاحبه » كما تقول : « زيد الضارب » أو « زيد المجتهد » أي : فاعل الضرب ، زيد المجتهد ، أي : الملازم للاجتهاد ، بخلاف التعبير بالفعل ، فإنه لا يدل عليه كما تقول : « ضرب زيد » أي : قد يكون ضرب ثم كف وترك ، لكن الضارب بخلافه فهو يدل على الثبوت والرسوخ الذي لا ينفك فهو مستمر ، ومثله : ﴿ للزكاة

فاعِلون ﴿ يدلّ على رسوخ هذا الوصف وثباته واستمراره « فهم الفاعلون للزكاة » الذين لا ينفكّون عن أدائها ، وإعطائها ، وإيتائها ، وهي صفة ترسّخت فيهم ، تميّزهم عن غيرهم ، ولا ينازعهم فيها غيرهم . . . وهذا معنى قول الخطابي - رحمه الله - [وأما قوله عز وجل : ﴿ والذين هُم للزكاة فاعلون ﴾ وقولهم : إن المستعمل في الزكاة المعروف لها من الألفاظ ، الأداء والإيتاء ، والإعطاء ، ونحوها كقولك : أدّى فلان زكاة ماله وآتاها وأعطائها ، أو زكى ماله ، ولا يقال : فعل فلان الزكاة ، ولا يُعرف ذلك في كلام أحد .

فالجواب : أن هذه العبارات لا تستوي في مراد هذه الآية ، - وذلك لما فصلناه سابقاً - من إرادة المولى تخصيصهم بهذا الوصف ليس إلّا - وإنما تفيد حصول الاسم فقط ، ولا تزيد على أكثر من الإخبار عن أدائها فحسب] . فإن ما ذكر من ألفاظ سابقة لا يعدو أن يكون إخباراً بإخراج الزكاة وتأديتها ، وليس هذا هو المراد من الآية ، وليس هذا هو معناها الأخصّ الأشكل بها في إفادة بيان مراد الخطاب ، فهو لا ينبىء إلا عن حدوثها ، وحصول اسم الزكاة بها ، ولا تزيد على أكثر من الإخبار عن أدائها فحسب ؛ ومعنى الكلام ومراده ليس هذا ، وإنما مراد الخطاب ، تخصيصهم بهذا الوصف ، مبالغة وقصر ادعائياً وكأنهم للحرص على أدائها والمواظبة على إخراجها ، أصبحت تلك صفة لازمة لهم فيصير أداء الزكاة فعلاً لهم مضافاً إليهم يُعرفون به ، ويتميزون ، « فهم له فاعلون » . وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة « ﴿ الذين هم للزكاة فاعلون ﴾ بالقصر الذي يفيد التخصيص ، وبلفظة « فاعلون » التعبير

« بالفعل » وكأن الأمر ليس قصداً ونيةً وقولاً فقط ، بل هو يترجم إلى فعل يميزهم عن غيرهم ، فهم للزكاة فاعلون ، هم الذين يفعلونها لا يشركهم فيها غيرهم ، والكلام مبني على المبالغة في وصفهم بهذه الصفة دون غيرهم ، لأن هناك من يؤدي زكاة ماله ، لكن هؤلاء تميزوا عن كل أحد بأنهم يحرصون عليها ، ويسارعون لها ، لا يتجاوزونها إلى غيرها ، وكأنها شغلهم الشاغل ، فكان نعتهم باسم الفاعل ، وبلفظ الفعل الذي لا يؤدي ولا يقوم غيره مقامه ، في إفادة بيان مراد الخطاب في هذه الآية الكريمة ، وتلك بلاغة القرآن ، الذي يضع كل لفظة موضعها الأخص الأشكل بها في إفادة بيان مراد الخطاب « فهي إذاً أولى العبارات وأبلغها في هذا المعنى » إذن فالتعبير بلفظ : « فاعلون » في قوله تعالى : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ هو أولى العبارات وأفصحها وأبلغها في إفادة بيان مراد الخطاب ، وأبلغها في هذا المعنى ، وهذا يؤكد ما قلناه سابقاً في مجيء القرآن الكريم بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف ، مضمناً أصح المعاني . .

لأن الإنسان أقوال وأفعال ؛ النية تتحول إلى نطق باللسان ، ثم إلى حركة فلما كانوا في مرحلة أنهم للزكاة فاعلون ، فمعنى ذلك أنّ الزكاة ثبتت في جزء من أفعالهم ، ورسخت في نفوسهم ، وأصبحت صفة مركوزة في طباعهم راسخة لهم ، كما ثبتت ورسخت الأفعال في كياناتهم وفي ذاتهم . .

الإنسان من صفاته أن يفعل في العادة ، فأثبت لهم الزكاة وقرنها وألصقها بالصفة الراسخة في الإنسان وهي صفة الفعل ليكتسب الإنسان صفة أنه مزكّ دائماً ، وهذه لا تيسر ولا تفهم

ولا يفيدها المعنى إذا قيل : هم يزكون ، صحيح أنه قد يقال : إنه فعل وإنه يفيد التجدد والحدوث ، بخلاف فاعلون اسم الفاعل ، قلت : قد قدمت سابقاً وذكرت أن اسم الفاعل يدلّ على وجود الحدث والتلبس بصاحبه ، كما تقول : زيد الضارب ، أو زيد المجتهد ، أي : فاعل الضرب ، والملازم للاجتهاد ، فهي صفة راسخة وثابتة ومتأصلة لا تنفك . .

[وقد قيل : إن معنى الزكاة ها هنا : العمل الصالح الزاكي ، يريد والله أعلم : والذين هم للأعمال الصالحة ، والأفعال الزاكية فاعلون]^(١) وعلى هذا التخريج فلا إشكال ولا اعتراض ، فهم للأعمال الصالحة فاعلون ، والأعمال الصالحة كلمة جامعة ، وتندرج تحتها الأفعال والأقوال . . والحمد لله رب العالمين والله أعلم .

[وكقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾] هذا اعتراض جديد يسوقه الإمام الخطابي - رحمه الله - حول الذين يقللون من بلاغة وفصاحة الأسلوب القرآني ، وينكرون مجيئه بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصح المعاني ، من هذا قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾^(٢) فيقولون : كيف يتفق في الفصاحة أن تقول : لمن أحببته : جعلت له وداً أو حباً ، وإنما الأفصح أن يقال : وددته أو أحببته ، فيرد عليهم الإمام الخطابي بأن الأمر ليس كذلك ، والكلام إنما جاء على بابه ، وعلى ما تقتضيه الفصاحة ومراد الخطاب ، فالحقّ عز وجل أراد أن يزفّ

(١) بيان إعجاز القرآن - للخطابي - ٤١ .

(٢) سورة مريم (٩٦) .

البشرى للمؤمنين بأنه سيحدث لهم في القلوب مودة ، ويزرعها لهم من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التي يكتسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع مبررة ، أو غير ذلك ، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة ، كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاماً لهم وإجلالاً لمكانهم^(١) .

فهي بشارة ترف للمؤمنين ، بأن الحق عز وجل قد أكرمهم بزرع المودة لهم في القلوب ، فهي تحبهم ، وهذا الحب يستلزم أن المولى قد أحبهم ، فالحديث « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إني قد أحببت فلاناً ، فأحبه ، قال : فينادي في السماء ، ثم تنزل له المحبة في الأرض » .

كل هذا تكريم لهم ، وتلك ثمرة حبهم لمولاهم ، وارتباطهم به ، وتعلقهم فكان أن أكرمهم الحق جل جلاله ، بأن ألقى حبهم في قلوب بعضهم بعضاً فهم يتعاطفون ويتحابون ، وهذه المنحة ، وذلك الكرم منه سبحانه عصمة لهم وتفضل عليهم وتثبيت لهم فهم يتعاطفون دون أن يشعروا ، فالألفة حاصله ، والمحبة مغروسة ، وتلك عاقبة الإيمان وثمرته ، أن غرس الحق سبحانه حبهم وأوجده وأثبته وجعله بينهم ميزة يتميزون بها وهدية يشمخون بها ، ومنحة يتغنون بها ﴿ سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ كل ذلك كرمًا منه سبحانه فالجزاء من جنس العمل ، فهم لإيمانهم وتصديقهم وقيامهم بواجباتهم ، وارتباطهم بمولاهم ، كان أن حباهم الحق جلت قدرته هذا النور الذي قذفه في قلوبهم ، فهم يتحابون ويتوادون ، دون أن

(١) الكشاف - للزمخشري .

يكون لهم علاقة في هذا الحب ، ودون أن يكون لهم جهدٌ في هذا الحب ، وإنما هي كرامة لأوليائه وإيثارٌ منه سبحانه لمن أطاعه وأقبل عليه .. (١)

قال تعالى : ﴿ ونزَعْنَا ما في صُدُورِهِمْ من غَلٍّ إِخْوَانًا على سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ وهذا معنى قول الخطابي رحمه الله . [وأما قوله عز وجل : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ وإنكارهم قول من يقول : جعلت لفلان وداً بمعنى وددته ، فإنهم قد غلطوا في تأويل هذا الكلام ، وخرجوا به عن مراد الخطاب ، وذهبوا عن المراد فيه ، وإنما المعنى : إن الله سيجعل لهم في قلوب المؤمنين ، أي : يخلق لهم في صدور المؤمنين مودةً ، ويغرس لهم فيها محبة كقوله عز وجل : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ النحل (٧٢) أي : خلقَ] . فهي مخلوقة معدودة مهياًة ثبتت ورسخت وتأصلت ..

ويحتمل أن تكون الآية متصلة بما قبلها في المعنى ، أي أن الله تعالى لما أخبر عن إتيان كل من في السموات والأرض في حال العبودية والانفراد ، أنس المؤمنين بأنه سيجعل لهم في ذلك اليوم (وداً) وهو ما يظهر عليهم من كرامته ، ولأن محبة الله للعبد إنما هي ما يظهر عليه من نعمه وأمارات غفرانه (٢) .

[وكقوله سبحانه : ﴿ ومن يُرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ وكقوله سبحانه : ﴿ أولم يروا أنّ الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهنّ بقادر ﴾ فأدخل الباء في قوله : ﴿ بإلحاد ﴾ وفي قوله ﴿ بقادر ﴾ وهي لا موضع لها هنا ولو قيل : ومن يرد فيه إلحاداً

(١) إعجاز القرآن - للخطابي - ٤١ .

(٢) البحر المحيط - لأبي حيان - الجزء السابع - ٣٠٤ .

بظلم ، وقيل : قادرٌ على أن يحيي الموتى ؛ كان كلاماً صحيحاً لا يشكل معناه ولا يشتهه . ولو جاز إدخال الباء في قوله : بقادر لجاز أن يقال : ظننت أن زيداً بخارج ، وهذا غير جائز البتة [١] .

وهذا اعتراض جديد يسوقه الإمام الخطابي رحمه الله عن أولئك الطاعنين في فصاحة ألفاظ القرآن وبلاغة تراكيبه ، وهذا الاعتراض الجديد يتمثل في الباء الداخلة في الآيات الكريمة التالية ، قالوا في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ الحج (٢٥) .

وفي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُمُ الْجَبَلُ بِظُلْمٍ يُذِقُونَ ﴾ الأحقاف (٣٣) .

فقالوا : إن الباء زائدة هنا ، ولا موضع لها هنا ، لو قيل : ﴿ ومن يُرد فيه إلحاداً بظلم ﴾ ، أو لو قيل : « قادر على أن يحيي الموتى » لكان أفصح وكان كلاماً صحيحاً لا يشكل معناه ولا يشتهه .

يقول الإمام الخطابي رحمه الله في دخول الباء في الآيات : إن هذا الحرف كثيراً ما يوجد في كلام العرب الأول الذي نزل القرآن به ، أي : العرب الفصحاء ذوي البلاغة واللسن ، فإن ورود هذا الحرف في كلامهم كثير ، وهؤلاء هم الذين تحداهم القرآن ونزل بلغتهم فهم أرباب الفصاحة والبيان ، الذين يحتج بكلامهم ، وهذه بضاعتهم ولسانهم وما برعوا فيه ، والقرآن الكريم إنما نزل بلسانهم ، هؤلاء العرب الخالص ، الذين يستشهد بقولهم ويحتج

(١) بيان إعجاز القرآن - للخطابي - ٣٥ .

بيانهم ، نجد أن دخول الباء في كلامهم كثير ، ولا يستغرب ! ولم يروا فيه خللاً بالفصاحة ، ولا انحداراً في البيان ، على عكس المتأخرين الذين يندر وجود مثل هذه الزيادات في كلامهم ؛ ثم يقول الخطابي : [وأخبرني الحسن بن عبد الرحمن عن أبي خليفة عن محمد بن سلام الجمحي قال : قال أبو عمرو بن العلاء : اللسان الذي نزل به القرآن وتكلمت به العرب على عهد النبي ﷺ عربية أخرى عن كلامنا هذا . وقد زعم بعضهم أن كلام العرب كان باقياً على نَجْرِهِ الأول ، وعلى سَنَخِ طبعه الأقدم إلى زمان بني أمية ثم دخله الخلل فاختلف منه أشياء] .

يريد أن يقول الخطابي : إن كلام العرب والذي نزل به القرآن الكريم عربية أخرى غير كلامنا هذا من حيث أنه لا يزال على صفائه ورونقه وفصاحته ، لم تخلطه العجمة ففسده ، فهو يحتفظ بوجهه ، فتلك عربية سليمة ، لم تدنسها أقدار اللغات الأعجمية ، أما عربيتنا فيما بعد عصور الإسلام وبني أمية ، فقد أثر عليها الاختلاط ، وظهر أثره واضحاً جلياً في فساد اللسان ونشوء اللحن ، وظهور اللكنة والحُكْلَة^(١) في الكلام ، وهذا معنى قول الخطابي : [وقد زعم بعضهم أن كلام العرب كان باقياً على نجره الأول وعلى سنخ طبعه الأقدم^(٢) إلى زمان بني أمية ، ثم دخل الخلل فاختلف منه أشياء] .

(١) الحُكْلَة : العجمة في الكلام .

(٢) نَجْرِهِ الأول : النجر : الأصل والطبع وفي اللسان النجر والتَّجَارُ والتَّجَارُ : الأصل والحَسْبُ ، ويقال التَّجْرُ : اللون .

وسنخ الطبع : فهو أصل الطبع وفي اللسان ، السِنخُ : الأصل من كل شيء وسنخ في العمل سنوخاً : رسَخَ فيه .

يعني أن الكلام الذي يحتج به ولم تشبه شائبة ، إنما ينتهي بانتهاء عصر بني أمية ، ذلك هو عصر ازدهار اللغة ، وتلك هي عصور الاحتجاج ، ونحن نعلم عن بني أمية أنهم كانوا يتعصبون لكل ما هو عربي ، وكانوا يفرقون من اللحن ، وكانوا يبعثون أبناءهم إلى البادية لتعلم العربية ، وعندما كان الخليفة الوليد بن عبد الملك « يلحن » كانوا يشتمزون منه ولا يكادون ، وكان أبوه يقول أَضْرَّ بالوليد حبنا له حيث لم نبعثه إلى البادية فنشأ « لحنه » ولذا جعل أئمة اللغة عصور الاحتجاج إنما تنتهي بالنصف الأول من القرن الثاني الهجري حوالي ١٥٠ هـ ، وحتى بشار بن برد إنما ألحق بأهل الاحتجاج خشية سلاطة لسانه ، وإلا فقد كان يُعَدُّ في المولدين ، وقد أثر عن أئمة اللغة قولهم : « أخذنا اللغة عن حَرْشَةِ الضَّبِّ وأَكَلَةِ اليرْبُوعِ » أي : من العرب الخُلص الذين لم تتسرب إليهم أمراض الاختلاط ، وفساد اللسان ، فالعربية ظلَّت على نجرها الأول وسنخ طبعها الأقدم كما هي في جاهليتها ، وعلى ما هي عليه في صدر الإسلام محتفظة بروائها ومائها ونقائها وصفائها خالصة من الشوائب ، تلك اللغة الفصيحة القحة التي لم تخالطها العجمة ، ولم تذهب بفصاحتها وبيانها ، فهي هي كما جاءت عن العربي الصميم ، وكما نزل بها القرآن الكريم . . كل ذلك إلى عهد بني أمية ثم دخلها الخلل فاختل منها أشياء . .

[ولذلك قال أبو عمرو حين أنشد قول امرئ القيس :

نَطَعْنُهُمْ سُلْكَى وَمَخْلُوجَةً كَرَّكَ لِأَمِينِ عَلَى نَابِلِ

ذهب من يحسن هذا الكلام . وأخبرني أبو عمرو عن أبي

الحسن العباس عن ذكره أن أبا عمرو أنشد قول الحارث بن حلزة :

وَزَعَمُوا أَن كَلَّ مِنْ ضَرْبِ الْعَيْرِ مَوَالٍ لَنَا وَأَنَا الْوَلَاءُ
 فقال : ذهب من يحسن هذا الكلام . قلت : ولهذا صار
 العلماء لا يحتجون بشعر المحدثين ولا يستشهدون به كبشار بن
 برد ، والحسن بن هانئ ، ودعبل ، والعتابي وأضرابهم من فصحاء
 الشعراء والمتقدمين في صنعة الشعر ونجره . وإنما يرجعون في
 الاستشهاد إلى شعراء الجاهلية وإلى المخضرمين ، وذلك لعلمهم
 بما دخل الكلام في الزمان المتأخر من الخلل أو الاستحالة عن رسمه
 الأول [١] .

وهذا الكلام يأتي تكملة لما سبق وكالتوشيح له ، في أن ما نزل
 به القرآن وتكلمت به العرب عربية أخرى ، وفي أن الكلام بقي على
 نجره وسنخ طبعه حتى زمان بني أمية .

يشفع أبو عمرو بن العلاء هذا بقول امرئ القيس :
 نطعنهم سُلْكى ومخلوجة

ثم يقول : ذهب من يحسن هذا ، يعني أن المتأخرين ومن
 شايعهم وأضرابهم لا يدركون مثل هذا الكلام ولا يفهمون معناه ،
 شأنهم في ذلك شأن الزيادات التي ترد في كلام العرب الأول الذي
 نزل القرآن به ، وهم لا يدركونه ولا يعرفون معناه يقول امرؤ القيس
 في قصيدته « يا دار ماوية » :

وَمِنْ بَنِي غَنَمِ بْنِ دُودَانَ إِذْ نَقَذُوا أَعْلَاهُمْ عَلَى السَّافِلِ
 نَطَعْنَهُمْ سُلْكَى وَمَخْلُوجَةً كَرَّكَ لِأَمَيْنٍ عَلَى نَابِلِ
 والسلكى : الطعنة المستقيمة تلقاء وجهه .

ومخلوجة : الطعنة ذات اليمين وذات الشمال ، المعوجة .

(١) بيان إعجاز القرآن - للخطابي - ٤٢ .

لَأَمِينٍ : سهم لأم عليه ريش لُوَامٌ .

نابل : الذي يعمل النبل .

قال أبو حنيفة الدينوري : سئل رُوْبَةٌ عن معنى هذا البيت فقال : حدثني أبي عن أبيه قال : حدثتني عمتي - وكانت من بني دارم - قالت : سألت امرأ القيس وهو يشرب طلاء له مع علقمة بن عبدة : ما معنى قولك : « كَرَّكَ لَأَمِينِ عَلَى نَابِلٍ » ؟ فقال : مررت بنابيل وصاحبه يناوله الريش لُوَاماً وظهاراً فما رأيت شيئاً أسرع منه ولا أحسن فشبته به . واللُوَام : أن تكون الريشة بطنها إلى ظهر الأخرى ، وهذا محمود في ريش السهام ، واللغاب : بعكس اللُوَام ، وهو أن يكون ظهر الواحدة إلى ظهر الأخرى ويسمى ذلك الظهار أيضاً^(١) .

وأما قول الحارث بن حلزة الشكري :

زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ الْعَيْدَ - رَمُوَالٍ لَنَا وَأَنَا الْوَلَاءُ
فهي من معلقته وقبل هذا البيت يقول :

يَخْلُطُونَ الْبَرِيءَ مَتَا بَدَى الذَّنْبُ - بٍ وَلَا يَنْفَعُ الْخَلِيءُ الْخَلَاءُ
زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ الْعَيْدَ - رَمُوَالٍ لَنَا وَأَنَا الْوَلَاءُ
ومعنى البيت : أنهم يلزموننا ذنوب الناس ، أي : كل من ضرب (وتد الخيمة) ألزموننا ذنبه ، وهذا معروف أنه يقال لكل شيء ناتئ : عير ، فقيل للوتد : عير ، لتنوءه وقيل : إنه أراد بالعير (الحمار) ، أي : يلزموننا ذنب كل من ضرب حماراً ، وقيل : أراد بالعير كلياً ، ويقال لسيد القوم : هو عَيْرُ القوم ؛ زبدة الكلام : أنهم

(١) ديوان امرئ القيس بن حجر الكندي - الطبعة الأولى - بشرح السندوبي -

- أي : الأرقام - زعموا أنّ كلّ من يرضى بقتل كليب وائل بنو أعمامه وأنا أصحاب ولائهم تلحقنا جرائمهم .

ارتجل الحارث بن حلزة الإشكري هذه القصيدة بين يدي عمرو بن هند في شيء كان بين بكر وتغلب بعد الصلح ، وكان أبرصَ وكان ينشد من وراء سبعة ستور ، فأمر عمرو بن هند برفع الستور عنه استحساناً لها . ويبدو أن الأرقام ، وهم بطن من تغلب ومنهم كليب وائل ، كانوا يُنَعَوْنَ على قبيلة الشاعر ولاءهم لبكر التي قتلت كليباً في القصة المعروفة في حرب البسوس ، والشاعر يُلَمِّحُ إلى هذا^(١) . .
فعندما أنشد أبو عمرو بن العلاء بيت الحارث بن حلزة الإشكري :

زعموا أنّ كلّ من ضَرَبَ العِيَدَ - رَمُوَالِ لَنَا وَأَنَا الْوَلَاءُ
قال : ذهب من يحسن هذا الكلام .

يقول الخطابي رحمه الله : [قلت : ولهذا صار العلماء لا يحتجّون بشعر المحدثين ولا يستشهدون به كبشار بن برد والحسن بن هانئ ودعبل والعنّابي وأضرابهم من فصحاء الشعراء والمتقدمين في صنعة الشعر ونَجْرِهِ ، وإنما يرجعون في الاستشهاد إلى شعراء الجاهلية وإلى المخضرمين وذلك لعلمهم بما دخل الكلام في الزمان المتأخّر من الخلل والاستحالة عن رسمه الأول]^(٢) .

(١) راجع في شرح البيت معلقة الحارث بن حلزة الإشكري بشرح الزوزني للمعلقات السبع - دار الكتب العلمية بيروت - ص ١٢٦ .

وشرح المعلقات العشر - للخطيب التبريزي - الطبعة الثانية دار الكتب العلمية بيروت - ص ٢٩٧ .

(٢) بيان إعجاز القرآن - للخطابي - ٤٢ .

يريد أن يقول الإمام الخطابي - رحمه الله - : ولهذا السبب في عدم إدراك المتأخرين كلام العرب الأول ، وحيث قد تسرب اللحن وعمت العجمة ، تحفظ علماء وأئمة اللغة في الأخذ عن المتأخرين كبشار وابن هانئ ودعبل وأضرابهم ممن وجدوا بعد عصر الاحتجاج ، وهؤلاء وأضرابهم معظمهم من الموالي ، وقد فسدت ألسنتهم ودخلها اللحن ، وهم قد وجدوا في العصر العباسي ، وإنما ظهر أثر الاختلاط على الألسنة في هذا العصر ، من هنا تحفظ علماء اللغة في الأخذ عن أمثال هؤلاء ورأوا بأن الاستشهاد لا يكون إلا بشعر الجاهلية والمخضرمين الذين لم تفسد أذواقهم ، ولم يتسرب اللحن إليها ، ولإدراكهم ما دخل الكلام في الزمان المتأخر من الخلل ، والاضطراب ، والاستحالة والبعد عن رسمه الأول ، وعن سنخ طبعه الأقدم .

[فمن لم يَقِفْ على هذه الأسباب ، ثم قاس ما جمعه من تِلَادٍ^(١) الكلام الأول ، واعتبره بما وجد عليه كلام الأنشاء المتأخرين ، عَيَّ بكثير من الكلام وأنكره ، وأما من تبحرّ في كلام العرب ، وعرف أساليبه الواسعة ، ووقف على مذاهبه القديمة فإنه إذا ورد عليه منها ما يخالف المعهود من لغة أهل زمانه لم يسرع إلى النكير فيه والتلحين . قال : قال ابن الخطاب : أنحى الناس من لم يُلْحَنَ أحداً]^(٢)

(١) تِلَادِ الكلام : قديمه ، وفي الحديث : « بني إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُولِ وهن من تِلَادِي » أي : من قديم ما أخذت من القرآن . اللسان الجزء الرابع .

(٢) بيان إعجاز القرآن - للخطابي - (٤٢ - ٤٣) .

يريد أن يقول الإمام الخطابي رحمه الله : فمن لم يقف على هذه الأسباب مجتمعة وهي فساد الألسنة ، وفشو اللحن لدى الشعراء المتأخرين ، نتيجة الاختلاط ، حتى أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يأمر أبا الأسود الدؤلي ، بوضع قواعد النحو والإعراب بعد أن سَرَى الفسادُ وتسَرَّب كثيرٌ من اللحن إلى الألسنة ، وكان ذلك في آخر الصدر الأول من الإسلام ، والقوم حديثو عهد بالفصاحة ، فما بالك بالقرون المتأخرة كالعصر العباسي ، وقد استشرى اللحن ، وعمّت العجمة ، وساد الفساد ، فمن لم يقف على هذه الأسباب مجتمعة ، وغاب عنه أنّ الكلام كان باقياً على نَجْرِهِ الأول ، وسَنَخ طبعه الأقدم حتى زمان بني أمية ، وأنّ كثيراً من الكلام أضحى منكوراً في العصور المتأخرة ، مَنْ جَهَلَ هذا ، ثم قاس ما وقع بين يديه من الكلام القديم على كلام الأنشاء من المتأخرين (عَيَّ) ^(١) بكثير من الكلام وأنكره ، لأن فساد الألسنة في الزمان المتأخر جعل المعروف منكراً ، وهذا يدفع من لم يقف على الأسباب المتقدمة أن ينكر كثيراً من الكلام ، بل إنكاره هذا قد يقوده إلى الوقوع في المحذور ، فينكر شيئاً من القرآن وتلك هي الهلكة ، لأنّ القرآن الكريم إنما نزل بكلام العرب الأول قبل نشوء اللحن والفساد ، من هنا قال أبو عمرو بن العلاء : اللسان الذي نزل به القرآن وتكلّمت به العرب على عهد النبي ﷺ ، عربية أخرى عن كلامنا هذا .

وأما من تبخر في كلام العرب الأول : وخبر أساليهم ، ووقف على مذاهبهم القديمة ، فإنه إذا ورد عليه منها ما يخالف المعهود من

(١) عَيَّ بالأمر : إذا عَجَزَ عنه . لسان العرب - المجلد التاسع عشر .

لغة أهل زمانه لم يسرع إلى النكير فيه والتلحين ، لماذا ؟ لأنه يعرف وجوه التخريج ، وقد سبر لغة القوم وعرف مداخل الكلام ومخارجه ، فهو بصير بما يرد عليه منها ، لذلك فإنه إذا ورد عليه شيء منها لم يسرع إلى النكير ، ولم يتعذر عليه وجه التخريج ، وإنما يجد للكلام مخرجاً ، فلا يقول : هذا خطأ وذلك غلط ، وهذا لحن ، وذاك فساد ؛ فإنه لا يستنكر أي شيء ولا يقول : إنه لحنٌ ، ولذا قيل : أنحى الناس من لم يُلحّن أحداً ، لأنه لا يفوته التخريج في أي شيء يُعْرَضُ حتى يجد له مسلكاً وشعبة من القول ، فهو بصير بأودية الكلام وقد تبهر في لغة العرب القدامى ، فإذا ما ورد عليه شيءٌ من ذلك ، فإنه لا تعوزه الحاجة ولا يشكل عليه الكلام حتى يجد له مخرجاً ، ما دام قد عرف المداخل والمخارج ، ووقف على تالد الكلام ، فبالتالي لن يستنكر شيئاً ، ولن يقول عنه : إنه لحن .

مقياس الفصاحة لدى علماء اللغة :

والذي استقر عليه الرأي بين جمهور العلماء من القدماء أن نصوص القرآن الكريم يحتج بها في تعديد قواعد اللغة ، ولا خلاف بينهم في هذا ، أما حين نظروا إلى المروي من الشعر العربي ، فقد أجمعوا على أنه يحتج بالشعر الجاهليّ كشعر امرئ القيس وطرفة زهير وأمثالهم ، كما يحتج بشعر المخضرمين ، وهم الذين عاشوا في الجاهليّة والإسلام ، ونظموا شعراً في المرحلتين كحسان بن ثابت رضي الله عنه وأمثاله ، وكذلك يحتج بشعر الإسلاميين حتى منتصف القرن الثاني الهجري من أمثال جرير والفرزدق والأخطل ، وإن كان بعض المتشدّدين من علماء العربية كأبي عمرو بن العلاء كان يرفض

الاستشهاد بالشعر الإسلامي . فيروى عنه أنه كان يقول : لقد حسن هذا المولد - يريد شعر جرير - حتى كدت أمر صبياننا بروايته !
ويقول عنه تلميذه الأصمعي : لقد لازمته عشر حجج فما سمعته يحتج بيبت إسلامي قط !!

[وسمعت ابن أبي هريرة يحكي عن أبي العباس بن سريج قال : سألت رجل بعض العلماء عن قول الله عز وجل : ﴿ لا أقسمُ بهذا البلدِ ﴾ فأخبر أنه لا يقسم ، ثم أقسم به في قوله : ﴿ والتين والزيتون ﴾ وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ .

فقال له ابن سريج : أي الأمرين أحب إليك ؟ أجيبك ثم أقطعك ، أو أقطعك ثم أجيبك ؟ قال : لا بل اقطعني ثم أجبني . فقال له : اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال ، وبين ظهراهم قوم أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمراً ، وعليه مطعناً ، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه ، ولكن القوم علموا وجهلت ، فلم ينكروا منه ما أنكرت . ثم قال له : إن العرب قد تدخل « لا » في أثناء كلامها وتلغي معناها كقول الشاعر :
في بئرٍ لا حُور سرى وما شَعَرَ

يريد في بئر حور سرى وما شعر [.

ويسوق الإمام الخطابي رحمه الله هذا الحديث عن ابن سريج أن رجلاً سأل بعض العلماء عن قوله تعالى : ﴿ لا أقسمُ بهذا البلدِ ﴾ فالآية تفيد بأن الحق عز وجل قد نفى قسمه بهذا البلد وهو (مكة المكرمة) وذلك ما تفيد « لا » .

ثم تأتي الآية الكريمة في سورة التين بالقسم بهذا البلد ، قال

تعالى : ﴿ والتين والزيتون ﴾ وطور سنين ﴾ وهذا البلد الأمين ﴾
فالسائل في حيرة من أمره أوقعته في اللبس ، وهو يريد توضيحاً
لهذا ، فكيف ينفي الحق تعالى القسم بهذا البلد ؟ ثم يقسم به بعد
ذلك ؟! فكان أن أجاب ابن سريج السائل قائلاً : أي الأمرين أحب
إليك ؛ أجيبك ثم أقطعك ، أو أقطعك ثم أجيبك ؟ يعني : أيهما
أحبّ إليك : أُوْبِّخُكَ وأُفْلِجُكَ بالحجة ثم أجيبك ، أم أترك تقرّيعك
إلى الأخير وأجيبك ؟ قال : بل قرعني ثم أجبني ، لأن تقرّيعك
يجعلني أجمع ذهني وأحزم أمري للاستماع إليك ، فإذا ما جاء
الجواب أصاب أثره في النفس ، وكان حريّاً بالقبول بعد أن استبان
الحجة واتضح السبيل ، فيكون له وقعه ، وقد تهيأت النفس
لاستقباله ، أما إذا جاء التقرّيع لاحقاً ، فقد يمحو أثر الكلام
السابق ، حيث يبقى أثر التقرّيع فيكون قد أطبق عليه من نواحيه ،
ومن هنا قال السائل : بل اقطعني ثم أجبني ، فقال له ابن سريج :
اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال ، وبين
ظهراني قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغزاً وعليه
مطعناً ، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه ،
وكأن ابن سريج يريد أن يقول له بأن القرآن نزل على قريش وهم أهل
الفصاحة واللسن ، وكانوا يَضَّغُونُ على رسول الله ، ولم يكونوا
ليفوتوا فرصة تُعْرَى للتقليل من شأنه والحطّ منه ، وكانوا من أحرص
الناس على أن يجدوا في القرآن شيئاً يغمزونه به وينالون منه ، فلو
بَدَرَ إلى ذهنهم في هذا الذي رأيت مناقضة ، لما قنعوا بالعدول عنه ،
ولتعلقوا به ، ولكثر القيل والقال ، هذا ابن الزبعرى أقبل حتى
جلس ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزُّبَعْرَى السَّهْمِيّ : قد

زعم محمد أتًا وما نعبد من آلهتنا هذه حَصَبُ جهنم - من قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ * لو كان هؤلاء آلهة ما وَرَدُوهَا وَكُلُّ فِيهَا خَالِدُونَ * لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴿ الأنبياء (٩٨ - ١٠٠) - فقال : ابن الزبيرى : أما والله لو وجدته لَخَصَمْتُهُ ؛ فَسَلُوا مُحَمَّدًا : أَكُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي جَهَنَّمَ مَعَ مَنْ عِبَدَهُ ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عُزَيْرًا ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ، فَعَجِبَ الْوَلِيدُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الزَّبْعَرِيِّ ، وَرَأَوْا أَنَّهُ قَدْ احْتَجَّ وَخَاصَمَ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الزَّبْعَرِيِّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ مَعَ مَنْ عِبَدَهُ ، إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ ، وَمَنْ أَمَرْتَهُمْ بِعِبَادَتِهِ » فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ذَلِكَ قَوْلَهُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿ الأنبياء (١٠١ - ١٠٢) ، أَي : عيسى بن مريم وعزير ومن عُبِدُوا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ الَّذِي مَضَوْا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، فَاتَّخَذَهُمْ مِنْ يُعْبُدُهُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (١) .

ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة ، وأنها بنات الله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿ إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

[ولكن القوم علموا وجهلت ، فلم ينكروا منه ما أنكرت] نعم القوم يدركون فصاحة القرآن ومناط إعجازه ، فهم قد علموا

(١) سيرة ابن هشام - الجزء الأول - دار الفكر - ٣٨٣ .

بسليقتهم وبطباعهم أن الكلام في ذروة السنام والغارب ، فأدركوا ما جهلت ، فلم ينكروا على فصاحة القرآن الكريم ما أنكرت ، إذ كانوا يدركون ذلك بطباعهم ، ويتبينون مواضع تلك الأمور ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ، ومن العهدة فيها . فلم ينكروا ما أنكرت ؛ وبعد أن بكتته وقطعه ، ابتداءً في الجواب فقال له : إن العرب قد تدخل « لا » في أثناء كلامها ، وتلغي معناها كقول الشاعر :

في بئرٍ لا حُورٍ سرى وما شعَرَ

يريد في بئر حور سرى وما شعر . والحور : الهلكة ، وتطلق على النقص .

وفي اللسان : « حار إلى الشيء وعن الشيء : رجع حوراً وحوراً ، وقول العجاج :

في بئرٍ لا حور سرى وما شعر

أراد : في بئر لا حور ، فأسكن الواو الأولى ، وحذفها لسكونها وسكون الثانية بعدها ، و« لا » هنا : صلة في رأي الأزهري ، وعند الفراء : أنها صحيحة قائمة ، والمعنى : في بئر ماء لا يحير عليه شيئاً » .

[قلت : فهذا وما أشبهه زيادات حروف في مواضع من الكلام ، وحذف حروف في أماكن آخر منها ، وإنما جاءت على نهج لغتهم الأولى قبل أن يدخلها التغيير ، ثم صار المتأخرون إلى ترك استعمالها في كلامهم . فافهم هذا الباب ، فإنك إذا أحكمت معرفته استفدت علماً كثيراً ، وسقطت عنك مؤونة عظيمة ، وزال عنك ريب القلب ، وتخلصت من شغب الخصم ، ولا قوة إلا بالله] .

بعد أن أورد الإمام الخطابي كلام المرجفين حول قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ ﴾ فأدخل الباء في قوله : بالحاد ، وفي قوله : بقادر ، وهي لا موضع لها هنا ؛ وقالوا : لو قيل : ومن يرد فيه إلحاداً بظلم ، وقيل : قادر على أن يحيي الموتى ، كان كلاماً صحيحاً لا يشكل معناه ولا يشبهه .
ولو جاز إدخال الباء في قوله : بقادر لجاز أن يقال : ظننت أن زيدا بخارج ، وهذا غير جائز البتة .

يرد الإمام الخطابي هذا الاعتراض بأن هذا من قبيل زيادة الحروف في مواضع ، وحذفها في مواضع أخرى ، وأن المعنى لا يتغير بحذفها ولا بذكرها ، وساق في هذا الصدد ، الكثير من الشواهد التي تثبت بأن هذا الأمر مألوف عند العرب ، وأنه جاء على نهج لغتهم الأولى ، قبل أن يدخلها التغيير ، وتسرّب إليها العجمة ، ثم صار المتأخرون إلى ترك استعمالها في كلامهم ؛ ومن الشواهد على ذكر اللام وعدم إرادة معناها قول الشاعر :

في بئر لا حور سرى وما شعر

يريد : في بئر حور سرى وما شعر ، والعرب تذكر (لا)

وتلغيه وتضم (لا) وتستعمله كما في قول الشاعر :

أوصيك أن تحمدك الأقاربُ أو يرجع المسكينُ وهو خائبُ

على معنى : وأوصيك أيضاً « ألا » يرجع المسكين وهو

خائب ، وقد جاء في التنزيل ترك (لا) لدلالة السياق عليها ، كما

قال عز من قائل : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا

أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ إذ المراد : « أن

لا يؤتوا أولي القربى » الخ وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ

يُطَيِّقُونَهُ فِدْيَةَ طَعَامٍ مَسْكِينٍ ﴿ المَرَادُ : « وَعَلَى الَّذِينَ لَا يَطَيِّقُونَهُ فِدْيَةَ طَعَامٍ مَسْكِينٍ » ، وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يَوْسُفَ ﴿ أَي قَالُوا : « تَاللَّهِ لَا تَفْتَأُ تَذَكُرُ يَوْسُفَ » لِأَنَّ فَتَىَّ وَبَرِحَ لَا تَسْتَعْمَلُ إِلَّا مَنَفِيَّةً ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :

فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَإِنْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي
أَي : لَا أَبْرَحُ قَاعِدًا .

ثُمَّ يَقُولُ الْإِمَامُ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَنَعُودُ إِلَى الْجَوَابِ عَنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ ﴿ فَنَقُولُ : إِنَّ الْبَاءَ كَانَتْ زَائِدَةً ، وَالْمَعْنَى : وَمَنْ يَرِدُ فِيهِ إِلْحَادًا بِظُلْمٍ . وَالْبَاءُ قَدْ تَرَادَدَ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْكَلَامِ وَلَا يَتَغَيَّرُ بِهِ الْمَعْنَى . كَقَوْلِكَ أَخَذْتَ الشَّيْءَ ، وَأَخَذْتَ بِهِ ، وَكَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

نَضْرَبُ بِالسِّيفِ وَنَرْجُو بِالْفَرْجِ

أَي نَضْرَبُ بِالسِّيفِ وَنَرْجُو الْفَرْجَ .
وَكَقَوْلِ الْآخَرِ :

هُنَّ الْحَرَائِرُ لَا رِبَاتٌ أَحْمَرَةٌ سَوْدُ الْمُحَاجِرِ لَا يَقْرَأَنَّ بِالسُّورِ (١)
أَي : لَا يَقْرَأَنَّ السُّورَ .

يَقَالُ : قَرَأْتَ الْبَقْرَةَ ، وَقَرَأْتَ بِالْبَقْرَةِ] .

كُلُّ هَذَا أوردته الإمام الخطابي ليقول بأن الباء جاءت في كل هذه الأمثلة زائدة ، لا يتغير المعنى بحذفها أو بذكرها ، ليخلص من وراء ذلك إلى الرد على الاعتراض الذي يقول بأن الباء في قوله تعالى : ﴿ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ ﴿ لا مسوِّغٌ لذكرها ، والواقع أن الباء في الآية الكريمة قد جاءت في موضعها ، لأنه ليس هناك زيادة في القرآن

(١) البيت للراعي النميري - عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل .

الكريم ، وكل كلمة هي في موضعها الأخصّ الأشكل بها في إفادة بيان مراد الخطاب ، والباء هنا جاءت للتوكيد ، أي : ومن يرد فيه « إلحاداً » فهو ظالم لنفسه - نذقه من عذاب أليم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (١) الحج (٢٥) .

وكذلك قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الأحقاف (٣٣) . أي : قادر ، والباء للتوكيد ، ومثلها في سورة القيامة : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ والمعنى : قادر على أن يحيي الموتى . والباء لتوكيد المعنى .

[قالوا : وإنما تدخل الباء في هذا المعنى مع حرف الجحد كقوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ وقد ضارع « ألم » في معنى الجحد « أليس » فألحق بحكمه ، قالوا : ودخول « أن » إنما هو توكيد للكلام . وأنشد الفراء في مثل هذه الباء :

فما رجعت بخائبة ركابٌ حكيماً بنُ المسيب منتهاها

قال : فأدخل الباء . قال : وتقول : ما أظنك بقائم ، فإذا حذف الباء نصبت الذي كانت فيه بما تعمل فيه من الفعل [(٢)] .

(١) ذكر صاحب مغنى اللبيب من معاني (الباء) الزائدة التوكيد وهي الواردة في الآية .

المغنى - ٩٩ - الجزء الأول .

(٢) بيان إعجاز القرآن - للخطابي - ٤٥ .

والمقصود هنا بكلام الخطابي أنّ الباء إنما تدخل مع حرف الجحد ، أنها إنما تكون في المسائل التي فيها شيء من الجحد والإنكار ، فإنّ البعث والنشور من الأمور التي يقع فيها الإنكار ، فناسب مجيئه مع حرف الجحد (ليس) المسبوق بهمزة الاستفهام ، ونفي النفي إثبات فكأنها ، أي : الباء تؤكد القدرة الربانية على النشور والخروج من القبور ، أي : هو قادر . « بلى بقادر » ، أي : قادر على أن يحيي الموتى .

وأما قول الشاعر :

فما رجعتُ بخائبةٍ ركابٌ حكيماً بن المسيّبٍ مُنتهاها

فالمعنى : فما رجعت حالة كونها خائبةً ركاب ، أمّلت حكيماً بن المسيّب ، وجعلته منتهى سعيها طمعاً في نواله . فخائبة هنا حال منصوبة منع من ظهور علامة النصب اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد ، والباء هنا للتوكيد ، أي : لن تخيب ركاب أزمعت السير إلى ابن المسيّب وجعلته منتهى غايتها ؛ ونظير هذه الباء قولك : ما أظنك بقائم . فالجار والمجرور متعلق بأظن وقائم : مفعول ثانٍ لأظن ، فإذا حذف الباء نصبت الذي كانت فيه الباء وهو قائم بما تعمل فيه من الفعل وهو أظن ، فيعود قائم مفعول ثانٍ لأظن ، ويصبح الكلام هكذا : ما أظنك قائماً . ويعرب قائم مفعول ثانٍ لأظن . والباء في كل هذا لتوكيد الكلام .

أهمية الحذف :

والحذف من الأمور التي وقف عندها البلغاء ، واسترعت انتباههم ، هذا الإمام عبد القاهر يقول عنه :

هو باب دقيق المسلك ، لطيف المآخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر ، أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة ، أزيد للإفادة ، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين ، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر ، وتدفعها حتى تنظر .

وهكذا يسترسل الإمام عبد القاهر في الحذف وسرّ جماله ، وأنه قد يكون أفصح من الذكر ، وهو باب شبيه بالسحر ، ويقف الإمام عبد القاهر حيال حذف المفعول طويلاً ، كما يتكلم عن حذف الفضلات وأن الحذف لا يكون إلا بقريته ، والقريته قد تكون لفظية ، وقد تكون حالية وأن الحذف لا بدّ له من غرض ، ولا يتأتى الحذف اعتباطاً ، وأفاض الإمام عبد القاهر في حذف المبتدأ ، وأنه جاء وفق سنن العرب في كلامهم ويستشهد على هذا بالبيت :

سريعٌ إلى ابن العمّ يلطمُ وجهَهُ وليس إلى داعي الندى بسريعٍ
حريصٌ على الدنيا مُضِيعٌ لدينه وليس لما في بيته بمضيعٍ
يقول : فتأمل هذه الأبيات ، وانظر إلى موقعها في نفسك ، وإلى ما تجده من اللطف والظرف ، إذا أنت مررت بموضع الحذف منها^(١) ثم قلبت النفس عما تجد ، وألطفت النظر فيما تحسّ به ، ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر ، وأن تخرجه إلى لفظك ، وتوقعه في سمعك فإن الشاعر يترفع عن ذكره حتى ضميراً فيحذف المبتدأ فيقول : سريع ولم يقل هو سريع ، وكأن الصفة أضحت ملازمة له ، وعلامة فارقة فيه « سريع » وليس إلى داعي الندى بسريع ، وأن ربّ حذف هو قلادة الجيد ، وقاعدة التجويد . .

(١) دلائل الإعجاز - للإمام عبد القاهر - ١١٢ .

على أن مما ينبغي التنبيه إليه أن القرآن الكريم لا يشمل على حذف ، والحذف هذا يقدره المتلقي ، والحذف لا يعدّ من القرآن ، وإنما هذا الكلام جاء وفق سنن العرب في كلامهم ، وإن اصطلاح المتأخرون على تسميته بالحذف .

[قالوا : وقد يوجد في القرآن الحذف الكثير والاختصار الذي يشكل معه وجه الكلام ومعناه كقوله سبحانه : ﴿ ولو أنّ قرآناً سُرِّتَ به الجبالُ أو قُطِعَتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى ﴾ الآية ، ثم لم يذكر جوابه ، وفي ذلك تبشير الكلام وإبطال فائدته] .

هذا اعتراض جديد في سلسلة الاعتراضات التي يسوقها من لا علم لهم ببلاغة القرآن الكريم وإعجازه الذي لا يتناهى ، فيقول قائلهم : وأين الفصاحة والبلاغة مع هذا الحذف الذي يشكل معه المعنى ووجه الكلام ولا يتضح ، ففي قوله تعالى : ﴿ ولو أنّ قرآناً سُرِّتَ به الجبالُ أو قطعت به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى بل لله الأمرُ جميعاً ، أفلم ييأس الذين آمنوا أنّ لو يشاء الله لهدى الناسَ جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنَعُوا قارعةً أو تحلّ قريباً من دارهم حتى يأتي وعدُ الله إن الله لا يخلفُ الميعاد ﴾ الرعد (٣١) . هنا لم يذكر جواب الشرط ، حيث ذكرت أداة الشرط وهي (لو) أداة شرط غير عاملة ، وجملة (سیرت به الجبال . .) فعل الشرط ، وبقي الجواب ، والواقع أن حذف الجواب هو البلاغة بعينها ، فالبلاغة هي الإيجاز هنا ، والإيجاز في موضعه ، وإنما حذف الجواب لتذهب النفس فيه كل مذهب ، وهذا أوقع في النفس وله أثره ، ولو صرح بالجواب لقيدت النفس بالألفاظ المنطوقة وإنما جاز

الجواب هنا وحسن ، لأن المذكور منه يدلّ على المحذوف والمسكوت عنه من جوابه .

فقوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآنًا سِيرت به الجبالُ أو قَطَّعت به الأرض أو كلّم به الموتى ﴾ فيه تعظيم لهذا القرآن الكريم ، وأنه لو كان قرآنًا تسير به الجبال عن مقارها ، أو تقطع به الأرض حتى تتزائل قطعاً قطعاً ، أو تكلم به الموتى فتسمع وتجب ، لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ، ونهاية في الإنذار والتخويف كما قال تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيتَهُ خاشعاً مُتصدِّعاً من خَشْيَةِ الله ﴾ فحذف الجواب لأن المذكور يدل عليه ، ولأن المفهوم من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به ، والحذف كما قلنا أبلغ من الذكر ، لأن النفس تذهب في تقدير الجواب كل مذهب ، فيتسع لها من التقدير ما يكون أليق بالمقام وأعظم في شأن هذا الكتاب العظيم ، بخلاف إذا ما ذكر الجواب فإن هذا فيه تضيق وحصر ، يمنع النفس أن تذهب في خلاف الوجه الذي تناوله الذكر ، فحذف الجواب كقوله : لو رأيت علياً بين الصفيين ! أي : لرأيت أسداً هزبراً مغواراً يفتك في الأعداء ، أما إذا تركت الجواب فإنك تدع للنفس متسعاً تتصور فيه بطولة عليّ ومدى بسالته وإيقاعه بالخصوم وفتكه بهم ، وهذا أبلغ من الذكر . وهذا معنى قول الخطابي رحمه الله : [وأما ما عابوه من الحذف والاختصار في قوله سبحانه : ﴿ ولو أن قرآنًا سِيرت به الجبالُ أو قَطَّعت به الأرض أو كلّم به الموتى ﴾ فإن الإيجاز في موضعه ، وحذف ما يستغنى عنه من الكلام نوع من أنواع البلاغة ، وإنما جاز حذف الجواب في ذلك وحسن ، لأن المذكور منه يدل على المحذوف والمسكوت عنه من جوابه ، ولأن المعقول

من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به ، والمعنى : ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن . وقد قيل : إن الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب في الحذف كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لكان مقصوراً على الوجه الذي تناوله الذكر ، فحذف الجواب كقوله : لو رأيت علياً بين الصَّفَّين ! هذا أبلغ من الذكر لما وصفنا [١] .

[وكقوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾] .
الآية ونظائرها . وفي نفس الاعتراض السابق من الحذف والاختصار ساقوا قوله تعالى : ﴿ وسيق^(٢) الذين اتَّقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى

(١) بيان إعجاز القرآن - للخطابي - ٤٧ .

قال ابن عباس : إن الكفار قالوا للنبي ﷺ : سير جبلي مكة قد ضيقا علينا ، واجعل لنا أرضاً قطعاً غراساً ، وأحي لنا آباءنا وأجدادنا ، فنزلت معلمة أنهم لا يؤمنون ولو كان ذلك كله - البحر المحيط - الجزء السادس - ٣٨٨ .

(٢) والسوق : عبر به عن الإسراع بهم إلى الجنة والمسوق دوابهم لأنهم لا يذهبون إليها إلا راكبين ، ولمقابلة قسيمهم ساغ لفظ السوق ؛ البحر المحيط - الجزء التاسع - ٢٢٤ .

وإذا الشرطية هنا من أدوات الشرط غير العاملة هي (ولو) وإنما تجيء للربط بين فعلين ولكنها لا تجزم ويقال للفعل الأول فعل الشرط وللثاني جواب الشرط ، ويقال فيها : هي أداة شرط منصوب بجوابه خافض لشرطه ، ذلك أن إذا الظرفية منصوبة وعامل النصب فيها جوابها ثم هي تضاف لما بعدها وفعل الشرط مضاف إليها والمضاف إليه مجرور فهو مخفوض بشرطه . من هنا قالوا : (إذا) الشرطية خافض لشرطه منصوب بجوابه .

وانظر إلى عظمة كتاب الله المعجز ، فعندما عبر عن أهل الجنة قال : ﴿ حتى إذا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ وفي صفة أهل النار قال : ﴿ حتى إذا=

إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴿ الزمر (٧٣) .

فقالوا بأن جواب « إذا » هنا محذوف ، وهذا عيب وإخلال بالمعنى يفسد به الكلام ويشكل به وجه الكلام ، وفي ذلك تبتير للكلام وإبطال فائدته ..

والرد على هؤلاء بأن الحذف في موضعه ، وحذف ما يستغنى عنه من الكلام نوع من أنواع البلاغة لأن البلاغة الإيجاز ، والبلاغة هي مراعاة مقتضى الحال ، بل إنَّ مراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة ، فالبلاغة لا تميل إلى الحشو ولا إلى الإطناب المخلّ ، وإنما تميل إلى وضع الشيء في موضعه ، ثم إن المسكوت عنه في حكم المنطوق ، إذا فهم من المذكور ، من هنا فإن في قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ ما فيه من البلاغة من حذف جواب (إذا) تذهب فيه النفس كل مذهب والحذف أبلغ من الذكر وكأنهم لما دخلوا الجنة حصلوا على أنواع النعيم المقيم الذي لا انقطاع له ولا تكدير فيه قال الزمخشري : « وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة فدل على أنه شيء لا يحيط به الوصف » فحق للنفس أن تذهب فيه كل مذهب . ومن هنا يتضح بأن الحذف أبلغ من الذكر ، إذ لو ذكر الجواب لقيدت به النفس وحصرت ، وأما مع الحذف فإن النفس

= جاؤوها فتحت أبوابها ﴿ لأن أبواب الشقاء والسجون تظل مغلقة لا يخرج ولا يدخل فيها إلا بإذن ، أما أبواب السعادة فهي مشرعة فهي مفتوحة حتى قبل أن يصلوا إليها مهياً ومشرعة ومفتوحة لاستقبالهم ، وفقنا الله لذلك .

تذهب فيه كل مذهب ، ويسبح الخيال في نعيم الجنة الذي لا ينقطع ، ولذتها التي لا تنقضي ، فساغ أن يحذف الجواب ، وأن تقدر النفس ما يليق بهذا النعيم المقيم ، الذي لا انقطاع له ، ولا تكدير فيه .

أهمية التكرار :

والتكرار باب عظيم الشأن ، نابه البرهان ، والتكرار المتزن نوع من الوزن « والوزن إذا ما قصد استعماله لأغراض شعرية ، أشبه ما يكون بالخميرة ، فالخميرة في حد ذاتها عديمة القيمة . . ومع ذلك فهي تضيف على الشراب الذي تمتزج به بنسب معقولة روحاً وحيوية »^(١) .

ومن تكرار الحرف ما يأتي عفواً فيثقل ، وما يأتي مصنوعاً فيكون أشبه بالمطبوع ، أو يظهر فيه التكلف فيزدري ، ونمثل لهذه الأنواع ، وأعلى ما نتخذ منه المثل الرائع هو القرآن الكريم ، الذي تداعت الحروف خلال تعبيره ، توفيراً لحسن الجرس ، وتآلف النظم إيقاعاً ومعنى على شاكلة تلفت النظر .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ فَلَآ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُوا بِمَا شَآءَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلُّوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء (٤) ، تأمل عدد الجيم في الجزء الأخير من الآية : ﴿ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ .

ثم الهاء ومواقعها في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ

(١) مبادئ النقد الأدبي - د . محمد مصطفى بدوي - ١٩٢ .

لا يهدي القومَ الظالمين * أولئك جزاؤهم أنَّ عليهم لعنة الله
والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ
ولا هُمْ يُنظرون ﴿ آل عمران (٨٦ - ٨٨) .

ثم لا تسأم . هذا لون من تكرر الحرف في القرآن ، على أبعادٍ
تُكسِبُ الكلامَ حسناً ولا تكدِّ السمع جساوة .

إن القيمة الموسيقية لتكرير الحرف دعت أناساً ليرسموا لها
حدوداً في البديع ، وليقفوا عندها موقفاً هندسياً في التركيب ،
يحصل للكلام به أنواع من التوازن الصوتي كما في « التوأم » و « لزوم
ما لا يلزم » و « الجناس » بأنواعه « والسجع » بأنواعه^(١) كما أن أناساً
من المتأخرين أدركوا الجمال الصوتي في التكرار الحرفي ، وشدة
العلاقة بين صوت الحرف المكرر ورسم الصورة ، فيقول صاحب
« فقه اللغة وخصائص العربية » : « فإذا استمعت إلى إنشاد بيت
البحثري في وصف الذئب الجائع المرتجف بسبب البرد ظننته
أمامك :

يُقَضِّضُ عُضْلاً فِي أَسْرَتِهَا الرِّدَى كَقَضِّضَةِ المَقْرُورِ أُرْعَدُهُ البَرْدُ
فإن تكرر القاف وتواليها خمس مرات ، وتكرر الراء ست
مرات مع الحروف الأخرى يوحي بصورة الذئب في ضراوته وجوعه
وارتجافه^(٢) .

وإنما يحسن التكرار ويكون له وقعه ، إذا جاء لفائدة
كالتوكيد ، وزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ، والإيقاظ من سنة
الغفلة ، ليكمل تلقي الكلام بالقبول وتذكر ما قد بعد بسبب طول

(١) التكرار بين المثير والتأثير - د . عز الدين السيد ، الطبعة الثانية - ٥٩ .

(٢) فقه اللغة وخصائص العربية (٢٦١) .

الكلام ، وزيادة المدح والتعظيم ، والتلذذ بذكر المكرر ، والتنويه بشأنه ، ولا ريب في قبح التكرار إذا خلا من نكتة ومثل ذلك ما كتبه عون إلى محمد بن عبد الملك :

قد بعثنا بتُحفة البستان بكرٍ ما قد جُنِي من الريحانِ
ياسميناً ونرجساً قد بعثنا وبعثنا شقائق النعمان
ولقبح هذا التكرار الخالي من الفائدة أجابه محمد بن عبد الملك بقوله :

عَوْنُ فَضِّ الإِلهِ فَآكٌ وَأدما هُ وَأَقْصَاكُ يا عَيْيَ اللسانِ
حشُوْ بَيْتِكَ قد وقد فإلى كم قَدَّكَ اللهُ بالحسامِ اليماني
[ثم قد يوجد على العكس منه التكرار المضاعف ، كقوله سبحانه في سورة الرحمن : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكذِّبانِ ﴾ وفي سورة المرسلات : ﴿ وِيلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وليس واحد من المذهبين بالمحمود عند أهل اللسان ، ولا بالمعدود في النوع الأفضل من طبقات البيان]^(١) .

وهذا اعتراض آخر يسوقه من وصفناهم بالمعترضين على عظمة كتاب الله وإعجازه والذين يقولون بأننا لا نسلم لكم ما ادعيتموه من أن العبارات الواقعة في القرآن إنما وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها ، لوجودنا أشياء منها بخلاف ذلك ، فهم بعد تشككهم وإيرادهم أمثلة على الحذف في القرآن ، أرادوا أن يجيئوا بعكسه فقالوا : وإلى جانب ما نشاهده من الحذف والاختصار الذي يشكل معه وجه الكلام أيضاً هناك التكرار المضاعف والإطناب ، وهذا الجنس ليس بالمذهب المحمود عند أهل اللسان ، ولا بالمعدود في

(١) بيان إعجاز القرآن الكريم - للخطابي - ٣٦ .

النوع الأفضل من طبقات البيان . وقد فَصَّلَ الإمام الخطابي القول في هذا ورد عليهم فقال : [وأما ما عابوه من التكرار فإن تكرر الكلام على ضربين : أحدهما مذموم ، وهو ما كان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول ، لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغواً وليس في القرآن شيء من هذا النوع]^(١) .

فالتكرار أحد قسمين : قسم مذموم ، يستغني عنه الكلام ، وليس من ورائه فائدة ، وهذا هو الحشو والإطناب الممل ، ويكون لغواً وحشواً لا مبرر له ، وليس في القرآن الكريم شيء من هذا .

وهناك القسم الآخر : وهو التكرار المحمود ، وهو ما كان بخلاف ما ذكرناه من الحشو والزيادة ، فهذا التكرار مطلوب ، لأن المقام يقتضيه ، وكما قلنا فإن مراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة ، وترك مثل هذا التكرار في موضعه موازٍ للقبح في الإتيان به في غير موضعه ، ومقامات الأحوال هي التي تحدّد ذلك وتفسّره ، ويذكر الخطابي البواعث النفسية الموجبة للتكرار فيقول : [وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة ، التي قد تعظم العناية بها ، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها]^(٢) « فالاهتمام ، وخوف وقوع الغلط أو النسيان أو الاستهانة ، علل نفسية تدعو إلى التأكيد بإعادة لفظ ما يهتم به ويخاف عليه »^(٣) .

[وقد يقول الرجل لصاحبه في الحث والتحريض على

(١) بيان إعجاز القرآن الكريم - للخطابي - ٤٨ .

(٢) بيان إعجاز القرآن الكريم - للخطابي - ٤٨ .

(٣) التكرير بين المثير والتأثير - د . عز الدين بن علي السيد - الطبعة الثانية - عالم الكتب بيروت - ٩٥ .

العمل : عَجَل عَجَل ، و ارم ارم كما يُكتب في الأمور المهمة على ظهور الكتب : مُهْمٌ مهمٌ مهم ، ونحوها من الأمور وكقول الشاعر :
هَلَّا سَأَلْتَ جُمُوعَ كِنْدَ دَةَ يَوْمَ وَلَوِ أَيْنَ أَيْنَا [١]

وقول الآخر :

يا آلَ بَكْرٍ انشروا لي كُليَباً يا آلَ بَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الْفِرَارُ [٢]

فالمخطابي يرى بأن التكرار إنما يكون في الأمور المهمة التي تعظم العناية بها ، ويخشى من التهاون بها والاستهانة بقدرها ، لذا نجد التكرار في القرآن إنما يأتي في مثل هذه المقامات قال تعالى :
﴿ القارعة ما القارعة ﴾ ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ وذلك لعظم شأنها ، فهي الحاقة التي تحق والتي تقع لأحقيتها بالوقوع ، إحقاقاً للعدل الإلهي وتقريراً للجزاء على الخير والشر ، ﴿ ما الحاقة ﴾ ؟ استفهام حافل بالاستهوال والاستعظام وإخراج المسألة عن حدود الإدراك .

وقد أخبر الحقّ جلّت قدرته بالسبب الذي من أجله كرر الأقاويص والأخبار في القرآن فقال سبحانه : ﴿ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ القصص (٥١) وقال تعالى : ﴿ وكذلك

(١) الشاعر عبيد الأبرص .

(٢) البيت لمهلل بن ربيعة وهو يخاطب قبيلة « بكر » وكان جساس بن مرة وهو ابن عم المهلهل [وكليب] سيد تغلب قد قتله غدرًا ، فلما علم مهلهل بذلك أعلن الحرب على بكر والتي استمرت زهاء أربعين سنة ، وعرفت (بحرب البسوس) وهنا يقول مهلهل مهدداً :

يا آلَ بَكْرٍ انشروا لي كُليَباً

بمعنى ابعثوه من البلى ، وهذا لا يقدر عليه سوى الحق جل شأنه .

يا آلَ بَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الْفِرَارُ ؟ !!

استفهام إنكاري ، أي : لا مفر لكم مني ، والتكرار هنا قد أصاب

موقعه .

أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿ طه (١١٣) .

فمن الأسباب التي نص فيها الله عز وجل وأخبر بوقوع التكرار في أخبار القرآن وأقاصيصه التذكير ﴿ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ صَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ أي : العظة والفكرة والاعتبار والتحريض على العمل ، وعدم النسيان والاستهانة بقدرها .

ومن هنا تتضح لنا أهمية التكرار ، وأن ترك التكرار في الموضوع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه هو هو في القبح ، إذا ما جيء به في الموضوع الذي لا يحتاجه ، وهو أشبه ما يكون بالزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف ، وهو بذلك يسوي بين الإيجاز والإطناب في الحسن واللزوم متى اقتضى أحدهما مقامه ، وفي الذم ووجوب الترك إذا جاء خارجاً عن المقتضى .

[وأما سورة الرحمن ؛ فإن الله سبحانه وتعالى خاطب بها الثقلين من الإنس والجن ، وعدّد عليهم أنواع نعمه التي خلقها لهم ، فكلما ذكر فصلاً من فصول النعم جدّد إقرارهم به واقتضاءهم الشكر عليه ، وهي أنواع مختلفة وفنون شتى ، وكذلك هو في سورة المرسلات ذكر أحوال القيامة وأحوالها ، فقدم الوعيد فيها وجدّد القول عند ذكر كل حال من أحوالها لتكون أبلغ في القرآن وأؤكد لإقامة الحجة والإعذار ، ومواقع البلاغة معتبرة لمواضعها من الحاجة]^(١) .

وأما سورة الرحمن فإن المولى يعدد فيها نعمه الكثيرة التي

(١) بيان إعجاز القرآن - للإمام الخطابي - (٤٨ - ٤٩) .

لا تُحصى ويخاطب الثقيلين قائلاً : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبتنا ﴾ ؟
 أي من هذه النعم يمكن أن يكذب بها . وكان هذا الخطاب للثقلين
 لأنهما داخلان في الأنام ويؤيد هذا قوله تعالى بعد ذلك ﴿ خلقَ
 الإنسان من صلصالٍ كالفخار ﴾ * وخلقَ الجنَّ من مارجٍ من نارٍ ﴿
 وقوله : ﴿ سنفرغُ لكم أيها الثقلان ﴾ * وكان التكرار في سورة الرحمن
 في غاية الجودة ، وقد أصاب الموضوع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة
 إليه ذلك أن الحق تبارك وتعالى خاطب الثقيلين من الإنس والجن
 وعدد عليهم أنواع نعمه التي خلقها لهم ، فكلما ذكر فصلاً من فصول
 النعم ، جدّد إقرارهم به واقتضاءهم الشكر عليه ﴿ فبأي آلاء ربكم
 تكذبان ﴾ * وأما في سورة المرسلات فقد ذكر الحقّ تعالى : أحوال
 يوم القيامة وأحوالها ، فقدم الوعيد فيها وجدّد القول عند ذكر كل
 حال من أحوالها ، لتكون أبلغ في القرآن وأؤكد لإقامة الحجة
 والإعذار قال تعالى : ﴿ فإذا النجومُ طُمِسَتْ * وإذا السماءُ فرِجَتْ *
 وإذا الجبالُ نسفتْ * وإذا الرُّسُلُ أُنقِذَتْ * لأيّ يومٍ أُجِّلَتْ * ليومٍ
 الفصلِ * وما أدراك ما يومُ الفصلِ * ويَلُ يومئذٍ للمكذِّبين * ألم
 تُهْلِكِ الأوّلين * ثمّ تُتْبِعُهُمُ الآخريّن * كذلك نفعَلُ بالمجرمين * ويَلُ
 يومئذٍ للمكذِّبين ﴾ المرسلات (٨ - ١٩) .

ومواقع البلاغة معتبرة لمواضعها من الحاجة « هذا الكلام هو
 محور الارتكاز وهو الذي تقوم عليه جميع المباحث البلاغية وهو
 مراعاة مقتضى الحال لأنّ مراعاة مقتضى الحال من أخص معاني
 البلاغة . فتدبره . وتلك سمة الإعجاز في كتاب الله العزيز .

[فإن قيل إذا كان المعنى في تكرير قوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما
 تكذبان ﴾ تجديد ذكر النعم في هذه السورة واقتضاء الشكر عليها ،

فما معنى قوله : ﴿ يَرْسَلُ عَلَيْكُمَا سُوءَ ظَنٍّ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَتَّصِرَانِ ﴾^(١) ثم أتبعه قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وأي موضع نعمه ها هنا ؟ وهو إنما يتوعدهم بلهب السعير والدخان المستطير [.

هذا تساؤل أن المولى عز وجل ذكر أنواع النعم في هذه السورة ، ووجد إقرارهم بها واقتضاءهم الشكر عليها ، فما النعمة في قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا سُوءَ ظَنٍّ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَتَّصِرَانِ ﴾ ثم أتبع الحق ذلك بقوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؟ وأي نعمة هنا .

والجواب : أن التحذير والإنذار من الوقوع في المكروه ، وأخذ الحيطة والحذر من ذلك نوع من أنواع النعم « لأن السلامة من أكبر النعم » وهذا معنى قول الخطابي رحمه الله : [قيل : إن نعمة الله تعالى فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها بإزاء نعمه على ما وعد وبشّر من ثوابه على طاعته ليرغبوا فيها ، ويحرصوا عليها . فالتنفير والتحذير من الوقوع في المكروه والسلامة منه يوازي الوعد والحث على المحبوب للترغيب فيه والحرص عليه ؛ وإنما تحقّق معرفة الشيء بأن يُعتبر بضدّه ليقف على حدّه ، والوعد والوعيد وإن تقابلا في ذواتهما فإنهما متوازيان في موضع النعم بالتوقيف على مآل أمرهما والإبانة على مواقع مصيرهما ، وعلى هذا ما قاله بعض حكماء الشعراء :

والحادثاتُ وإنْ أصابَكَ بُؤْسُهَا فَهُوَ الَّذِي أَنْبَاكَ كَيْفَ نَعِيمُهَا]^(١)

(١) بيان إعجاز القرآن - للخطابي - ٤٩ .

وختاماً

فإني في غاية السعادة والحبور ، وقد منّ الحق تبارك وتعالى
ويسّر لي هذه السياحة الإيمانية في رحاب هذه الدوحة الغناء ، أسبر
أغوارها ، وأقف على شيء من أسرارها ، تلك المعجزة الخالدة
والفرقان العظيم ..

وبعد ؛ فهذه قطرة من ذلك البحر المحيط ، وعلامة على
الطريق ، أمام هذا الإعجاز الذي لا يتناهى ، وسوف يجد كل باحث
في إعجاز القرآن الكثير الكثير من الآيات والملاحم التي تؤكد عظمة
كتاب الله تعالى ، وصدق ما جاء به رسول الله محمد بن عبد الله
ﷺ ، والقرآن مآدبة الله في أرضه ، الذي لا تنقطع عجائبه ولا يخلق
على كثرة الرد ، أسأل الحق عز وجل أن يتقبل مني هذا العمل ، وأن
يفتح لي به أبواب السعادة والتوفيق ، وأن يبارك لي فيما أعطاني إنه
ولي ذلك والقادر عليه ، وأن يجد القارئ لهذا السفر ما يثلج
الصدر ، ويقوي الإيمان ، ويرسخ العقيدة ، والله من وراء القصد ،
وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً ، والحمد لله رب العالمين .



ثبت المصادر والمراجع

- أولاً : كتاب الله العظيم المعجزة الخالدة - القرآن الكريم .
ثانياً : كتب التفسير :
- ١ - البحر المحيط - لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي الغرناطي - دار الفكر بيروت .
 - ٢ - تفسير ابن كثير - للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي - دار إحياء التراث العربي بيروت .
 - ٣ - عناية القاضي وكفاية الراضي - الشهاب على البيضاوي .
 - ٤ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - محمد بن علي الشوكاني - دار المعرفة بيروت .
 - ٥ - في ظلال القرآن الكريم - سيد قطب - دار الشروق .
 - ٦ - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي .
- ثالثاً : كتب السنة :
- ١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بيروت .
- رابعاً : كتب السيرة النبوية :
- ١ - الروض الأنف - للإمام المحدث عبد الرحمن السهيلي - تحقيق عبد الرحمن الوكيل - مكتبة ابن تيمية القاهرة .
 - ٢ - سيرة ابن هشام - الناشر مكتبة الكليات الأزهرية .
- خامساً : كتب الإعجاز :
- ١ - إعجاز القرآن الكريم - لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني - تحقيق السيد أحمد صقر - دار المعارف بمصر .

- ٢ - إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية - لمصطفى صادق الرافعي - الناشر دار الكتاب العربي بيروت .
- ٣ - رسالة بيان إعجاز القرآن الكريم - للإمام الخطابي .
- ٤ - قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية - د . عبد العزيز عرفة .
- ٥ - معترك الأقران في إعجاز القرآن - للإمام أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي .
- سادساً : كتب التراجم :
- ١ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - للسيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية بيروت .
- ٢ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - للمؤرخ الأديب أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي .
- ٣ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان - تحقيق د . إحسان عباس - دار صادر . بيروت .
- سابعاً : كتب المعاجم :
- ١ - لسان العرب - لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري .
- ٢ - مختار الصحاح - لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي .
- ٣ - المعجم الوسيط .
- ثامناً : كتب بلاغية :
- ١ - التكرير بين المثير والتأثير - د . عز الدين بن علي السيد - عالم الكتب بيروت .
- ٢ - دلائل الإعجاز - للإمام عبد القاهر الجرجاني - شرح محمد عبد المنعم خفاجي .

تاسعاً : كتب أدبية :

١ - الأغاني - لأبي الفرج الأصفهاني - طبعة دار الشعلة ١٣٨٩ هـ .
٢ - ديوان امرىء القيس بن حجر الكندي - بشرح السندوبي - دار الكتب العلمية .

٣ - شرح المعلقات السبع - للزوزني - دار الكتب العلمية .

٤ - شرح المعلقات العشر - للخطيب التبريزي - دار الكتب العلمية .

٥ - العمدة - لابن رشيقي .

٦ - نقد الشعر - لقدمة بن جعفر - تحقيق محمد عبد المنعم

خفاجي .

٧ - الوساطة بين المتنبى وخصومه - للقاضي علي بن عبد العزيز

الجرجاني - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي - مطبعة عيسى البابي الحلبي .

عاشراً : كتب نحوية :

١ - مغني اللبيب عن كتب الأعراب - لابن هشام الأنصاري - دار

إحياء الكتب العربية .

الحادي عشر : كتب قرآنية :

١ - مباحث في علوم القرآن - مناع القطان .

٢ - مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب .

٣ - معاني القرآن الكريم وإعرابه - للزجاج - تحقيق عبد الجليل

شلبي - دار الحديث بالقاهرة .

الثاني عشر : كتب جغرافية الأقطار :

١ - الروض المعطار في خبر الأقطار - لمحمد عبد المنعم

الحميري - تحقيق إحسان عباس .

٢ - معجم البلدان - لياقوت الحموي - تحقيق فريد الجندي .

الثالث عشر : كتب أخرى :

١ - الرسالة للإمام الشافعي - تحقيق محمد سيد كيلاني .

فهرس الموضوعات

الصفحة	المقدمة
٧	الإهداء
٩	المقدمة
١٣	تعريف بالإمام الخطابي صاحب الرسالة
١٤	دور الإمام الخطابي في قضية الإعجاز
١٥	آراء الإمام الخطابي في الإعجاز والتأنيح التي انتهى إليها
٢٣	عملي في شرح رسالة الإمام الخطابي
٣١	القول بالصرفة .. النظام والصرفة
	الجاحظ والصرفة .. انصراف سليمان مع ملكه العظيم عن معرفة بلقيس مع
٣٢	قرب دارها
٣٣	انصراف يعقوب عن معرفة مكان يوسف ويوسف عن معرفة مكان أبيه
٣٣	تفنيد قول الجاحظ والرد عليه
٣٦	إنما يبعث النبي من جنس ما برع فيه قومه
٤٠	الزعم بأن إعجازه فيما تضمنه من الأخبار المستقبلية والرد عليه
٤٢	الزعم بأن إعجازه من جهة البلاغة
٤٤	من الكلام ما يسحرك ولكن تعجز عن التعبير عنه
٤٩	دراسة الإمام الخطابي لأجناس الكلام
	إعجاز القرآن يتجلى في جمعه بين هذين الوصفين المتنافرين الفخامة
٥٠	والعدوبة والعدوبة نتاج السهولة
	الرد على لإمام الخطابي في قوله « وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمر منها
٥٥	أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها
٦٠	وجه الإعجاز عند الإمام الخطابي
	القرآن الكريم يحكي في سياق آياته الحق والباطل والصادق والكاذب لأجل
٦٤	العظة والاعتبار
	الأثر النفسي للقرآن والروعة التي دخلت عليهم فأزعجتهم وقد كانوا يجدون له
٦٧	وقعاً في القلوب ، وقرعاً في النفوس يريهم ويحيرهم

- الوليد بن المغيرة تزداد حيرته في القرآن فلما اعتراه الضجر والفتور قال :
- ٦٩ إن هذا إلا قول البشر
- ٧٥ عدم وضع الكلام موضعه الأخص الأشكل معه فساد الكلام
ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة
- ٧٦ يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب
- ٧٧ مخاطبة الملوك يتمثل فيه حالهم وما يليق بهم
ألفاظ القرآن لا يدانيها ولا يشاكلها ألفاظ وقد وقعت في موقعها الأخص الأشكل
- ٧٨ بها في إفادة بيان مراد الخطاب
في الكلام ألفاظ متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة
- ٧٩ بيان مراد الخطاب
الرد على الشبه وتبرئة ساحة القرآن أن يكون فيه شيء من الألفاظ المتقاربة التي
- ٨٠ يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب
- ٨٣ الفرق بين الحمد والشكر
- ٨٦ الفرق بين الشح والبخل
- ٨٨ الفرق بين النعت والصفة
- ٩١ أصل القضية في هذه الألفاظ المتقاربة
- ٩٢ النضر بن شميل في مجلس المأمون
- ٩٣ الفرق بين الجلوس والضجعة
- ٩٥ بلى ونعم ونفي النفي إثبات
- ٩٨ الجواب (بلى) والجواب (بنعم)
لو قالت الذرية عندما قيل لهم ﴿ ألسنت بربكم ﴾ (نعم) بدل قولهم (بلى)
- ٩٨ لكفروا جميعاً
- ٩٩ (بلى) حرف جواب لا يجاب بها عن الإيجاب
- ١٠١ (من ، وعن) يفترقان في مواضع « أخذت منه مالا وأخذت عنه علماً »
- ١٠٤ الغلط في العدد إنما يعرض في الصلاة بعد ملابتها
- ١٠٤ الخطابي رحمه الله وبصر وذوق بمواطن الجمال
- ١٠٦ ابن قتيبة يسهو في تخريج قوله تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن ﴾
الفروق الدقيقة بين الألفاظ باب عظيم الشأن نابه البرهان عظيم الخطر وكثيراً
- ١٠٨ ما يعرض فيه الغلط
الحديث الشريف « أعتق النسمة وفك الرقبة » وليس الأمر من باب الترادف
- ١٠٩ والفرق بينهما

- ١١٠ سيويه والكسائي بحضرة الرشيد المسألة الزنبورية وانقطاع الكسائي
- ١١٢ الأعراب يجاملون الكسائي
- ١١٢ تهيب كثير من السلف الإقدام على تفسير القرآن الكريم
- ١١٤ امرأة العزيز أسيرة حبها وشهوتها
- ١١٧ تفسير قوله تعالى: ﴿فلما رأينه أكبرته وقطعن أيديهن﴾ هل الكبر بمعنى الحيض
- ١١٩ « ما » واستعمالاتها
- قريش إنما كاعوا وجبنوا عن معارضة القرآن لما كان يؤودهم ويتصعدهم من
- ١٢٠ القرآن الكريم
- ١٢٢ اجتماع نفر من قريش لاستماع القرآن وأثر ذلك على نفوسهم
- كانت قريش تدرك أن القرآن الكريم شيء ليس في مقدورهم من هنا تحوّلوا من
- المعارضة إلى المحاربة
- ١٢٤ الرسول ﷺ يتحدّى قريشاً مظهراً لهم النكير
- ١٢٥ قريش في الحرب حظهم مما فروا إليه حظهم مما فزعوا منه
- دعوى أن قريشاً لم تكن عاجزة عن معارضة القرآن وإنما الذي دفعهم إلى الحرب
- أمر آخر كان أجدى عليهم وأقوى في نفوسهم !!
- ١٢٧ الخطابي يفند هذه الدعوى ويرد على هذا الاعتراض
- ١٣٢ لا يحيط باللغة إلا نبي
- ١٣٥ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو من الفصاحة في ذروة السنام والغارب يقرأ
- قوله تعالى: ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ فلا يعرفه
- ١٣٥ ابن عباس رضي الله عنهما وهو ترجمان القرآن من آل بيت النبوة ووارث علمه
- يقول: « لا أعرف حناناً ولاغسلين ولا الرقيم »
- ١٣٦ تعريف الكلاله
- ١٤٠ العربية بحر واسع زاخر ولا يحيط بها إلا نبي
- ١٤١ المولى عز وجل يتحدّى العرب بشيء في مقدورهم ومن جنس ما برعوا فيه
- ١٤٢ ومادته بين أيديهم
- ١٤٣ ليس كل من أوتي حظاً من بديهة أو عارضة قادراً على مجاراة القرآن
- ١٤٥ البلاغة لا تعباً بالغرابة وإنما هي مذهب الأجلاف وأوحاش الناس
- شروط فصاحة الكلمة سلامتها من التنافر ، ومخالفة القياس وأن تكون قريبة .
- ١٤٦ وتلك فصاحة القرآن
- ١٥٠ رد الخطابي على من ادعى عدم فصاحة ألفاظ القرآن الكريم

- دعوى أن قوله تعالى : ﴿ فأكله الذئب ﴾ ليس أفصح وإنما المختار الفصح (افترسه الذئب) والردّ عليه ١٥٠
- دعوى أن قوله تعالى : ﴿ ذلك كيلٌ يسير ﴾ ليس أفصح ولم نسمع فصيحاً يقول : « كلت لزيد كيلاً يسيراً » إلا أنه يعني يسير العدد والكمية والرد عليه . ١٥٤
- دعوى أن قوله تعالى : ﴿ وانطلق الملاء منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ﴾ ليس أفصح ولو قيل بدل ذلك امضوا وانطلقوا لكان أبلغ وأحسن ؛ والرد عليه ١٥٩
- دعوى أن قوله تعالى : ﴿ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴾ ليس أفصح ، لأن لفظ الهلاك إنما يستعمل في الأعيان والأشخاص ؛ والرد عليه ١٦٤
- دعوى أن قوله تعالى : ﴿ وإنه لحبّ الخير لشديد ﴾ ليس أفصح وصحته أن يقول : « أنا شديد الحب لزيد ، والمال ونحوه » الرد عليه ١٦٨
- دعوى أن قوله تعالى : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ ليس أفصح ولا يقول أحد من الناس : فعل زيد الزكاة ، وإنما يقال : زكى الرجل ماله ، وأدى زكاة ماله ونحو ذلك من الكلام والرد عليه ١٧١
- دعوى أن قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدًا ﴾ ليس أفصح أن يقال : « جعلت له وداً » وإنما الأفصح أن يقال : وددته أو أحببته ١٧٥
- دعوى أن قوله تعالى : ﴿ ومن يُرد فيه بإلحادِ بَطْلَمُ ﴾ وقول تعالى : ﴿ إن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر ﴾ فأدخل الباء في قوله (بإلحاد) وفي قوله (بقادر) ١٧٧
- القرآن الكريم لم يخرج عن سنخ كلام العرب ونجره ولكنه كان معجزاً ١٧٩
- إن الكلام كان باقياً على نجره الأول وسنخ طبعه حتى زمان بني أمية ثم دخله الخلل فاختلف منه أشياء ١٧٩
- أئمة اللغة إنما أخذوها عن حرشة الضب وأكلة اليربوع ١٨٠
- العلماء لا يحتجون بشعر المحدثين ولا يستشهدون به كيشار بن برد والحسن بن هانئ وأضرابهم وإنما يرجعون في استشهادهم لشعراء الجاهلية والمخضرمين ١٨١
- نظعنهم سلكى ومخلوجة كرك لا مين على نابل ذهب من يحسن هذا ١٨١
- أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يأمر أبا الأسود الدؤلي بوضع قواعد النحو ١٨٥
- مقياس الفصاحة لدى علماء اللغة ١٨٦

- القرآن الكريم نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال وبين ظهرا نبي قوم أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزاً ١٨٧
- الرد على ابن الزبير في دعواه أن من يعبد الملائكة وعزير وعيسى ، فهل يشملهم قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ ١٨٩
- هناك زيادات حروف وحذف البعض منها يدركها العرب بطباعهم ولا يتغير المعنى بحذفها ولا بذكرها ١٩٠
- إنما تدخل الباء مع حرف الجحد كقوله تعالى : ﴿ أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيى الموتى ﴾ ١٩٣
- أهمية الحذف ومكانته وكلام الشيخ عبد القاهر الجرجاني فيه ١٩٤
- دعوى أن القرآن الكريم فيه الكثير من الحذف والاختصار الذي يشكل معه وجه الكلام كقوله سبحانه : ﴿ ولو أن قرآناً سیرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كُلمَ به الموتى ﴾ الآية ثم لم يذكر جوابه ، وفي ذلك تبير الكلام وإبطال فائدته والرد عليه ١٩٦
- حذف الجواب في قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ والرد عليه ١٩٨
- أهمية التكرار وأنه باب عظيم الشأن نابه البرهان وأنه في القرآن لغرض وغاية ٢٠٠
- دعوى أنه يوجد في القرآن التكرار المضاعف كقوله تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ في سورة الرحمن وقوله تعالى : ﴿ ويلٌ يومئذ للمكذبين ﴾ في سورة المرسلات وليس واحد من المذهبين بالمحمود عند أهل اللسان ولا بالمعدود في النوع الأفضل من طبقات البيان ؛ والرد عليه ٢٠٢
- التكرار أحد قسمين :
- ١ - قسم مذموم ، يستغني عنه الكلام وليس من ورائه فائدة .
- ٢ - وقسم محمود يقتضيه المقام ٢٠٣
- مراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة ٢٠٦
- تساؤل حول قوله تعالى : ﴿ يرسلُ عليكم شواظٌ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ من سورة الرحمن ثم يتبع الحق ذلك بقوله تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وأي نعمة هنا ؟ ٢٠٧
- خاتمة ٢٠٨
- ثبت المصادر والمراجع ٢٠٩
- فهرس الموضوعات ٢١٢